

الكتاب
الذهبي



<http://arabicivilization2.blogspot.com>
Amly

حتى يعود الهمر

بقلم محمود السعدني

التمن ١٥ قرشاً

مسم

حتى يعود القمر

الفصل الأول

لفظنى القطار عند منتصف الليل فى محطة الاسماعيلية ومضى ، والقلّة القليلة من الركاب تفرقوا فى الشوارع القريبة واختفوا ، وبدأ لى من النظرة الاولى للمدينة انها أقرب ماتكون الى مدينة خربانة ومهجورة ، والمحطة هى الاخرى كانت خالية تقريبا الا من شيال عجوز راح يهرش جلده السميك وهو يقفز حولى ويتشاءب فى خمول عارضا خدماته متشبثا بالحقيبة اليتيمة التى كانت تتأرجح فى يدي لشدة الهزال • وعندما خطفها الشيال العجوز ورفعها الى كتفه أحسست أنه ينوء فعلا بحملها •

فقد كان الرجل شاحبا هزيلا مقوس الساقين كأنه حيوان غريب !

ومضيت خلف الشيال أتطلع الى الشوارع والبيوت التى

يسند بعضها بعضا على الجانبين ، وكانت رغم قدمها وقبحها تحتفظ بطابع أصيل لم أره من قبل . وهزنى جدا أننى فى مدينة غريبة واننى وحدى وفى منتصف الليل ، وفى مغامرة صحفية مثيرة . وكان أكثر ماهزنى معنى خطر فى نفسى ، فهأنذا الآن ولأول مرة ، أجرب أن أكون مسئولاً ، وليست مسئوليتى تافهة مثل غيرى من البشر ، فأنا لست مسئولاً عن طفل وزوجة ومصاريق بيت ، ولكننى مسئول عن فترة من التاريخ ، وأنا هنا مندوب من جريدتى فى القاهرة لأصوغ هذه الفترة بقلمى ، ولأخوض المعركة الناشبة فى القناة بمدفع يطلق مدادا .

تلك اذن هى مسئوليتى ، وأنا بعد فى الثالثة والعشرين وان كان منظرى يوجب بأننى لم أزل فى الثامنة عشرة !

وانتزعنى من تأملاتى صوت الرجل العجوز الذى كان يحجل أمامى كأنه غراب . وأدركت اننى لم أنتبه اليه وهو ينحرف نحو اللوكاندة ، واننى سرت مع تأملاتى الى نهاية الشارع ، واللوكاندة تقع فى منتصف الطريق ، وعدت بسرعة خلف الرجل العجوز ، ووضعت على وجهى قناعاً من الحزم والعزم لأبدو - كما ينبغي أن أكون - رجلاً مسئولاً عن فترة من فترات التاريخ . ولكن هذا القناع لم يشفع لى عند صاحب اللوكاندة . فعندما القيى عليه السلام ، أخرج رأسه من تحت العباءة فى تودة شديدة كأنه سلحفاة ، وقال فى غير اهتمام :

- سلام يابنى .

وهزت كلمة يابنى أعماقى ، وأطارت القناع من فوق وجهى فبدأ عارياً مكشوفاً لصيى فى الثالثة والعشرين غير مسئول . حتى عن نفسه !

وبلعتها ، وسألته عن حجرة مناسبة ، فهز رأسه أسفاً ، وقال فى نفس اللهجة الهادئة الرتيبة .

- عندى سرير فاضى فى أودة ..

- فيها حد ؟

- واحد يونانى

وألقيت نظرة خاطفة على الساعة المعلقة فوق رأسه ، كانت تشير الى الواحدة تماما ، والدنيا شتاء ، والجو بارد ، والريح نشطت فى الخارج ، فقلت على الفور :
- حذى بعضه ..

وانتزعنت من جيبى بضعة قروش دسستها فى يد الشىال العجوز . وبدون أن يكلف نفسه عناء النظر اليها ، استدار الى الخلف وراح يزحف الى الشارع .

ونهض صاحب اللوكاندة وصعد السلالم أمامى ، وأمرنى أن اتبعه ، وتوقف عند الدور الثالث ، ثم اتجه الى حجرة وطرق بابها فى رفق أول الامر ، ثم فى ضجة بعد ذلك . وعندئذ انفتح الباب ، وأطل علينا رأس شاب وسيم رغم التكشيرة التى بدت عليه ، ولم يدر بين الرجلين حوار ما ، دفع الرجل العجوز الباب ، ثم ألقى بحقيبتى فوق السرير لينصرف :
- قاعد كام يوم ؟

- مش عارف

- طيب الصبح تكتب اسمك وعنوانك .

وأغلق الباب .. ومضى .

ووقفت وسط الحجرة حائرا لا أدري ماذا أصنع ، ونظرات اليونانى الحادة الملتهية تكاد تشطرنى وتحرقنى . وقلت له وأنا أحاول أن أكون ظريفا أولا وغير مهتم بنظراته ثانيا :
- فيه شماغات فى الدولاب ؟

ولكنه لم يرد . نظر الى مرة أخرى ، ثم تمدد على سريره ، وسحب الغطاء عليه ، وتركنى أدبر الامر وحدى وهممت بالخروج من الحجرة ، والفندق كله ، ولكن شجاعتى

خانتنى ، فألقيت بجسمى المتعب على السرير . ووضعت الشنطة تحت رأسى ، وحملت فى السقف وأشعلت سيجارة ، ورحت أنفث دخانها على حلقات فى جو الحجرة الحائق الدافئ . اللذيد ! وارتمت على شفتى ابتسامة باهتة لهذه النهاية الغربية لرحلة اليوم المثيرة . لم يكن يخطر على بالى وأنا أركب القطار الى الاسماعيليه اننى سأقضى ليلتى على فراش قديم فى حجرة ضيقة يقاسمنى فيها يونانى متعجرف قليل الذوق .

والرحلة نفسها لم تكن كما اشتبهت فانا أحب ركوب القطارات فى الليل ، ولى مقدرة عجيبة على النوم فى القطار وهو ينهب الارض وضجيج عجلاته يتصاعد الى السماء . والسفر نفسه هو هوايتى الوحيدة فى الحياة ، فما أجمل أن ينتقل الانسان من بلد الى بلد دون أن يستقر . ليس أبغض الى نفسى من الاستقرار ، الاستقرار للجماد وللجثث وليس للانسان الحى !!

ولكن هذه الرحلة كانت مهيبة وفى سواد الكحل ، كان القطار خاليا الا منى وخمسة من ضباط البوليس فى طريقهم الى الاسماعيليه ، لتعزيز قوات بلوكات النظام التى تقاتل الانجليز فى المدينة . وبدأ الحديث بيننا عن المعركة ، وتشعب الى غيرها من الامور ، ثم مضى وقت طويل ، والقطار ينطلق فى الصحراء كأنه أبرة تنفذ فى كوم رمل ، فنام بعضنا ، وسرح البعض الآخر ثم فجأة توقف القطار !

ولم يتوقف كعادة القطارات عندما تتوقف قبل المحطة ، ولكنه توقف فجأة كأنه اصطدم فى جدار ، أو انقلب فى حفرة ، أو خرج عن الخط وغاص فى الرمال . ونهضنا نحن الستة . . . وسبقنا أحدا فنظر من النافذة ، ثم هتف على الفور - انجليز . .

ومر صمت كئيب علينا بعد ذلك • فلم ينبس أحدا بحرف • وظل بعضنا واقفا ، وجلس البعض الآخر • ماذا يريد الانجليز من القطار ، ولماذا يوقفونه ، وهل سينتهى الامر على خير ! أم الى سوء لم تكن نتوقعه !

وقال ضابط كبير السن والرتبة معا ، وهو يتفرس في وجوهنا جميعا :

- ماتخافوش ، ماحدش يتحرك من مكانه •
وطمأنتنى كلماته ، فقد كانت نبرات صوته هادئة مطمئنة ••
وفتحت فمى على اتساعه كى أبدو لهم سعيدا وغير مهمتم
وقلت له وأنا أتصنع الشجاعة :

- همه هيعملوا ايه ؟

ورد فى كلمتين اثنتين ، وفى سرعة عجيبة :

- مش عارف •

وارتعشت أسناني فجأة رغم أن النوافذ كلها كانت مغلقة •
وارتعش بدنى كله عندما أحسست بوقع أقدام الجنود الانجليز ،
تدب على أرضية القطار بغلظة وغطرسة وقحة • وانفتح باب
الديوان فجأة وبعنف ، ووضع يدي على قلبى اشفاقا على نفسى
من المفاجأة • ولكن المفاجأة التى حدثت فعلا كانت أعجب وأغرب ،
اذ اقتحمت الديوان امرأة شقراء كالقمر ، شعرها أحمر فى لون
الشأى ، وجهها حلو اذا نظرت اليه لاتستطيع أن ترفع نظرك الى
شئ آخر •

كانت المرأة مضطربة ، واضطرابها زادها جمالا وأضفى عليها
لونا صارخا من الفتنة • وبعد أن توقفت وسط الديوان تتفرس
فى وجوهنا ، اتجهت من فورها الى الضابط الكبير الذى كان
يجلس فى وقار الى جانب النافذة ، وقالت وفى صوتها لكنة
غريبة •

- الانجليز فى القطار ، هل أستطيع الجلوس معكم أيها
السادة .

ونفض الضابط الكبير على الفور ، وقال وهو يقدم مكانه
للسيدة ذات الشعر الاحمر :

- تفضلى يا سيدتى . انك هنا فى أمان . .
ولوى شعرها الاحمر عنقى فلم أعد أرقب شيئا فى الديوان
سواه . ووضعت على وجهى قناعا زائفا من الوقار كما هى عادتى
كلما التقيت بامرأة جميلة . وقلت وأنا أحاول أن أبود فى جلد
الأسد .

- يعملوا ايه الانجليز فى القطر ؟

وردت فى بساطة وفمها يقطر شهدا :

- يضرّبوا الناس . .

وارعشت كلماتها ركبتى ، فأنا أواجه حكما بالاعدام وأنا فى
منتهى الثبات ، ولكنى أتهاوى أمام الضرب ، خصوصا اذا كان
الذى يضرّبنى جنودا مدججين بالسلاح !!

وجلست مكاني صامتا أتتبع المناقشة التى تدور فى الديوان
دون أن أعى حرفا منها ، كان عقلى سارحا فى شيء آخر . غريب
ومضحك فى آن واحد . جلست أتخيل المعركة التى ستنتشب
عما قليل ، وأرسم صورة فى خيالى للجنود الذين سينهالون على
جسمى بالضرب . والاماكن التى ستصيبها اللكمات والركلات
ومددت يدي دون ارداة فوضعتها على قلبى ، فأنا أخشى أن تصيبنى
لكمة فى قلبى فأموت . وأنا بصراحة أخشى الموت ، أخشاه كما
لا أخشى شيئا فى الوجود . وأتمنى أحيانا بينى وبين نفسى
لو أن الله جل جلاله أصدر قرارا واحدا خلال الدهر كله ،
باستثناء عبد واحد من عبيده بالبقاء حيا الى يوم القيامة ، وليكن
هذا العبد المحظوظ هو أنا !!

ولكن هل يموت الانسان من القلب فقط ؟ ان الضرب على
الرأس أخطر بكثير من الضرب فى القلب ، والضرب على الكليتين
يؤدى حتما الى الوفاة . وحزنت لانى لا أملك الا يدين اثنتين ،
أستطيع أن أحمى بواحدة قلبى وبالاخرى رأسى . . والكليتان
لهما الله . .

وبدا من صوت أحدى الجنود وهى تطرق على الممر الذى
يتوسط القطار انهم يقتربون منا . ثم ارتفعت أصواتهم تلعن
وتسب ثم انفتح الباب بشدة ، وامتد الينا سونكى لامع ، ثم تبع
السونكى كرش ، وتبع الكرش رجل غليظ الوجه كأنه خنزير ،
بارد النظر كأنه سمكة ميتة ، وجاء خلف الرجل الغليظ السمين

عشرة جنود تتدلى من أكتافهم مدافعهم ، وبين أصابعهم تشع
بطاريات ضخمة بخيوط قوية من النور . . وكانوا بملابس
الميدان ، حتى الحوذات كانت تخفى رهوسهم ، وفوق الحوذات
أغصان شجر وشباك من خيوط صفراء ، كأنهم على أبواب معركة
العلمين ، ، ومضت لحظات طويلة وسيل الجنود لا ينقطع ، حتى
ضاق بهم الديوان ، وراح كل منهم يرطن باللغة الانجليزية ،
وبلهجة اسكتلندية وفوهات مدافعهم مصوبة نحونا ، وأصابعهم
تتحرك فى عصبية على الزناد . . وشخط الرجل السمين الذى
كان يتقدم جيش الانجليز :

- وقوفا . . كلكم .

ونفضت قبل أن يتم الرجل كلامه ، وأدركت عندما نهضت
واقفا على قدمى انه ضابط وعلى كتفه تناثرت ثلاث نجوم باهتة
لا تلمع . . لانها من قماش . ونظرت حول ، فوجدت الجميع وقوفا
مثلى عدا الضابط الكبير السن والرتبة . . وتوقعت من نظرات
الضابط الاسكتلندى شرا ، وتوسلت الى الله أن يهدى الضابط

الكبير رفيق الديوان سواء السبيل فيقف ، وكفى الله المؤمنين شر القتال !

ومرت لحظات قصيرة صامتة ، تخللتها نظرات سريعة محمولة لامة بين الضابط الواقف والضابط الجالس ، وانتهت هذه اللحظات بشخطة من الضابط الواقف .. وبعنجهية تركي مملوك :

- قف .. أنت ، أيها الجالس ..

ولكن « أيها الجالس » لم يقف ، هز رأسه في هدوء ، وقال في غير اهتمام :

- أنا أرفض الوقوف أيها الكابتن ، وعليك أن تلاحظ أنني

جنرال ..

كان يتكلم بانجليزية سليمة ، وبلهجة راقية ، وبنبرات ثابتة هادئة ، وكأنه جنتلمان في حفلة راقصة . وأحسست بالفخر وزايلنى خوفى الشديد ، ووقفت أرقب فى شغف شديد نتائج المعركة بين ضابط انجليزى برتبة كابتن ، وضابط بوليس مصرى برتبة جنرال .

وأغمض الكابتن الانجليزى عينيه ، كانت جفونه عريضة وغليلة فبدت عندما أغلقها وكأنها ستارتان أسدلهما شخص خفى على نافذتين صغيرتين . ومضت لحظات والكابتن الانجليزى مغلق العينين ، وطرف لسانه يظهر ثم يختفى بين شفثيه المضمومتين فى حركة عصبية ، ثم فتح عينيه فجأة ، وكف عن تحريك لسانه ، ثم قال فى نفس اللهجة الوقحة :

- ولكننا - رغم كل شئ - سنفتشك يا جنرال !!

وأحسست بالراحة والطمأنينة لنطقه كلمة « جنرال » ..

فمادام اعترف أن الضابط الجالس جنرال ، فلا بد أن المعركة ستمضى الى نهاية مرضية .. على الاقل بالنسبة لى أنا ! وعندما انتهى الضابط الانجليزى الكابتن من هذه العبارة ،

تقدم الجنود منا ففتشونا فى همجية وفى عنف ، ثم تقدم الضابط الكابتن من الضابط الجنرال ففتشه فى رفق وبسرعة . وعندما انتهوا من مهمتهم بدأ الجنود يغادرون الديوان ، وفى النهاية نظر الينا الضابط الانجليزى المغرور ثم قال فى أدب شديد :

— معذرة أيها السادة ، هذه هى الاوامر . .

ثم انحنى . . وخرج . .

وبعد أربع ساعات طويلة كاملة وسط الصحراء وفى ظلام دامس لا يبدده الا شعاع خافت باهت رفيع من كشاف فى يد الضابط الانجليزى ، سمح الانجليز للقطار بالتحرك الى الاسماعيلية . . ولكن لماذا أوقف الانجليز القطار هذا الوقت الطويل ، مع أن تفتيشنا لم يستغرق أكثر من دقائق ؟

سؤال وجيه طرحه الضابط الكبير علينا ، ولكن أحدا منا لم يرد فلم نكن بعد قد افقنا من الذهول الذى استولى علينا . . وتولى كمسارى القطار الرد على سؤال الضابط الكبير ، ففى العربدة الاخيرة من القطار جماعة من الصاعيدة فى طريقهم الى الاسماعيلية ، كانوا فى طريقهم الى هناك ربما للعمل فى معسكرات الانجليز ، أو للخطف من معسكرات الانجليز ، أو لبيع الاطعمة والملابس على العمال فى معسكرات الانجليز ، المهم أنهم وفدوا من النجوع والكفور والقرى فى أعماق الصعيد . يجذبهم جميعا أمل واحد ، الانجليز فى القنال . .

ولكن هؤلاء فوجئوا — وهم لا يزالون بعد فى الطريق الى الاسماعيلية — بالانجليز يقطعون عليهم الطريق ، ويسددون اليهم فوهات المدافع ، وعندما أمرهم الضابط الانجليزى بإشارة من يده بالوقوف ، لم يفهموا المقصود بالضبط ، فخلعوا ملابسهم ظنا منهم أن الضابط يأمرهم بذلك ، وعندما بدأوا فى تفتيشهم

داسوا بأحذيتهم الضخمة على قفف العيش وصفائح المش التي معهم ، وكان بين الجمع المحتشد فى العربة الاخيرة ، صعيدى شاب عدد قتلاه يزيد على أصابع اليد الواحدة ، متوحش عاش حياته كلها فى الجبل الغربى قبل أن يجذبه ذهب الانجليز فى القتال . . هذا الصعيدى الشاب عندما بدأوا فى التفتيش داسوا على قفة عيش هى كل مايملك لرحلته العجيبة الى الاسماعيلية ، وعندئذ طاش صوابه فقبض على زمارة رقبة الجندى الذى داس على القفة . . وعبثا ضاعت كل المحاولات لتخليص رقبة الاسكتلندى القصير المعود من أصابع الصعيدى الفولاذية ، وعندما بدا لهم أنه شئ يشبه المستحيل أن يفكوا رقبة الانجليزى من يد الشاب الصعيدى ، تكفل الضابط بحل المشكلة فأفرغ رصاص مسدسه فى رأس الشاب . .

كان الكمسارى يحكى القصة وكأنه يقرأ حادثة فى جريدة ، رغم أنه كان من شهود الحادث ، كان يحكى الحادث بلا اهتمام ولا انفعال ، كأنه شاهد محايد فى مشاجرة بين طفلين .
وسألت الكمسارى وقد تحركت فى نفسى غريزة الصحفي - اسمه ايه الصعيدى ؟

ورد فى غير مبالاة وهو يستعد للخروج من الديوان .
- خد عارف اسمه ايه ، تلقاه اسمه حميده ، خد عارف !!
وانتزعقت قلمي ودونت الحادث على ورقة ودسست الورقة فى جيبى ، ثم قلت وانا أحاول أن أمزق الصمت الذى ران علينا :
- أول شهيد من شهداء المعركة . .
وفجأة ، قطع جبل تفكيرى شريكى فى الحجرة ، اليونانى الوسيم . وقد قفز من فراشه فى عصبية بالغة ، واتجه كالقذيفة نحو زر النور واطفأه دون أن يستأذن ، ثم لعن سنسفيل جدوى بلغة أثينا ، وعاد الى فراشه ، وتمدد فيه ونام . .

وفكرت لحظات فيما يجب على أن افعله تجاه اليونانى الوقع
الذى أعلن سخطه بصراحه وحدد موقفه منى بلا رياء ..
هل انهض من فراشى وأجره من قدمه واصفعه على قفاه
والقنه درسا فى الادب والاخلاق ؟

ولكن من يديرنى لعله أقوى وأصلب وربما لكمنى على رأسى
مافقدنى وعيى . وأعصابى التى مزقها حادث القطار لم تعد
تستطيع مواجهة خناقة من هذا النوع ..
اذن ، هل انهض من فراشى وأضيق الحجرة فاذا احتج
استخدمت فصاحتى فى تلقينه درسا فى الادب والسلوك ؟
ولكن حتى هذا لم أكن قادرا على تنفيذه ..

فاكتفيت بالتقلب على الفراش والتحديث فى الظلام ، ثم
ابتسمت عندما تذكرت الرعب الذى تملكنى فى القطار ، ياهل
ترى اكتشف الذين كانوا معى اننى كنت أشد ذعرا من أرنب ،
واكثر حذرا من غراب .. والمرأة ذات الشعر الاحمر فى لون
الشاي ، هل راقبتنى أثناء المعركة ؟ . وهل اكتشفتنى
واحترتنى وهل أثرت انتباهها ، هل تركت فى نفسها
أثرا ؟

لقد تعمدت أن أعلن عن شخصيتى أمامها عندما سألت
الكمسارى عن اسم الصعيدى القليل . فأنا أعرف أن عندالنساء
ضعفا أمام كل من يستطيع أن يحقق لهن وسائل الظهور على
أى نحو !!

ولقد كان لقائى بالمرأة المهلبية فرصة ذهبية لأحقق حلمي
من أحلامي . فما من قصة كتبت عن صحفى ، وما من رواية
أخرجتها السينما عن حياة صحفى ، الا وفيها قصة حب . قصة
حب عنيف سريع ملتهب تنتهى دائما بالفراق !! فوقت الصحفى

ليس ملكه ، مادام هناك من يصنع الاخبار ، ومادام هناك من ينتظر قراءتها !!

ولقد تحقق معنى جزءان من القصة • البداية والنهاية ، اللقاء والفرق ، التقينا وافترقنا دون قصة حب !! ومن يدرينى ؟ لعل جميع الصحفيين الذين جابوا الارض شرقا وغربا حدث لهم نفس الشيء ، وأضافوا قصة الحب دون علم الطرف الآخر !! وهأنذا الآن ، صحفي بئس ، على سرير خشب ، وفى حجرة أشبه بالزنزانة وزميلي اليونانى يرتفع شخيره الى الجو • والفجر على الابواب ، والمدينة غارقة فى الصمت والانجليز خارجها يطوقونها ويسدون مداخلها ، وفى الصباح تبدأ الدوامة تدور ، وأدور معها فى كل اتجاه ، حتى أدوخ !

وخطفت نظرة على اليونانى الممدد كالسمكة المشوية فوق الفراش ، ثم القيت نظرة على الساعة ، كانت الرابعة صباحا ، وصياح الديكة يرتفع من فوق أسطح البيوت ، وصوت احتكاك عجلات الكارو على رصيف الشارع يتصاعد من بعيد ، ورائحة الصباح بدأت تعبق فى الجو • وعيناي أصبحتا مثقلتين كأنهما محشوتان بالرمل •• ورأسى راح ينبج كان مطارق من صلب تسحق عظام رأسى من الداخل ••

ومددت يدا مرتعشة وسحبت الغطاء على رأسى ورحت فى نوم عميق !! ولم أنم طويلا ••

افقت من نومى فى الصباح على حلم مزعج ، رأيت نفسى أعبر شريط السكة الحديد والمساء فى أوله أو فى آخره ، ولون الكون اسود فاتح ان صبح هذا التعبير وقطار الديزل السريع يتحرك نحوى فى سرعة النفثة ، وخلق كثيرون يتصايحون على مقربة

منى ، ويزداد صياحهم ، وترتفع أصواتهم ، وتنطلق هذه الاصوات كأنها الرعد !

وقمت مذعورا وأنا الهث ، والعرق يتصبب على وجهي كأنني كنت فعلا فى معركة مع القطار ، وأصوات كالرعد تتصاعد الى السماء وتهز نافذتى فى عنف • وأصخت السمع الى الصوت الذى كان يهدر كموج البحر ، كانت أصوات جموع حاشدة تهتف « الموت للانجليز » وكلنا شهداء المعركة ••

والقيت نظرة على الفراش الآخر •• كان خاليا ولم يكن اليونانى هناك •• ويبدو أنه لن يكون هناك على الإطلاق ، بدت الحجرة عارية تماما ، وليس فيها أثر يدل عليه ••

ونهضت من فراشى متثاقلا ، والقيت نظرة على الساعة كانت التاسعة صباحا ، وأنا أحس فى نفسى جوعا الى النوم ، جوع قاتل جعل رأسى يتضخم كالبطيخة البلدى ، وعينى كأنهما محشوتان بالرمل •• وفتحت النافذة والقيت نظرة على الجموع الحاشدة التى كانت تتظاهر فى الشارع •• كانوا خليطا من الحفاة العراة وبعض الافندية يقودون المظاهرة ، والناس الآخرون فى الشارع يتفرجون عليهم فى بلاهة وبلا اهتمام ، ولم يلبث المتظاهرون ان مضوا الى نهاية الشارع ثم انحرفوا ناحية اليمين واختفوا وخفتت أصواتهم ، وعاد الهدوء الى الشارع من جديد ••

وأغلقت النافذة وارتديت ملابسى على عجل ، ونزلت وثبا الى الشارع ••

كان الصباح جميلا والشمس تتطلع على الجدران وخمانة كسلانة ، لاتتحرك الا ببطء ، وان تحركت فلكى تفر الى الشقوق الكثيرة العميقة التى كانت تزين حيطان البيوت فى شوارع الاسماعيلية ، ولم يكن بالشارع أحد فى مثل هذا الوقت ، حتى

المحلات كانت نصف مغلقة نصف مفتوحة ، وعساكر البوليس فى خوذاتهم الصفيح ، وعصيهم الشوم يقطعون الطريق فى ثقال ، ويجرون أقدامهم من شدة الاجهاد ، وبعض الرجال يسعون الى أرزاقهم كل منهم متقوقع فى همه ، والمعركة الناشبة على الأبواب ليست على باله ، انه لا يذكرها الا كلما انفتحت فوهات المدافع تطلق النار ، ثم لا يلبث ان ينساها كلما كفت المدافع عن اطلاق النار !!

وجدت نفسى فجأة أمام مكتب حمزة بك عبد المقصود ، أحد الاثرياء اللامعين فى المدينة ، ورجل السياسة الذى شهد له كل الناس بالدهاء ، والبرلماني الذى دخل مجلس النواب فى كل مرة ، وفى كل مرة يكون نائبا لحزب آخر . : هو دائما حزب الحكومة ، وصاحب الاعمال الذى يربح من ورائها الملايين ، وينفق من ورائها الملايين ، يشتري اللسن والاقلام والقلوب أحيانا فانت لا تعدم ان تجد رأيا عاما يؤيده ويحبه ، يحبه باعتبار أنه فهلوى وابن بلد ، وانه ينهب أموال الانجليز !

سألت عن حمزة بك قالوا انه غير موجود ، انه فى اجتماع فى فندق « بالاس » وتطوع الرجل الذى استقبلنى عند الباب بتوصيلى الى الفندق ، وقبلت معونته شاكرا ، وسرت الى جواره نقطع شوارع الاسماعيلية فى صمت ، قطعه هو بسؤالى عن البلد الذى جئت منه ، ثم عن مهنتى ، ثم عن اسمى ، وبعد دقائق كان يعرف كل شىء عنى ، وعندئذ بدأ يخاطبنى باسمى مجردا ، كأننا صديقان منذ الطفولة ..

وعندما جاء ذكر حمزة بك فى الحديث وصقه بأحط الاوصاف ، ودهشت ، فكيف يعمل عنده وهذا رأيه فيه ؟ وعندما أفصحت له عما يدور بخلدنى ، قال مستنكرا :

— أنا ما يشتغلش عنده ، أنا كنت هناك بأسأل عنه بس دا
واجل جبان ٠٠

كان رفيق رحلتى الى فندق بالاس شابا فى الخامسة والثلاثين
أضاف إليها الاجهاد عشرة أعوام أخرى ، بدت فى الغضون التى
كانت تحتل شذقيه ٠٠ وفى السواد الذى كان يحيط بعينيه .
وفى جسمه النحيل الطويل المقوس على نحو ما ، كأنه عصا
خيزران قوستها شمس الصيف . وكان يتكلم بمرارة ، وكانت
هذه المرارة هى طابعه أبدا ، حتى اذا كان حديثه عن الجو الممتع
الذى تشهده الاسماعيلية هذا الشتاء !!

وحكى لى قصته ببساطة ، ولم يكن فى قصته ما يخجل ، ولم
يكن فيها ما يدعو الى الفخر . وكان يحكيها ببساطة وبألية ،
وكانه يتلوها من أسطوانة مسجلة داخل نفسه . وخيل الى انه
حكاه ملايين المرات . حتى أصبحت القصة روتينية . لم يعد
فيها ما يثيره هو شخصيا ، فأصبح كلما سأله أحد تقيأها دون
اهتمام !

ولكن الذى أثارنى فى قصته العادية هو دوره فى الفصل
الآخر ! أنه الآن — ولحبرته الطويلة — فى معسكرات الانجليز
يعمل مستشارا لكتيبة وحوش الجبال ، انه يعرف مواقع
الانجليز ، ومعسكراتهم ، ومخازنهم ونوع أسلحتهم والمسالك
الخفية داخل القاعدة ، ومواعيد الحراس ، أنه باختصار ، يعرف
أسرار الانجليز كأنه واحد من القادة العظام !!

وجوده هذا الصباح عند مكتب خمرة بك ، كان جزءا من
مهمته فى الكتيبة ، انه يبحث للكتيبة عن سلاح وعن معدات ،
وهو يطرق أبواب الاثرياء فى المدينة يطلب منهم ان يتبرعوا
لتسليح الكتيبة ٠٠ ولكن أثرياء المدينة لم يستجيبوا لطلب

فتحى ، هذا هو اسمه ، والسبب انهم غير مؤمنين بجدوى هدم
الاعمال ٠٠ ان الانجليز أقوى ٠٠ انهم أقوى من هتلر ، لقد
هزموا العالم ٠ وليس من اليسير أن تهزمهم عدة بنادق أثرية
مع البوليس ، ومجموعة من المدافع القديمة فى عهدة الفدائيين !
ولكن فتحى بدير كان يرى عكس هذا الراى ، قال لى فى ثقة
بالغة وكأنه نابليون صغير :

— أنا عاوز ألف راجل زى حموده وأنا أخرج الانجليز ٠٠
وعندما سأئلته عن حموده هذا ، قال وهو يهز رأسه
اعجابا :

— بكره تشوفه ، واد زى الجن الأحمر !
عندما وصلنا الى فندق بالاس ، كانت المظاهرة تتجمع امامه ،
وأفندى نحيل يركب أكتاف البعض ، ويهتف بصوت مسلوخ
« الموت للانجليز » ومجموعة من الحواجبات فى شرفة الفندق
يحيون المتظاهرين بالتلويح لهم فى مودة ، والتصفيق كلما
زعمق الافندى النحيل بهتاف من هذا النوع ٠٠

وودعت فتحى على أن نلتقى فى صباح اليوم التالى ، واختارت
الجموع المتراصة ودخلت لفندق ، وسألت عن حمزة بك ٠٠
وقادنى الخادم الى حجرة معطرة ، ثمينة الرياش ، واستقبلنى
حمزة بك مبتسما فى رشاقة أمير تركى ، وقدمنى الى الموجودين ،
كانوا جميعا بهوات ، ومن رجال الاعمال ، ومن رجال السياسة
فى الوقت نفسه ٠ وقال حمزة بك وهو يدعونى للجلوس :

— اننا اليوم هنا لنبحث الموقف فى المدينة ٠ اننا نواجه
أعباء جساما ٠٠ لكن علينا أن نتصرف ٠٠ والامكانيات كما ترى
ضئيلة ، ولكن علينا أن نصنع شيئا فى حدود هذه الامكانيات -
اننا ندبر الامر ونرجو أن نوفق فى مسعانا ، وعليك انت الآخر
أن تمد لنا يد المساعدة ، فكل رأى سيفيدنا حتما ، خصوصا إذا

كان رأيا مخلصا ٠٠ عاقلا ، فالتهور هو مأساة هذا البلد منذ
هوجة عرابي حتى اليوم !!

وانطلق الجميع في حماس فأيدوا رأى حمزة بك ، وحبذوا
استعمال العقل في معالجة هذا النوع من الاحداث ٠٠ ولكنهم
اتفقوا جميعا على رأى واحد ، هو ضرورة قتال الانجليز الى آخر
قطرة من الدم ٠٠ الى آخر طلقة رصاص ، الى آخر نفس يتردد ،
الى آخر العمر !!

وانفض الاجتماع بسرعة ، وصفق حمزة بك فى رشاقة وطلب
دور ويسكى للجميع ، وجلست أرتشف قدح الويسكى فى لذة
وأنا أنظر بامعان الى حمزة بك ٠٠ كان أحمر الوجه كالديك الرومى ،
لولا الطربوش الذى يعلو رأسه لحسبته خواجا وفد الينا من
وراء البحر ٠٠ وكان فى الخامسة والاربعين ، ولكنه فى حيوية
ابن الثلاثين ٠٠

وكان أبرز ما فيه عيناه ، كانتا صغيرتين كأنهما عينا أرنب ،
ولكنهما كانتا ثابتتين نفاذتين عميقتين كأنهما عينا ثعبان ٠٠
وكان رغم ثباته يخفى قلقا بالغا فى نفسه ٠ كان يتحدث فجأة
ويصمت فجأة ، ثم يزفر بشدة فجأة أيضا ٠٠ وكأنه كان يدرس
بينه وبين نفسه موضوعا أدى به الى هذه الحركة فى وقت غير
مناسب ٠ وكان يهب واقفا على قدميه فجأة ثم يبتسم للجالسين
ويعود مرة أخرى الى الجلوس وكان يدخن بشراهة ، يشعل
السيجارة ويشفط منها أنفاسا متلاحقة محمومة ثم يلقي بها
على الارض ويدوسها بقدمه بشدة حتى يسحقها ، ثم يشعل
سيجارة أخرى وينتهى بها الى نفس المصير !!

وعندما نظر الى فجأة ، كانت عيناي مصوبتين نحوه ، فابتسم
ابتسامة قرعاء ، وجذبني من كتفى ، وقال وهو ينتحى بى ركننا
عن الاركان :

- ايه يا ابو الرجاله ، ارى الحال ؟ ..

- كويس الحمد لله ..

- عاجبك الحال ..

- انشا الله يبقى عال ..

- هيبقى عال امتى بس ؟

- بكرة يبقى عال ..

ولعق شفتيه بلسانه ، ثم ابتسم نفس الابتسامة القرعة
وربت على كتفى ، وقال فى ود عميق :

- محتاج حاجة ؟ ..

- أبدا ..

وقال وهو يهزنى بعنف :

- طيب أنا خدامك على كل حال ، أى حاجة تحتاجها اتا

تحت أمرك ..

وشكرته ، وعدنا معا الى الاجتماع ..

كانت أقداح الويسكى لاتزال تدور ، وهتافات الجماهير
لاتزال تدوى فى الخارج وتتصاعد الى السماء .. وصفق حمزة
بك من جديد وطلب دور وسكى أخير . ثم نادى على الخادم وقال
بصوت عال :

- مدام ريتا ياولد ..

وجرى الخادم مسرورا فى ردهات الفندق الواسعة ، ونظر الى
حمزة بك .. وقد بدا تأثير الخمر يتحكم فى حركاته :

- شرفتنا .. هوريك حته واحده سنت ، ما فيش اختها فى
الاسماعيلية ، سنت وطنية ، أحسن م المصرية ، أحسن والله ..

وانطلق الجميع فأمنوا على رأيه ، وأضاف بعضهم أوصافا
أخرى الى الست التى لم أتشرف برؤيتها بعد ، وصاح رجل

معمور من الجالسين وطربوشه يتطوح على رأسه ويكاد يسقط
على الأرض

« أجدع م الراجل ٠٠ ايه الراجل يعنى ، طظ ، فيه راجل
موش راجل ، كدا والا لا ٠٠ »

ثم سكنت فجأة ونهض واقفا كأنما لدغته حشرة ، وانحنى فى
احترام بالغ ٠ وأدهشنى مسلكه ٠ ولكن فوجئت بالجميع ينهضون
واقفين ، فنهضت أنا الآخر ، وارتفع صوت أنثوى جميل سبقه
عطرها النفاذ ، والتفت الى مصدر الصوت ، ورأيتها ٠٠

كانت هى نفسها ذات الشعر الاحمر فى لون الشاى ، فاتنة
شديدة الفتنة ، جميلة صارخة الجمال ، شهية كأنها قالب قشطه
دافئة كأن أنفاسها تهب من جهاز مكيف للهواء !!
وقدمنى اليها حمزة بك ، وقال أحمد بك وهو يترنج - كنا
لسه بنقوللوا ٠٠ أسأليه كده ، اسأليه ياسنت قولنا له ايه
أجدع ست والله العظيم ٠٠

وحججه حمزة بك بنظرة لافحة ، فقال على الفور :
- حتى حمزة بك قال أجدع ست وطنية ، أى والله كده ،
أصل دا بتاع جرايد ، بكره يكتب عنك ٠٠
وأشار بأصبعه نحوى ، وقال وهو لايزال يترنج :
- ابقى اكتب عنها ، فاهم ٠٠٠
وهزئت رأسى موافقا ، وقلت فى همس مسموع :
- انشاء الله ٠٠

ودعنا هى الى الجلوس ، وجلسنا وهى معنا ، وطلبت هى دور
ويسكى للحاضرين احتفالا برجل الجرايد الذى هو أنا ، ثم نظرت
الى نظرة طويلة ، وربتت بأصابعها على خدى كأننى طفل جميل ،
وقالت فى صوت كصوت الكمنجة :
- بقالك كتير فى الاسماعيليه ٠٠

— يوم واحد بس ، أنا جيت فى قطر امبارح ، الى انت كنتى فيه ..

وشبهت المرأة الحلوة ، وقالت وهى تفتح فمها الى آخره ، وان كانت الفتحة لم تزد عن فتحة دبلة رجل نحيف :

— أوه .. ما تفكرينش ، دى كانت ليلة !!

ورد احمد بك وهو يبعد الكأس عن فمه :

— سلامتكم ، ألف سلامة • حمد الله على السلامة ..

وضحكت المرأة الحلوة ، وضحك احمد بك اكراما لها ، فلم يكن ثمة ما يدعو الى الضحك ..

وجلست تحكى لهم عما حدث لها فى القطار ، وجلست أنا أتأملها جيدا .. هذه المرأة ذات الشعر الاحمر فى لون الشاى ، وبشرتها الناعمة كأنها جلد ثعبان ، وعيناها الضاحكتان كأن كل عين فيها فم يبتسم ، وذقنها الرقيقة المدببة ، وبداها العاجيتان كأنهما تحفتان ، وثوبها الأسود الذى يكاد يأكل من جسمها البض الفاره ، كأن رساما عبقريا قد رسمه على مقاييس عالمية لتكون نموذجا للجمال !!

ولكن من تكون مدام ريتا هذه ؟ وما صلتها بحمزه بك ؟ وأى علاقة تربطها باجتماع لمناقشة الموقف فى المدينة ؟ وأى دور تقوم به هذه السيدة الجميلة التى ترتدى ثوب الحداد ؟ وأى سر تخفيه خلف الابتسامة الجميلة ، والعيون المبتسمة ، والردف المتكور الذى يكاد يتمزق تحت وطأة الثوب ويبرز للعيون !!

كانت مدام ريتا لاتزال تتكلم ، وحمزه بك ينصت فى غير اهتمام ، واحمد بك يشرب بلا انقطاع ، وأنا أتفرس فى وجه السيدة الجميلة ، بينما كانت أصوات المتظاهرين تعلو فى الجو ، وتقتحم النوافذ علينا ، وتصل الى أسماعنا من بعيد ، وكانت تهتف بسقوط الانجليز ، وحياة حمزة بك ..

وفجأة نهض حمزة بك ، فنهض كل الآخرين ، ومد يده
فأمسك بيدها فى رفق ، ناعم ، وانحنى فقبل أناملها فى حب
عميق ، ثم انصرف مهرولا من الفندق ، واحمد بك خلفه ، يتبعه
الآخرون !! ٠٠

وعندما أبصرت الجموع الحاشدة حمزة بك فى طريقه الى
الخارج ، تضاعفت الهمات بحياته . ووقف هو على درجات
السلم ينظر الى الحشود نظرة متعالية ، وقد اتخذ سمت الزعماء
المدربين . ثم رفع يده يأمر الجميع بالصمت . وعندما هدأت
الضجة ، ارتفع صوته هادئا جليلا كأنه موسى يعظ بنى اسرائيل
ولم أسمع شيئا . فقد اندفعت الجموع نحوه وحملته عنوة على
الاعناق ، وانطلقت هتافاتهم ترج الجدران بحياته واتجهوا به
نحو ميدان المحطة ، بينما ارتفعت زغاريد النساء تدوى فى
الجو ، وجناجر الرجال تكاد تتمزق من شدة الصياح ، وعندما
القيت نظرة على الجموع الحاشدة قبل أن تختفى من أمامى أبصرت
رفيق رحلتى الى فندق بالاس ، فتحنى بدير وعروق رقبتة النحيلة
كأنها حبال غسيل تكاد تشق الجلد الرقيق ، وفمه الواسع
مفتوح على آخره ، وصوته المسرسع كصوت طفل يصرخ ساعة
الميلاد ، يرتفع الى الجو ، هاتفا بحياة حمزة بك ٠٠

الفصل الثاني

استيقظت في الصباح الباكر على صوت فتحي بدير يسرع في أذني يأمرني بالنهوض ، وعندما نظرت اليه نظرة استنكار هتف وهو يتجه نحو النافذة :

- حمودة تحت !!

هتف بالاسم كأنه يعلن عن وجود شخصية مرموقة تعرفها الجماهير ، ولم أكن أعرف حمودة ، ولم أكن قد سمعت باسمه من قبل . ورمقني فتحي بنظرة احتقار لجهلى الشديد ، وقال وصوته يعلو ويخشوشن :

- حمودة ، ماتعرفش حمودة ؟

وقلت ببساطة وأنا أزيح الغطاء من فوق

- لا ، حمودة مين ؟

وثب فتحي نحوى وجلس على حافة السرير وقال فى زهو شديد :

- قائد كتيبة وحوش الجبال ..

ثم قال وهو يفتش فى جيوب جاكنتى عن سجايه ..
- دا أجدع راجل فى الاسماعيليه . دا لوماحموده كان
الانجليز حرقونا .

وارتديت ملابسى على عجل ووثبت السلالم خلف فتحى وبى
شوق شديد لرؤية حمودة . الرجل الفولاذى الذى يحمى المدينة
من بطش الانجليز !!

وعندما دخلنا صالة الفندق لم يكن بها أحد سوى خواجه
عجوز اختار مكانا مشمسا ، وجلس محنيا مستندا على عصاه
ينظر الى الشارع ويتأمل الحياة التى تدور أمامه خلف واجهة
الفندق الزجاجية . .. ورجل فى منتصف العمر يرتدى ملابس
بلدية ، ويتعمم بجلباب ، واطراف العمامة تتدلى على جبهته
وتخفى عينيه وكأنه فى ملابس تنكرية . ويبرز من وجهه شارب
كث ، شعيراته الحادة الطويلة مصوبة الى الامام . خشنة نافرة
كأنها أسلاك شائكة مضروبة حول بعض المعسكرات ..

وتقدم فتحى من الرجل المعمم وحياء ، ثم قدمنى اليه ،
فصافحنى بلا اهتمام ، وسألنى فى غطرسة القائد الحربى
المشهور ..

- انت بتاع جرايد ؟
ولما أجبتة بالايجاب ، قال فى لهجة المتفضل :
- مرحاب ..

وبلا أدنى حذر من جانبه راح يستعرض أمامى قوة الكتيبة .
ويعدد أسلحتها وأنواعها والاماكن التى يخفى فيها أصابع
الديناميت ، حتى عناوين أفراد الكتيبة سردھا أمامى دون مبالاة ،
ثم قال وهو يطرقع أصابعه الضخمة فى نشوة ..
- هتكتب يوم ايه ؟ ..
- أكتب ايه ..

- حديث معايا ، عاوز حديث يهز الانجليز ، خليه بعنوان
• حمودة رئيس وحوش الجبل يتكلم « ٠٠ ايه رأيك بكرة ٠٠
ولما بدا أننى غير متحمس قال على الفور :
- بعد بكره ؟ بعد بكره زى بعضه !
- لكن المسائل دى عاوزه ترتيب يامعلم حمودة ٠٠
- كده ، طب انت حر بقى ٠٠

وتململ على مقعده كأنه يهم بالانصراف ٠٠
وخفت أن أفقد حمودة الى الأبد فقلت محاولا ارضاءه
- احنا نتقابل بكره ونتفاهم فى الحكاية دى يامعلم ؟
ورد حمودة فى سخرية :
- بكره ؟! وانت بكره هتشوفنى فىن ؟ قدامك شهر عشان
تشوفنى تانى ٠٠
- ليه ؟ مسافر ؟

وابتسم ابتسامة رثاء لجهلى بالموضوع • ونظر الى فتحى نظرة
ذات معنى ، وتطوع فتحى لشرح الموضوع ، قال وهو يمسك بيد
المعلم حمودة :

- حمودة طالع الجبل من بكره ، هيحارب الانجليز ٠٠
- طالع الجبل ؟!!

قلتها كأنى قد عثرت على كنز ، فلو أن حمودة طلع الجبل غدا
فمعنى ذلك ان حمودة هو الشخص الوحيد الذى اختارته الاقدار
ليكتب صفحة جديدة فى تاريخ مصر ٠٠ فحتى هذه اللحظة كان
القتال من جانب واحد ٠٠ الانجليز يطلقون النار والناس
يواجهون النار بالهتاف ، وأسماء كتائب تنشر وتذاع على
الناس • ومعارك تدور رحاها على صفحات الجرائد فى القاهرة ،
ولكن لا أصل لها ولا فصل وفى منطقة القناة ٠٠ وها هو حمودة
الجالس أمامى فى فندق فؤاد فى الاسماعيلية سيبدأ المعركة

غدا، ولن يكتفى بالدفاع ، انه سيهاجم الانجليز غدا ، ومن هنا ، من حمودة ، تبدأ حرب التحرير المقدسة !!

ونظرت الى عيني حمودة أحاول أن أسبر أغواره . كانت عيناه فى لون العسل المخلوط بالطحينة ، وكانت عميقة ونفاذة ، وتشع بريقا غريبا ، كأنها جذوة نار تأكل نفسها ..

ولكنها لم تكن تفصح عن شيء ، كان البريق الذى فى عينيه خليطا من الخداع والذكاء ، ايمان نبى ، وعزيمة زعيم عصاة ، ولم تستطع فراستى أن تحدد أى نوع من الرجال .. حمودة ! وقلت لحمودة وقد ازداد اهتمامى به :

- طيب وهشوفك ازاي ..

ورد فى هدوء شديد :

- لما القمر يطلع ..

ولكن ما علاقة طلوع القمر بظهور حمودة ، سؤال وجيه تطوع فتحى بالاجابة عليه :

- طول ما القمر طالع حمودة يبقى معانا ، القمر يختفى حمودة

يزحف على طول ..

وكانما شرح فتحى لم يرق لحمودة ، فعقب على حديث فتحى محاولا أن تكون الصورة كاملة فى ذهنى :

- القمر يختفى من هنا ، وأنا أزحف على طول . أنازى الدير

من غير مؤاخذه ، القمر عدوى !!

- يعنى ما اقدرش أشوفك بكره ؟

- اطلع لى الجبل ، فتحنى يجيبك .

وهز فتحى رأسه موافقا على الفور ، وقال متحمسا :

- نطلع على البحيرة ، ومن هناك نطلع الجبل على طول ..

ولكن حمودة اعترض على هذه الفكرة .. واقترح أن نطلع الجبل من ناحية القناة .

- البسكه هناك سالكة ، مافيش انجلين ..
وعندما انتهى حمودة من حديثه ، صفق بشدة ، وطلب فنجان
قهوة سادة ، ثم انتزع من عمامته ورقة سلوفان والتقط من
داخلها قطعة أفيون دسها تحت لسانه ، ثم راح يرتشف القهوة
على عجل ، ونظر الينا معتذرا :

- لامؤاخذة ، بقالى أسبوع مامتش .

وسألته فى سداجة :

- ليه ؟

وقال وهو يهز رأسه :

- ليه ازاي ؟ الحرب ياسيدنا لفندى ، انت بقالك كثير فى

الجر ايد ؟

- خمس سنين ..

- لسه بدرى ..

كان حمودة قد انتهى من فنجان القهوة عندما نهض واقفا

ونظر نحوى برهة قبل أن يسألنى :

- تحب تشوف الكتيبة ؟

وأجاب فتحنى بدير على الفور :

- مافيش مانع ..

ولم ينتظر حمودة حتى يسمع جوابى ، مضى فى طريقه يتبعه
فتحنى بدير وأنا ، ورحنا ثلاثتنا نقطع شوارع المدينة والمعلم
حمودة يتمخطر أمامنا فى عظمة الابطال ، ويرفع يده بالتحية
كلما مر موكبنا على قهوة ..

وكان الناس فى المقاهى على الجانبين كلما اقترب حمودة منهم ،
يهيون واقفين محيين بصوت غال ، متوسلين بأغلظ الايمان أن
يتفضل حمودة بالجلوس ولكنه لم يتوقف أبدا ، مسكتفيا براد
التحية من بعيد . واختلاس النظر خلفنا أحيانا ليطمئن أننا

نسير خلفه واننا نشهد هذه المظاهرة الشعبية التى قوبل بها
على طول الطريق .

وعبرنا ترعة الاسماعيلية واتجهنا نحو ربوة عالية ، وعندما
بلغنا قممتها ، أخذنا نتدحرج نحو السفح ، الى بحيرة التمساح .
كانت البحيرة تبدو أمامنا ونحن نهبط الربوة ممتدة الى
مالا نهاية ومياهها الزرقاء ساكنة لا تتحرك ، وهناك قوارب صيد
صغيرة تتناثر هنا وهنا بلا حراك ، وخيل الى أن البحيرة ،
والمراكب والسحب البيضاء التى تطبق عليها عند نهاية الافق
مجرد خيالات وانها لوحة شديدة الاتقان رسمها فنان مجنون على
رقعة فسيحة من الصحراء .

كنا قد بلغنا سفح الربوة عندما واجهنا سور قديم تسلقه
بعض النباتات ، وتبدو من خلال شقوقه مياه البحيرة ، وعلى
مرمى البصر تقوم حلقة السمك كالحلقة اللون ، تهب منها رغم بعد
المسافة رائحة السمك النفاذة ، ويحوم حولها بعض الصيادين ،
وترسو أمامها عشرات القوارب ، ثم سلسلة تلال من الرمال
الصفراء تحتضن البحيرة وتمتد الى مالا نهاية .

ودار حمودة حول السور وانحرف ناحية اليسار ودفع بقدمه
الغليظة بابا سميكا من الخشب ، وانزاح الباب وهو يصرخ كأنه
رجل جريح ، ثم كف عن الصراخ عندما استقر على جدار السور ،
وانفتح الباب عن حوض فسيح ، تنائرت فيه أكوام رمل ، وقطع
دبش ، وكتل خشب ، واستقبلتنا وسط الحوش امرأة فى جلباب
أحمر رخيص . فى الخامسة والعشرين ، شعرها أسود فى لون
الحبر ، وتقاطيع وجهها قبيحة ، ووجهها من النوع الذى لا تستريح
اليه العين . ولكن جسدها كان رائعا بالرغم من الفستان الرخيص
وصدرها المكشوف ينبىء عن لون البشرة الابيض والاحمر كلون
القول السودانى المقشر

ووقفت المرأة تنظر إلينا طويلا ثم صرخت فى وجه حمودة :

- جيت ياسى زفت ..

وابتسم حمودة فى كبرياء ، وقال وهو يشيح بيده فى وجهها :

- هاتى كراسى يابت ..

وقالت المرأة وهى تسرع نحو باب آخر فى نهاية الحوش :

- خش هات انت ..

وأسرع حمودة خلفها ، ودخل من الباب الذى دخلت منه ، ثم عاد بعد قليل ومعه ثلاثة مقاعد ، رصها الى جوار بعضها ، وجلسنا نحن الثلاثة ووجوهنا نحو البحيرة ، والماء يضرب برفق فى حرف الحوش ، وكلب أجرب يعوى خارج السور وحمودة يجندق أسفل قدميه ويده تعبت فى طين الحوش بعضا رقيقة مدببة . ثم قطع الصمت فجأة ، وقال وهو يجول ببصره فى أنحاء الحوش :

- عاجبك المخبأ ده ؟ أنا مسميه عش النسر

ولم يكن المكان الذى نحن فيه يوحى بأنه بيت على الاطلاق ، مجرد سور وخرابة وعشة فى نهاية الحوش تصلح لاي شىء الا أن تكون مأوى لانسان !

فى هذا المكان عاش حمودة سنواته العشر الاخيرة ، ولم يكن على شاطئ البحيرة من هو أشهر من حمودة خلال هذه الفترة الطويلة . ولم يكن حمودة يملك شيئا ولا يعمل فى شىء ، ولكنه بالرغم من ذلك استطاع أن يعيش مرهوب الجانب مسموع الكلمة ، وحوله عشرات من الرجال يؤمنون به ويعملون رهن اشارته . وأنفق الالوف بفضل ماكان يخطفه هؤلاء الرجال من معسكرات الجيش فى القناة . وبفضل زعامة حمودة لعصابات الشبيحة فى المنطقة أصبح يتمتع بسمعة طيبة وبدخل كفل له احترام الجميع !!

ولكن لشد ما تغيرت الاحوال بعد ذلك . الانجليز كشفوه
وهاجموا عشه أكثر من مرة ، والبوليس المحلى ضيق عليه الحناق ،
وتعقب رجاله وقطع أرزاقهم .
ولم يكن حمودة يدخر شيئا لأيام سود مثل هذه ، فلم تكن
مثل هذه الايام فى الحساب !!

حتى القارب الذى كان يحلو له فى الليالى المقمرة أن يسهر
داخله ماسحا به بحيرة التمساح من الجنوب الى الشمال شهده
حمودة بعد أن أصابه النحس والنار تأكله وهو ملقى على
الشاطئ . وامتدت النار من القارب الى شجر الكافور الذى كان
يظلل العش فأكلته عن آخره .

وفى تلك الليلة التى اكتمل فيها نحسه شاهده الصيادون
الذين كانوا يعملون على مقربة من الشاطئ وهو يترنج فى الليل
عائدا الى العش يصفر لحنا غريبا ، تتبعه على البعد امرأة ضخمة
الجثة ، تتشح بالسواد ، لايبين منها شيء . وقضى حمودة أياما
داخل العش يسكر حتى يسقط على الارض ، ويهذى من فرط
الشراب ، ويفنى أغنيات انجليزية شائعة فى القنال ، ويسب
الدين والدنيا ، ثم ينهال بالضرب على المرأة وعندئذ ، يرتفع
صوتها بالبكاء .

وأيقن الصيادون يومئذ أن حمودة جن ، ولكن أحدا لم يجرو
على اقتحام عش حمودة ليتبين حقيقة الامر .
وأصبح من ظواهر الحياة العادية ، أن يسكر حمودة حتى يقع
على الارض ، ثم يقنى ، ثم يرتفع صوت المرأة البدينة بالبكاء !
ولكن حمودة سرعان ما عاد الى طبيعته الاولى ، ففي صباح
مشرق جميل شوهد على الشاطئ داخل العش يحاول اصلاح
ما أفسدته النار ، ويجر حطام القارب الى اليابسة وكانت المرأة
البدينة تحوم حوله كالنحلة ترمم بيديها سور العش ، وألقى

ببقايا شجر الكافور الى الماء .

وفى تلك الليلة فقط اقتحم عليه الباب أربعة من رجاله القدامى وبعض الصيادين . وشربوا معه الشاى وقصوا عليه حكايات بذيئة ، وقص عليهم هو الآخر نوادر حدثت له فى الماضى البعيد وكان يضحك خلال الحديث حتى يستلقى على قفاه . وفى آخر الليل وهم يستعدون للانصراف ، أخذوا يواسونه على ما حل به من دمار ، ولكنه منعهم من الاسترسال فى الحديث ، وقال وهو يضحك من الاعماق :

— بكرة نجيب غيره ، ياما جـه ، ويا ما راح !!

والحق ان حمودة وفق تماما فى تلخيص فلسفته فى الحياة ياما جـه ويا ما راح لكم جاء ليد حمودة ويا ما راح عبر السنين التى عاشها فى الحياة . ولم يكن يفرح بما جاء . ولم يكن يحزن على ما راح كأنما كان يدرك بحاسته الفطرية ان هذا الذى جاء سيذهب يوما ، ليعود مرة أخرى ، ليذهب من جديد ، وهكذا الى آخر الحياة !!

وقضى حمودة شهورا طويلة بلا عمل ولم يعد أحد يقتحم عليه الباب كأنما نسيه الناس لطول ما احتجب عن أعينهم وفى مرات كثيرة كانت المرأة البدينة تحثه على أن يعمل أى شىء دون جدوى . ولكنه كان أجيانا يهب من نومه فى الليل ويغوص بقدميه فى طين البحيرة ، ويقضى الساعات الطويلة على الشاطئ ، ثم يعود ومعه أكلة سمك طيبة ينفق وقتا طويلا فى انضاجها على النار . كان حمودة يفكر فى جدوء خلال الايام الطويلة التى قضاهها منزويا داخل العش عن طريقة للثراء . وطرق بتفكيره أكثر من موضوع ، حتى أن يصبح حمودة صيادا فى بحيرة التمساح !! ولكن فكرة وحيدة راقته كثيرا ووقف عندها طويلا يقلبها من جميع الوجوه ويبحث ظروفها فى امعان ، ويدرس تفاصيلها فى لذة ، ثم انتهى بعد ذلك الى قرار .

خرج حمودة ذات صباح الى المدينة وعاد معه نجار مفتول العضل كان صديقا في أيام بعيدة . ومن داخل الغابة الكثيفة التي تتراعى من الشاطئ الى قمة الربوة ، راح حمودة يعمل بهمة في قطع جذور الاشجار الضخمة ، بينما انهمك النجار الحاذق في تقطيع الحشب واعداد قارب جديد .

وبهذا القارب الجديد قدر حمودة أنه سيصل الى الثراء في فترة وجيزة . تكفيه رحلة أو رحلتان عبر بحيرة التمساح ليصبح ثريا وصاحب ألوف ، ثم يهجر القارب بعد ذلك وعش النسر ، والشاطئ كله ، ويسحب هذه المرأة المسكينة من يدها ويهاجر الى مكان آخر بعيد .

وفي الايام التي كان النجار منهمكا خلالها في اعداد القارب ، وكان حمودة يطوف على شاطئ البحيرة يغشى القرى الصغيرة المنتشرة هنا وهناك يعقد الصفقات مع مهربي المخدرات ليبدأ العمل على الفور . واذا علم هؤلاء بما ينتوى حمودة الاقدام عليه شجعوه وأقرضوه بعض المال .

وفي اليوم الذي قرر حمودة أن يبدأ فيه رحلته الاولى عبر البحيرة ، جاءت الاخبار بالغاء المعاهدة ، والطلق الرصاص في القنال يعربد في الفضاء ، وممسكات الانجليز التي كانت موصدة الابواب ، عادت ففتحت أبوابها من جديد . وهامى الفرصة تسنح مرة أخرى ليصبح حمودة صاحب ألوف ، ومن الطريق الذي يحفظ كل شبر فيه !!

وهامهم الرجال الذين كانوا قد هجروا العمل مع حمودة أخذوا يتوافدون من جديد . والسلاح الذي كان مدفونا على عمق عميق تحت الرمال ، حفرته عنه الايدي الحشنة وانتزعته ، وعود يدوي بطلقات النار ، وعلى مرأى ومسمع من رجال البوليس!

وعش النسر الذى كان مهجورا عاد يزن من كثرة الرجال -
وحمودة أصبح بطلا . أصبح قائدا لكتيبة وحوش الجبال !!
وقت طويل مضى ونحن جلوس فى حوش العش نرقب مياه
البحيرة الساكنة ، ونرشف أكواب الشاي فى صمت ، ثم فجأة
صاح حمودة فى وجهه فتحنى بدير :

- شوف لنا الرجالة فين . .

ونهض فتحنى على الفور ووثب جريا نحو الخارج ، ثم عاد ومعه
مجموعة من الرجال ، رائحة السمك تفوح من ملابسهم ،
وابتسامات بلهاء تتأرجح على أفواههم ، وعندما اقتربوا منا ،
وقفوا فى صف طويل كأنهم عساكر فى طابور . وقال حمودة
وهو يشير نحوهم :

- عيال زى السبوعة ، يأكلوا اللحم نية

وقال رجل أسود كان يتوسط الطابور :

- احنا خدامينك ياسى حمودة .

وأشار حمودة نحوى بأصبعه ثم قال :

- لفندى بتاع جرايد ، جاى من مصر مخصوص عشان يكتب

عنا ، ياللا شوفوا شغللكوا بقى .

وعلى الفور ، تبعثر الطابور ، وجرى أفرادهم فى كل اتجاه ،

ثم عادوا بعد قليل ، ومع كل منهم مدفع رشاش ، وبعد أن

عرضوها علينا ، وفكوا أجزاءها جلسوا على كوم رمل فى مواجهتنا .

يسمعون الى تعليمات حمودة التى يجب اتباعها فى المعارك .

وبعد أن انتهى من القاء تعليماته ، أشار الى أحدهم وقال فى

لهجة أمرة :

- روح هات الفرد بتاعى . .

وغاب الرجل لحظات ثم عاد ، ومعه مسدس ضخيم ناوله

لحمودة ، وانهمك حمودة فى تنظيفه وحشوه بالطلقات ، ولما

انتهى من هذا كله ، نظر الى الفضاء ، وقال وكأنه يحدث
المسدس :

— والله جت أيامك !

ثم رفع يده الى أعلى ، وصوب المسدس نحو الفضاء وضغط
على الزناد فجأة ، وانطلقت سبع رصاصات تعربد في الجو .
وهب أفراد الكتيبة الذين كانوا يجلسون في هدوء حتى تلك
اللحظة يهللون ويتصايحون . وهتف بعضهم بحياة حمودة ،
وانطلقت الزغاريد من الداخل والخارج أيضا .

وهجم على الحوش أكثر من رجل واندفع نحونا كثير من الاطفال
كانما انشقت الارض عنهم فجأة . . . وأصبحنا فرجة والناس الذين
اندفعوا من الخارج والتفوا حولنا يباركون لحمودة ، وحمودة
يشكر الجميع في اعتداد ، وامرأة عجوز تمد لحمودة يدا مرتعشة
ثم ترفعها الى السماء وتدعو له بالنصر .

اذن فالمعركة بدأت فعلا ، وهذه تبشير النصر ، والمرأة التي
صرخت في وجه حمودة عندما دخلنا الحوش أول مرة ، وقمت
تزغرد في ابتهاج ، والحوش تحول الى ساحة جيش ، والحماس
استبد بأفراد الكتيبة فرفعوا أسلحتهم الى الجو وأفرغوا الرصاص
في الهواء وجاء عسكري سواحل عجوز وقد هاله الامر . وسأل
عن الحكاية ، وقال له حمودة في بشاشة :

— كل سنة وانت طيب ، دى الحرب ياشاويش احنا طالعين
بكره انشاء الله

ولم يفهم الشاويش شيئا ، ولكنه بارك لحموده طلوعه بكره ،
ودعا له بالنصر قبل أن يستدير عائدا الى المكان الذي أتى منه .
ومضت ساعة كاملة قبل أن يعود الهدوء الى الحوش ، وعاد
المعلم حمودة الى مكانه والكتيبة من حوله ، والعمامة التي كانت
تخفي وجهه خلعتها وألقى بها على الارض ، فبدأ على حقيقته ، ابن

بلد فهلوى فى الخامسة والثلاثين متين البنيان لولا شاربه الضخم
لبدا أصغر من عمره عشرة أعوام !

ولا أدرى كيف تغيرت معالم حمودة بعد هذه الضجة ، خيل
الى أن القناع الذى كان يرتديه قد خلعه مع العمامة ، ان وجهه
الذى كان صارما على الدوام أصبح بشوشا ، وفمه الذى كان
منطبقا تحت شاربه أصبح مبتسما وعيناه أصبحتا أقل حدة ،
وأخف لمعانا عن ذى قبل •

يبدو أن المعلم حمودة قد أفرغ انفعالاته مع الرصاصات
السبع التى أطلقها فى الهواء !

وفجأة ، هتف حمودة فى وجهى وهو يتسهم فى ود :

— انت هتاكل معانا ، تاكل سمك ؟

ولم ينتظر اجابتي ، مديده فى جيبه فأخرج جنيها ناوله لأحد
جنوده ، وقال وكأنه يصدر أمرا بالقتال :

— هات سمك حفار واشويه ••

وعندما هم الرجل بالانصراف ، قال له حمودة بنفس اللهجة
الأمرة :

— خد مدفعك معاك ••

وتعجبت لهذا الامر الاخير ، فالمسافة بيننا وبين حلقة السمك
لا تزيد على مرمى حجر ، والحوش والحلقة يقعان على بعد عشرة
أميال من معسكرات الانجليز فما هى الحكمة فى استخدام المدفع
الآن وما هو الخطر الذى يتهدد رجلا يشتري سمكا من الحلقة •

وسألت حمودة عن السبب الذى من أجله أصدر أمره الى
الرجل بحمل مدفعه معه وهو فى طريقه الى حلقة السمك ،
وأجابنى حمودة فى سداجه :

— عشان الراجل يتوصى ، دى عالم تخاف ماتختشيش •

ونظرت الى المعلم حمودة ولم أتكلم ، ورحت أرقبه وهو يصدر
لوامره الى جيشه الصغير :

- سعيد يجيب طرشى ، ابراهيم يشتري عيش ، جودة يجيب
فجل و .. و ..

واندفع الجميع ينفذون الاوامر ، وبقيت مع المعلم حمودة وحدنا
وسط الحوش ، وانتهاز الفرصة ، فقال وهو يشير نحو الحوش
فى أسف شديد :

- شوف ، أهو أنا قائد جيش وساكن هنا ، مش دى مصيبة
والنبى ..

وقلت أهون عليه :

- معلش يا حمودة ، بكره تتعدل ..
وقال فى ثورة بالغة :

- عنها ماتعدلت ، هوه أنا عامل على نفسى ، بدمتك لوالانجليز
عرفوا ان قائد الفدائيين ساكن فى خرابة ، مش تبقى فضيحة؟!
ثم خبط كفا بكف ، ولوى عنقه من جديد ، وراح يزعق على
المرأة التى فى الداخل ، ولم تلبث أن جاءت تخطس فى دلال
مصطنع ، وتتكلم فى هدوء ، متجاهلة وجودى تماما :
- عاوز ايه ؟

- تعالى اقعدى معانا ، لفندى هيكتب عنك ..
ونظرت المرأة نحوى فى استنكار بالغ ، وقالت وهى تقصع :
- هيكتب عنى ايه ، هوه أنا مسخه ؟
وقال حمودة وهو يهبر شعرها بأصابعه الغليظة :
- مسخه ايه يا بنت المركوب انت تطولى ..
وجلست المرأة على الارض بجانبى لتتخلص من أصابع حمودة.
الفولاذية وقالت لى فى دلال :

- أوعى تكتب عنى حاجة يافندى ، احنا مش ناقصين بلاوى ..
وطمانتها الى أننى لن أكتب شيئا ، وان حمودة يمزح معها
ليس الا ..

ولكن حمودة هاج كالثور ، وقال وهو ينتفض :
- لازم تكتب عنها ، دى كانت بتاعة إنجليز وتابت على
يدي . .

ثم التفت الى المرأة ، وقال وهو يلوح بقبضة يده
- حصل والا لا يابنت المركوب ؟

وصرخت المرأة وقد عادت الى طبيعتها الحسنة
- جرى ايه يا حمودة ، مابلش فضايح أمال . .
وضحك حمودة ضحكة صافية عميقة وقال :
- هى دى فضايح ، عنك ما تكتب عنك ، آل يعنى مديحة
يسرى . .

وضحكت المرأة وهى تحاول النهوض . . وقالت وهى غضب
على ساقها :

- واحنا ايه الى وصلنا لمديحة يسرى ، دى بتاعة سنيما .
وعندما همت بالنهوض ، دفعتها يد حمودة وألقت بها على
التراب ، وسقطت المرأة على ظهرها كأنها لوح خشب . . وقال
حمودة وهو يصرخ فى وجهها :
- راحة على فين ؟ أقعدى مع لفندى شويه ، دا الباشوات
يدفعوا فلوس ويقعدوا معاه . .

ونظرت الى المرأة المطروحة على التراب . . ونظرت نحوى هى
الآخرى بعينيها الواسعتين كأنهما عينا بكرة ، وكانت عيناهاهما
أقبح ما فى المرأة ، عيان واسعتان حقا ، ولكنهما لا يحملان أدنى
تعبير ، عيان صامتان لا تتكلمان ولا يدعوانك الى شىء ، ولا
يدفعانك الى شىء ، وأحسست برعشة عندما أطلت النظر اليهما
. . فقد خيل الى أننى انظر فى عيني ميت حديث العهد . .
كان الطعام قد حضر وبدأنا نأكل ، والمرأة فى مواجهتى ،
وحموده الى جوارها . . منصرفا عن كل مافى الوجود بالتهام

الطعام ، ولم يكن يمضغ ، بل كان يزلط دون أن يتنوق شيئا مما يزلطه ، وخيل الى أن الاكل بالنسبة اليه واجب يؤديه ، كان يأكل كل الاصناف مرة واحدة ، فجل ، طرشى ، عيش ، جبنه ، سمك ، كل شيء ! وكانت يده تمتد الى كل هذه الاصناف فى آلية منتظمة وكأنه ماكينة مطلوب منها أن تملأ معدتها بأكبر كمية ممكنة من الطعام وفى أقصر وقت !

وانتهى حمودة سريعا من الطعام ، وارتفع صوته يحمده الله ، ولكن بطريقة توحى الى السامعين أنه لايشكر المولى على نعمة الطعام ، بقدر مايشكره على انه انتهى من عمل مرهق ، وواجب ثقيل مر على خير والحمد لله ••

وعندما استأذنت من حمودة فى الانصراف ، أقسم بالطلاق اننى لن أبرح الحوش قبل أن يتم الانس والمزاج • وبدأت أوامره تصدر الى رجال جيشه ، وعلى الفور حضرت الجوزة واشتعلت النار فى موقد الفحم ، وكوز الشاي وضع على النار ••

وعندما انتهينا من المزاج ، كان الليل قد هبط على الكون ، والحوش ازداد كآبة ، والبرد أرعش أجساد الحاضرين فاستأذنوا فى الخروج ، ولكنهم توقفوا فجأة على صوت طلقات نار تتجاوب أصداؤها على الناحية الاخرى من البحيرة •

وأصاخ حمودة السمع نحو مصدر الطلقات التى راحت تصرخ وهى تشق الفضاء البعيد • وكان واضحا انها طلقات مدفع برن ، وأنها تطلق من جانب الانجليز ، ولكن على من؟ •• وقال حمودة فى همس مسموع :

— لازم العيال الشبيحة بتوع عزبة أبو جاموس ••
وساد الصمت من جديد ، وانقطعت طلقات الرصاص ، وودعت حمودة فى حرارة •• فمنذ اليوم لن أراه حتى يعود القمر يتوسط قبة السماء ، وصافحنى وهو يذكرنى بالموضوع الذى ينبغى أن

أكتبه عنه ، وتطوع فتحي بدير بتوصيلي حتى الفندق ، وسار
معى نقطع شوارع الاسماعيلية فى صمت ، وصورة حمودة
لاتفارق خيالى ، صورته وهو يطلق الرصاص ، وهو يأكل كأنه
حمار وحش وهو يلقي بالمرأة البدينة وي طرحها على طين
الحوش . . .

ترى هل ألفت الاقدار على عاتق حمودة هذا أن يحرر مصر ؟
وهل حقا سيزحف على رأس رجاله غدا والدنيا ظلام ؟ . . . وهل
يتوقف مصير قضية عظمى مثل هذه على اختفاء القمر وظهوره ؟ . . .
أم أن حمودة متأثر بالسينما وابطالها . . . وأنه يمثل فى
الحياة دورا شاهده على الشاشة من قبل ؟

الفصل الثالث

كنا قد عبرنا ترعة الاسماعيلية - فتحي بدين وأنا - فطريقنا من عش النسر الى فندق فؤاد ، وكلانا صامت ، وقد بدا عليه انه مسطول وأنه فى حاجة الى نوم عميق ..
وفتحي يجر قدميه الى جوارى فى تكاسل :

ونظرت الى فتحي فى دهشة ممزوجة بالحسرة ، فهذا المسطول هو مستشار حمودة ! وما هو يبدو الآن تحت تأثير المخدر طيبا على نحو ما ، وساذجا على عكس ما يدعى ، وبائسا فى حاجة الى مستشار يخطط له رحلة حياته التى انتهت الى عكس ما كان يشتهى ويريد !

وفجأة ، مرقت سيارة فى الشارع تسابق الريح ، ولولا اننى جذبت فتحي من قفاه لدهمته السيارة ، وعندما أفاق من ذهوله وقف يرقب العربى المنطلقة كالصاروخ فى اتجاه المعسكرات ، وقال وهو شبه نائم :

— حمزة بك ومدام ريتا ..

مدام ريتا !! المرأة ذات الشعر الاحمر ! ومع من ؟ حمزة بك
عبد المقصود وفى سيارة تنهب الطريق ، والى أين ؟ فى اتجاه
المعسكرات !

وقلت لفتحى بدير وأنا أحاول أن أبدا غير مهتم بالامر ؟
- رايحين فين ؟ بيت حمزة بك ؟
وأشار فتحى الى الناحية الاخرى وقال :
- لا ، بيت حمزة بك الناحيادى .
- أمال رايحين فين ؟
- حد عارف ..

قالها بصوت خافت واهن كمن هو مشرف على الدخول فى
غيبوبة طويلة . ثم سار يتدحرج على الطريق .
وقلت والغيظ يأكلنى لبلادة فتحى :
- أمال رايحين فين ، يكونوا رايحين بيت مدام ريتا ..
ورفع فتحى عينيه الصغيرتين الى وجهى .. وقال ابتسامة
باهتة ترتسم على شفثيه :

- بيتها ؟! المدام مالهاش بيت ، بيتها اللوكاندة ..
- ساكنة هناك على طول ؟
- اللوكاندة بتاعتها ، هيه صاحبة اللوكاندة ..

كنا قد وصلنا الى فندق فؤاد فسحبت فتحى بدير من يده
ودخلنا ، وانسحب هو معى دون مقاومة ، وارتميانا على الكنبه
التي فى مدخل الفندق ، وجلست أنصت فى اهتمام الى فتحى
وهو يحكى لى قصة مدام ريتا ، وقد أدهشنى انه يحكيها وكأنه
يقرأها من كتاب ، ولم يبدأ قصتها من البداية .. بدأها من قبل
البداية بزمان ، حكى لى قصة أبيها الايطالى ، كيف جاء الى
السويس ؟ .. كيف اقتنى الفندق وعلاقته بالانجليز ، وعندما

انتهى من قصة ريتا. كان قد مضى من الزمان ساعة وهو يحكى
بلا انقطاع

ثم سادت بيننا فترة صمت طويلة ، واغمض عينيهِ ، وراح
فى تعميلة خفيفة أيقظته منها برفق ، وسألته فى اهتمام :

— ودلوقت بتعمل ايه مع حمزة بك ؟

وقال فتحى وهو يتشاءب :

— مع مين ؟

— مع حمزه بك ..

— آه دا أصله راجل على كيفك قوى ، كان كده مع المرحومة
أمها ، كانت طليانية طعمة قوى ..

ثم أغمض عينيهِ ونام

وتركت فتحى بدير مكانه وصعدت الى حجرتى ، وخطفت
حقيبتى وغادرت فندق فؤاد الى فندق بالاس ..

ولقد كان لدى عشرة أسباب لهذا الانتقال المفاجئ ، فأولا
لكى أتخلص من الفراش البائس فى فندق فؤاد ، وثانيا لان
فندق بالاس هو المكان الذى يجتمع فيه رجال السياسة فى
المدينة .. وثالثا ورابعا .. و .. و ..

ولكن السبب الحقيقى والسبب الوحيد هو أن أكون على مقربة
من مدام ريتا ، البيضاء كأنها المهلبية ، ذات الشعر الأحمر فى
لون الشاى !

وعندما اصعدت درجات فندق بالاس كان يسدو خاليا كأنه
مهجور ، وبحثت عنها وأنا فى البهو الضيق المظلم الطويل ..
وتلفت أبحث عنها وأنا أصعد الى حجرتى ، ولكنى لم أعر لها
على أثر ، وعندما أصبحت داخل الحجرة تذكرت أننى منذ ساعة
شاهدت مدام ريتا مع حمزة بك فى سيارة تنهب الطريق ..
فى اتجاه المعسكرات ، واكتشفت وأنا أرتدى على السرير أننى

آلهت دون مبرر ، والعرق يتصبب من جبينى والدنيا برد ..
لماذا كل هذا السعى المحوم والحرص الشديد للوصول الى
مدام ريتا ؟

هل أحببت مدام ريتا ؟
وطرقت السؤال فى نفسى وانفجر ، وانداح داخل أعماقى
كانه حجر ثقيل ألقى به مجهول فى بحيرة نفسى العميقة .
صحيح ، هل أحببت مدام ريتا ؟

أنا شخصيا لا أدري ، الهدف الوحيد الذى أسعى اليه هو
أن أكتشف مدام ريتا ! أو بمعنى أصح اكشف مدام ريتا ، هذه
هى مهمتى فى المدينة التى تقاتل بلا سلاح ، وواجبنا الآن أن
ننظف البيت من الداخل حتى لانفاجأ بمن يطلق النار على ظهورنا
من الخلف !

ولكن لماذا مدام ريتا بالذات ؟ ولماذا مدام ريتا بالتحديد ؟
ولم أستطع الجواب ، فسكت ..
واستلقيت على ظهري ورحت أستعرض أسماء ووجوه جميع
الذين يسهرون على مائدة مدام ريتا حتى الفجر ..
أحمد بك العيسوى المليونير الذى ودع الستين منذ أعوام ،
والذى يفقد صوابه بعد ثالث كأس ، والذى يوافق متحمسا اذا
وافقت مدام ريتا ، ويعارض متحمسا اذا اعترضت !
وسيد بك عبد الخالق المهذب كأنه جرسون فى مطعم شهير ،
الحريص كأنه ثعلب ، ابن الخامسة والخمسين ، صاحب شركات
الملاحة التى توقفت أعمالها بعد أن نشبت المعركة فى القناة ..
والحاجا فرانسيسكو الايطالى الوسيم ابن الثلاثين ربيعا ،
والذى تؤكد الاشاعات انه عشيق مدام ريتا ، ولكنه عشيق
طيب ، يؤمن بأن مدام ريتا شئ نفيس كالماء والهواء .. يجب
أن تكون للجميع !!

ثم حمزة عبد المقصود ، المليونير الذى يؤمن أن النقود
سلعة يجب أن تشتريها بالنقود ، والذى ينفق الألوف ليربح
الملايين ، وينفق الملايين ليربح الناس !
وعندما انتهت من استعراض القائمة كلها ابتسمت ، فهؤلاء
جميعا لن ينفقوا حائلا بينى وبين مدام ريتا ، فانا أكثرهم شبابا ،
وأكثرهم ذكاء ، وأوسعهم نفوذا ، وهو المهم !
وارتاحت نفسى جدا لهذه النتيجة التى وصلت اليها ، فقد
بدا لى الطريق مفتوحا الى مدام ريتا دون قتال ، وحتى لواحاج
الامر الى معركة فلدى كل أسلحة القتال ، وسأدخل المعركة بكل
شبابى وكل غرورى ، وكل نفوذى !

نفوذى ؟

نعم ، ولم لا ، اننى أراسل أوسع جرائد القاهرة انتشارا ،
وبكلمة واحدة أستطيع أن أخفض من أشياء ، وأستطيع أن أرفع
من أشياء ، ومدام ريتا مشبوهة . . ونحن فى معركة ، وستحتاج
حتما الى من يحميها ، وليس هناك من يستطيع حمايتها سوى !
استيقظت فى الصباح ، وازحت الغطاء بعصبية وارتديت
ملابسى على عجل ، ووقفت أتأمل نفسى فى المرآة أكثر من نصف
ساعة كأنى عروس تستعد للزفاف ، وعندما اطمأنت نفسى اننى
على خير مايرام ، غادرت حجرتى ورحت أهبط الدرج فى عظمة
الطاووس ، وقطعت الردهة الطويلة الضيقة على مهل وأنا ألقى
نظرات فاحصة على الصالونات المعطرة المتناثرة على الجانبين ،
ثم تسمرت قدماى فجأة عند أحد الصالونات ، فقد أبصرت مدام
ريتا فى ثوب أحمر كنار جهنم ، وشعرها الأحمر الذى فى لون
الشأى يتهدل على كتفيها العاريتين فى نصاعة بياض العاج ،
وشفتاها الوارمتان تطبقان فى دلال على سيجارة مشتعلة .
وكانت تجلس فى مواجهتى ، وثنصت باهتمام الى رجل

يجلس قبالتها ، وظهره نحو الباب ، يرتدى بدلة زرقاء فاخرة ، ويتكلم بصوت خفيض ، ويستخدم يديه أثناء الحديث . ومضت لحظات وأنا واقف عند الباب أقرب مدام ريتا فى اضطراب . . . وفجأة رفعت عينيها نحوى ونظرت الى فى استنكار ، فانحنيت انحناءة خفيفة . . . فهزت رأسها فى غير اكتراث ، ثم عادت تنصت الى الحديث من جديد . . .

وزاد اضطرابى فلم أدر ماذا أفعل ، وهممت بالانسحاب ولكن خائنتنى قدمائى . . . فلم أستطع الحركة ، وفكرت فى اقتحام الصالون ولكنى لم أكن قادرا على تنفيذ شئ على الاطلاق . . . وعندما رفعت مدام ريتا نظرها نحوى مرة أخرى ارتعشت ركبتائى ، فقد كانت نظرتها غير ودية ، بل كانت تحمل احتقارا زائدا لهذا السخيف الذى لا يزال ملطوعا عند الباب . . . وابتسمت كالبعيظ ، وسألتها فى ارتباك :

— حمزة بك مش هنا ؟

وحركت رأسها بالنفى ، ولم ترد وعادت تنصت الى الحديث من جديد . . .

ونزعت قدمى وسرت أقطع الردهة الطويلة الضيقة ، وقد أصابنى موقف مدام ريتا فى الصميم ، وعندما وصلت الى باب الفندق كنت قد انهرت تماما ، فدفعت الباب فى غيظ وقفزت السلالم الى الشارع ، وسرت فى غير وعى لا أدرى الى أين اذهب . . .

وفكرت فى الذهاب الى حمودة ، وسرت فعلا فى الطريق المؤدى اليه شوطا طويلا ، ثم عدلت عن ذلك ، فالיום موعده حمودة مع الجبل ، والقمر يختفى اليوم ويظلم الكون ويزحف حمودة على رأس رجاله ليكتب بمداد من دم صفحة جديدة فى تاريخ مصر . . .

هل أذهب الى فتحى بدير ؟ ولكن فتحى هو مستشار الكتبية
التي لا بد أنها غادرت المدينة الآن فى طريقها الى الجبل لتبدأ
زحفها المقدس فى الليل ، ولا بد أنه مشغول بتخطيط المعركة ،
وتدبير المؤن والذخائر ، واعداد الاحتياطى اللازم .. وزيارتي
له فى هذا الوقت بالذات قد تعطله عن أداء الواجب الثقيل الملقى
على عاتقه !!

أين أذهب اذن والمدينة خاوية على عروشها وليس لى فيها
صديق ..

وقادتني قدماى فى غير وعى الى شاطئ البحيرة ، وعلى مرمى
البصر كان عش النسر يطل فى خيلاء على البحيرة الفسيحة ..
وتلال سيناء على الشاطئ الآخر تبدو من بعيد ، والجو بارد ولا
أحد على الشاطئ والصمت يلف كل شىء ، ولولا طلائع طائشة
تنطلق ناحية المعسكرات لظننت أننى فى جزيرة مجهولة وسط
المحيط !!

ونظرت مرة أخرى الى عش النسر ، لا بد أنه خال الآن فقد
هجره حمودة منذ الصباح الباكر فى رحلته المجيدة الى الجبل ،
لا يسكنه الا المرأة الدمية ذات البشرة التى فى لون الفول
السودانى المقشر ..

ولكن عبثا حاولت أن أحصر تفكيرى فى مدام ريتا ، كنت
كلما تأملت شيئا أو سرحت فى شىء ، انتهى تأملى وسرحانى
الى مدام ريتا ، كأنما عقلى الباطن قد تحول الى مؤشر بوصلة ،
ينما أدرته ، اتجه مرة أخرى نحو الشمال ..

فى الصعيد يغسلون اهانة مثل هذه بطلقة رصاص ، وفى
بلاد أخرى أكثر تمدينا يغسلونها بالمبارزة ، وفى أفلام كثيرة
شاهدتها كان البطل يتقدم من المرأة اذا صوبت له نظرة احتقار
كهنه التى صوبتها نحوى مدام ريتا هذا الصباح ، ويصفعها

على وجهها صفة قوية ، ثم يستدير الى الخلف ويذهب الى غير رجعة ..

ولكن ، ماذا كان ينبغي أن أفعله أنا فى موقف مثل هذا ؟ وهل كان فى مقدورى أن أفعل شيئا ؟ ..
الشيء الاكيد أننى ما كنت أستطيع أن أفعل شيئا ، حتى لو لطمتنى مدام ريتا على وجهى أو لطمتنى على قفاى ! .. فهذه أول امرأة تقتحم حياتى ، وعدا قصص الحب التى قرأتها ، لم أكن جربت حيا على الاطلاق ..

مضت ساعات طويلة وأنا جالس وحدى على الشاطئ أهذى كالمحموم ، وأتحدث مع نفسى كالمجنون ، وعندما أفقت من ذهولى كان المساء يزحف ببطء .. وتلال سيناء تبدو من بعيد وهى تغيب شيئا فشيئا فى عتمة المساء وكأنها تتسحب من مكانها الى مكان آخر بعيد ، والسحب السوداء الكثيفة تتوقف بلا حراك فوق قمم التلال ، والسفن الكبيرة تتسلل عبر القنال فى الليل. تشع نورا خافتا وكأنها نجوم تتناثر على بعد ملايين السنين. فى الفضاء ..

هذه الاسماك البشرية يأكل بعضها بعضا نتيجة غرور وقع هو أن الانسان سيد الكون !!
وينسى سيد الكون أن مصيره المحتوم الى الموت ، الى العدم ، الى التراب !!

وأرعشنى البرد الشديد الذى هبط فجأة على الكون مع الليل فاتبعت الى أننى وحيد على شاطئ الخليج فى الليل ..
أتقيا فلسفة جوفاء ، وأردد كلمات فارغة عن العدم والموت !
ولعل الامور تتطور فاهيم على وجهى فى شوارع الاسماعيليه كأننى قيس يناجى ليلاه !!

ما الذى حدث حتى اتحول الى مجذوب ؟ نظيرة احتقار من

«امراة؟! وما الذى بينى وبين مدام ريتا حتى أحمل الكون على
رأسى كأننى الثور فى الاسطورة المشهورة؟ لقاء عابر فى
القطار ، ولقاء عابر فى الفندق؟

ومن أنا بالنسبة لها؟ مجرد صبي فى الثالثة والعشرين ،
وبتاع جرايد كما قال احمد بك العيسوى وهو يترنج فى أول
لقاء ..

وانتصبت واقفا على قدمى ، وألقيت نظرة على المعسكرات
البعيدة التى كانت تشع نورا باهتا عبر الصحراء ، وألقيت
نظرة أخرى على عش النسر! واحتقرت نفسى بشدة ، فهناك
يزحف الآن حمودة ، على رأس مجموعة من الرجال الطيبين
الذين قضوا رحلة العمر يزحفون كالدود على البطون ، ولكنهم
وفى الوقت المناسب يصوغون الحياة على النحو الذى ينبغى أن
تكون عليه الحياة ، ويموتون لتنبثق حياة أخرى أكثر بهجة
وأكثر نفعا للجميع ..

ربما كان عمله هذا نتيجة تهور ، ربما انتهى به الأمر الى مثل
المصير الذى انتهت اليه هوجة عرابى!!
ولكن ، ماذا يهم حمودة؟ ربما كان هذا هو منطق العقلاء ،
ولكن من قال أن العقلاء هم الذين يصنعون التاريخ؟
العقلاء يخططون الشوارع وينظمون حركة المرور ، ويبحثون
عن وسائل جديدة لزيادة رقعة الارض المنزرعة ، والمجانين
وحدهم يصنعون التاريخ!!

كان فندق بالاس يسبح فى الضوء عندما وصلت اليه ،
وموسيقى راقصة تنبعث من داخله ، والحواجة فرانثيسكويقف
عند الباب ينحنى فى أدب للداخلين والخارجين ..
كان البهو عامرا بالرواد ، خواجهات فى حلاوة القشطة ،
ورجال أعمال فى ثياب السهرة ، والموائد حافلة بكل أنواع

الخمر ، والفرقة الموسيقية تعزف لنا هادئا ، والضوء يغمر كل ركن ، واتجهت الى مقعد خال فى ركن منعزل ، وجلست أرقب الداخلين والخارجين ، وعيناي تبحثان فى كل شبر عن مدام ريتا ..

وفجأة ، دخل البهو الحواجة فرانشييسكو ، ووقف لحظات يبحث بين الوجوه الكثيرة عن شخص يريده ، وعندما استقر بصره على ، اتجه على الفور ناحيتى ، وانحنى على أذنى يهمس فى أذنى بالغ :

— فيه ناس عاوزينك ..

ونفضت على الفور ، فقد خيل الى أن « الناس » الذين يريدوننى لابد أنهم مدام ريتا ولا أحد سواها ..

وتوقف الحواجة فرانشييسكو فى نهاية الممر الضيق الطويل وأشار الى صالون جانبي ، نفس الصالون الذى رمقتنى فيه مدام ريتا هذا الصباح بنظرة الاحتقار ، وقال : هنا ...
اتفضل ..

ثم انسحب على الفور ..

وعندئذ ، أيقنت أن مدام ريتا هى التى فى الداخل .. لابد أنها أدركت خطأها ، وتريد الآن أن تعتذر لى . ولكن ، هل أقبل اعتذارها ؟ أم أرفض ؟

وترددت كثيرا قبل أن أدخل الصالون .. وهممت أكثر من مرة بسؤال فرانشييسكو عن الناس الذين يريدوننى ... ثم حزمت أمرى وتقدمت عند باب الصالون ، وألقيت نظرة على الناس الذين فى الداخل ، وكدت أسقط من هول المفاجأة ، فلم يكن هناك سوى المعلم حمودة !!

الفصل الرابع

عشرة أيام طويلة عريضة وأنا قائم قاعد آكل شارب فى عش حمودة أتقلب طول النهار تحت شمس الاسماعيلية الدافئة ، وأستمتع بمنظر بحيرة التمساح وأحدق فى الفضاء الى التلال البعيدة ، ومعسكرات الانجليز فوقها كأنها نتوء بارزة من جوف الصحراء ، والمعلم حمودة الى جوارى يقلب جمرات النار بماشية قضية بقيت له من أيام العز الغابر .. ويشفط أنفاس الجوزه ويراقب الشأى وهو يغلى فوق نار الدفاية ، ويرسل أعوانه وأركان حربيه لشراء السمك بالمدافع .. ولم أكن أبرح عش حمودة الا قبيل الفجر ، والدنيا برد والشبورة تخفى كل شىء ، والاسماعيلية غارقة فى الظلام . وكان حمودة يتطوع بتوصيلى الى الفندق ومعه ثلاثة من أفراد جيشه ومدفع كل منهم يتدلى من فوق كتفه ، وأحيانا كانوا مبالغه منهم فى الحرص على حياتى وحياة حمودة يحيطون بنا طوال الطريق ومدافعهم مصوبة

وأصابهم فوق الزناد ٠٠ وكان منظرهم يبدو غريباً أحياناً
فأنفجر فجأة ضاحكاً ، فيسألنى المعلم حمودة عن سبب ضحكي
المفاجيء فأنتحل له أسباباً شتى ، وكان يستمع إليها في هدوء ،
وهو يسير الى جوارى منكس الرأس ساهما على الدوام ٠٠

والحق أن حمودة كان لا يتصور نفسه سائراً فى الليل بدون
حرسه الحديدى ٠٠ فقد كان يتصرف خلال الايام التى أعقبت
تكوين الكتيبة كقائد كبير ، له نفس الاهمية التى للقائد
البريطانى فى المنطقة ، ولم لا ٠٠ وهو وحده الذى يواجه هذا
القائد بجيش من الفدائيين !!

وكان يتوهم أحياناً أن الانجليز ترصد عشرة آلاف جنيه
لمن يقتله ، وحكى له واحد من أفراد الكتيبة أن الانجليز أنشأوا
داخل معسكر الاسماعيلية متحفاً أسمه متحف حمودة ، وأن
المتحف عامر بصور حمودة فى كل الاوضاع وبجميع الاحجام
حتى بالحجم الطبيعى ٠٠ وأن المتحف مفتوح لجنود الجيش
الانجليزى ، للفرجة على حمودة كى يسهل عليهم بعد ذلك
اصطاده عندما تنشب المعارك بينه وبين الانجليز ، وذات مرة
ونحن نشفط أنفاس الجوزة على شاطئ البحيرة ٠٠ والوقت
مغرب والبحيرة شديدة الهدوء والسحر ٠٠ قال المعلم حمودة
وهو يعبث فى شاربه :

— لنجليز فرقوا صورى النهاردة ٠٠

— فرقوا صورك ؟ فين ؟

— جوه الكامبات ٠٠

— ليه ؟

— فرقوها ع العساكر عشان تعرفنى ٠٠

وكتمت فى نفسى ضحكة كادت تطرقع رغما عنى ، وقلت بعد فترة صمت قصيرة :

— ومن قال لك الحكاية دى ٠٠ ؟

— الواد سعيد ٠٠

وكان سعيد هذا هو الذى يقوم بمهمة جمع الاخبار للمعلم حمودة ٠٠ وكان عبقرىا فى المهمة التى اضطلع بعينها . فكان يحصل فى اليوم الواحد على نشرة أخبار كلها من هذا النوع الذى يهز المعلم حمودة ويثير خياله ، ويستفز فيه عرق العظمة والبطولة . وكان المعلم حمودة يثق فى أخبار سعيد ثقة عمياء ، بالرغم من أنه — أى سعيد — لم يكن يفارق عش المعلم حمودة الا ليشتري أحيانا مزيدا من ورق المعسل ، فقد كان على صلة صداقة بتاجر يبيع صنفا جيدا يصلح دون غيره لهذا اللون من المزاج !!

وذات فجرية ونحن نتأهب للخروج من العش الى الفندق فوجئت بالحراس الثلاثة وقد ارتدوا زيا موحدا ، بنطلون وبالطو أصفر ، وثبتوا فوق صدورهم قطعة قماش خضراء من الجوخ تحمل حرفين باللون الابيض هما : ح . ح .

وعندما سألت حمودة عن معنى الحرفين قال فى أهمية بالغة كمن يدلى بسر خطير :

— ح . ح . يعنى خرس حمودة .

وعلشان ايه دا كله ؟

— علشان ايه ازاى ، دول زى البوليس الحربى الانجليزى ٠٠

والحق ٠٠ انه حدث تطور غريب فى سلوك حمودة وفى شخصيته أيضا منذ أن جاء الى فندق بالاس فى ذلك المساء الذى تخيلته فيه زاحفا على بطنه فى الجبل على رأس رجاله ٠٠ فعندما دعانى الحواجة فرانسيسكو من بهو الفندق الى مقابلة الشخص الذى يريدنى فى صالون جانبى صغير ، والذى توهمته أول

الامر مدام ريتا تريد أن تعتذر عما بدر منها فى الصباح . .
فوجئت بالمعلم حمودة جالسا فى الصالون ، وبفس ملابسه التى
رأيتة فيها أول مرة ، ومسدسه الضخم يحتل مكانه تحت طيات
ملابسه عند القلب بالضبط . .

ووقفت برهة أنظر نحوه مندهشا . والارض تدور بى كأننى
على صينية فى لونوبارك . . أين الجبل اذن ؟ والزحف فى الليل
عندما يختفى القمر ؟ وهل كان الامر كله مجرد مزاح ؟ الجيش
المتحفر . . وطلقات الرصاص ، وكلمات الوداع وهو يصافحنى
فى الليل وسط الحوش قبل أن يبدأ رحلته المقدسة نحو الجبل ؟
ونظر حمودة نحوى كما اعتاد أن ينظر الى كل الناس ، بعينه
التيه فى لون العسل المخلوط بالطحينة ، وقال وكأننا كنا على
ميعاد :

— مرحاب . .

وقلت وأنا أجلس فى مواجهته وبنبرة لم تخل من السخرية :
— هوه دا الجبل الى انت طالعه ؟

وتجاهل حمودة سخريتى تماما وقال فى حده :

— ملعون أبو الجبال الى فى العالم كله ، مش طالعين جبال

. . من غير مؤاخذه . .

— ليه ؟

— لما أصفى حسابى مع الحكومة أبقى أطلع الجبل . .

— وهوه فيه حساب بينك وبين الحكومة ؟

— معلوم فيه حساب . . أما أشوف دى حكومة بتاعتنا ولا

بتاعة الانجليز .

— طيب ماتقوللى ايه الى حصل . .

قال وصوته يعلو :

— أهو الى حصل حصل . . حكومتك وقفت قصاى ، مش

عاوزانا نطلع الجبل . .

ثم أمسك بطرف شاربه وجذبه بشدة وقال وهو يهدد :
- ما يبقاش دا على راجل ، ان ماحاربتش الحكومة !!
اذن .. هذا خبر جديد ، وهو خبر نو صح لأحدث هزة
فى الدنيا كلها .. حمودة لم يطلع الجبل لأن الحكومة منعتة ..
وقفت قصاده .. حالت بينه وبين الموت فى أشرف مهمة ..
وسألت حمودة فى لهفة :
- ايه النى حصل بالضبط ؟

وأراح حمودة الثوب قليلا من فوق عينيه وراح يحكى لى
تفاصيل ما حدث ، فقد رأى حمودة أنه لابد من تنظيف البيت
من الداخل قبل أن يذهب الى الجبل ، ورأى أن الخطوة الحاسمة
لإنجاز هذه المهمة هى الهجوم على بنك باركليز الذى يقع فى
قلب المدينة والذى يقوم بحراسته جنود البوليس المصرى
والاستيلاء على كل ما فيه .. مادامت امواله انجليزية ، ولكنه
فوجئ فى اللحظة الاولى للهجوم بمئات من جنود البوليس
يحيطون به ويقبضون عليه ، متلبسا بالسطو على البنك . وخاف
المحافظ من الفضيحة فأطلق سراحه ، وسراح رجاله بشرط الا
يعاودوا الهجوم على المنشآت التى تقع فى قلب المدينة ، حتى
لو كانت تابعة للسلطات البريطانية !!
وسألت حمودة بعد أن سرد القصة :
- وبعدين ؟

- ولا بعدين ولا قبلين ، هنطلع الجبل نعمل ايه ؟ اذا كانت
الحكومة مستخسرة فينا فلوس الانجليز الى ملقحه فى البنك
يبقى هنطلع نعمل ايه ، يعنى عاجبك أطلع أنا الجبل وأموت ،
والمحافظ قاعد مبسوط أربعة وعشرين قيراط !!

وقال وهو يحدق فى عينى ، ويده تهرش فى قفاه
- ايه زايك ؟

ولزمت الصمت ، لم أتكلم ، تمنيت لو كانت لدى القوة
لأصفع حمودة على قفاه .. هذا الثور البليد !!

تري أين فتحي بدير هو الآخر ؟ .. مستشار حمودة الذى
ظننته وأنا جالس وحدى على شاطئ البحيرة منهمكا فى تخطيط
المعركة وتدبير الذخائر والمؤن لجيش حمودة الصغير !! عن أى
شئ يبحث هو الآخر ؟ وفى أى مكان موجود هذه اللحظة ؟
مخمورا أو مستظولا يتحدث فى براعة عن جيش حمودة العظيم !

وقطع المعلم أفكارى وقال فى لهجة أمرة :

— أنت تكتب حاجة عن الموضوع ده ..

ثم ثنى أصبعه وعض عليه بقسوة ، ثم قال :

— الحكومة تحارب حمودة .. ايه رأيك ؟

وعندما أبطأت فى الرد عليه ، استأنف حديثه على الفور :

— بكره نقرأها انشاء الله ؟

قلت وأنا أتعمد الهدوء :

— بعدين يا معلم حمودة ..

وهب حمودة ثائرا ، وقال فى غيظ شديد :

— بعدين أمتى ؟ لما يفرقونا ، الكتيبة عاوزة فلوس ، نجيب

منين ، والا يعنى خسارة فينا .. طيب ودين النبی أدردكها

هيه آيه الحكاية .. مادامت الحكومة هتجاربنا ، هنجاربها ..

ارتفع صوت حمودة حتى أصبح كالرعد عندما وصل بحديثه

الى تهديده للحكومة .. وكان الحماس قد استبد به فقفز

المائدة الصغيرة التى تتوسط الصالون بقدمه وألقى بها بعيدا .

وقد تنثر ما عليها فى كل اتجاه .. وجاء فرانسيسكو على

الضجة ، ثم تراجع مذعورا عندما رأى حمودة ، وانحنى على

الارض يجمع أعقاب السجائر وأعداد الجرائد وفناجين الشاي .

ولكن ثورة حمودة لم تهدأ ، بل ازدادت لهيبا وقال وهو

يضرب المقعد بقبضة يده :
- طيب يا حكومة .. أما أشوف أنا راجل وهنفذ الى في بالي
واللا لا ؟ ..

وعندئذ فتح الصالون ضابط كبير .. وقف برهة على الباب
ينظر نحونا في دهشة ، وعندما رفعت بصرى الى وجهه اكتشفت
أنه الضابط الذى كان رفيق الديوان في قطار الليل .. ونهضت
على الفور ومددت يدي نحوه مصافحا ..

وذابت ثورة حمودة فجأة ونهض هو الآخر ، وصافح الضابط
الكبير وهو يحنى رأسه ، ثم جلسنا والضابط بيننا يستفسر
عن سر الضجة التى كانت منبعثة من الصالون ، وقدمت له المعلم
حمودة على أنه قائد كتيبة وحوش الجبال .. وزعمت له أن سر
ثورته هو حاجته الشديدة الى السلاح ليدخل المعركة ضد
قوات الاحتلال ..

ومط الرجل شفتيه ، ثم قال والاسى يبدو عليه :

- عرفت ايه الى حصل دلوقت ؟

ولما أجبتة بالنفى ، قال فى أسى حقيقى :

- عشر عساكر ماتوا دلوقت ..

قلت وقد غمرنى فرح شديد ..

- انجليز ؟

ورد الضابط فى هدوء :

- لا .. عشر عساكر بوليس .. ماكانش معاهم سلاح ..

كان معاهم شوم .. كانوا رايحين نقطة بوليس فايد الانجليز
ضربوهم بالنار ..

وضغط الضابط على أسنانه كأنه يطحن شيئا صلبا تحتها :
ثم قال وهو يدق على فمه ، بقبضة يده :

- دى مشن حرب ٠٠ دى جريمة ٠٠
وظل يكرر كلمة جريمة ٠ ثم سكت وعضى على شفتيه
بقسوة ٠٠

ثم زفر بشدة قبل أن يضطجع على مقعده واضعا ساقا على
ساق ٠٠

وهزتنى ثورة الضابط العجوز الذى لم يبق أمامه سوى عام
أو بعض عام ، قبل أن يهجر منصبه الى الابد ٠ ولكنه بالرغم من
ذلك لا يزال يحتفظ بحيوية الشباب ، ويحرص على اعلان رأيه
فى حدث خطير مثل هذا ، وهو رأى قد يغضب السادة الكبار
فى القاهرة !!

وانتزعت قلما من جيبي ودونت تفاصيل الحادث ٠٠ ثم قلت
للضابط الكبير وأنا أطوى الورقة :

- هل أكتب الحديث منسوباً اليك أم أنسبه الى مصدر
مستول ٠٠

وقال فى غير مبالاة :

- أكتب ما تشاء ٠٠ اذا أردت أن تكتب اسمى فاكتبه ثم
قال على الفور :

- اسمى زكى مراد ٠٠

ونظرت الى حمودة الذى كان ينصت الى الحديث الدائر بيننا
فى اهتمام ٠٠ وعندما التقت عيناي بعينه قال وهو يهز رأسه
فى أسف وعيناه تلمعان ببريق غريب :

- الله يرحمهم ، دول عساكر غلبة ، وهمه دول قد الانجليز ،
طيب يدونى الى أنا عاوزة وأنا أوريك ٠٠

ثم هب واقفا على قدميه ، وأعاد طرف العمامة الى مكانها
فوق عينيه ، ثم صافح الضابط فى أدب ، وسحبني من يدي الى
الخارج ٠٠ ثم قال وهو يضغط على يدي بشدة ليؤكد لى قوته :

- لازم تشوف حل في الموضوع ده أنا مش طالع الا اذا
مسحت البنك ده ..

ثم سكت قليلا وقال فى مودة :

- انت وزاك حاجة دلوقت ؟

وقلت وأنا أسحب يدى من قبضته الفولاذية :

- أيوه ، عندى شغل مع اللواء زكى مراد ..

- شغل مهم يعنى ؟

- أيوه ، ليه ؟ فيه حاجة ؟

وقال وهو ينصرف نحو الباب :

- أبدا .. كنا نروح نشرب نفسين ..

وشكرته ، وودعته عند الباب وصعدت وثبا الى غرفتى بالفندق .

ولم يمض نصف ساعة حتى كنت قد انتهيت من ابلاغ الجريدة

تفاصيل الحادث ، ورأى اللواء زكى مراد فى الموضوع ، ثم غادرت

غرفتى وهرولت الى حيث كان يجلس اللواء زكى مراد ..

وتلمكنى غيظ شديد وأنا أهبط الدرج لانى لم أكتشف

حمودة عند أول لقاء ، هذا الثور الذى يشترط للدخول فى

المعركة أن ينهب البنك ، والذى يصافح الضابط الكبير ،

وينصرف فى هدوء ليشرب نفسين مع أفراد جيشه الصغير وتنتهى

انقعدة آخر الليل باطلاق النار فى الهواء !!

كنت قد وصلت الى باب الصالون الذى يجلس فيه اللواء

زكى مراد .. ولكنى ترددت فى الدخول عندما جلجلت فى

جنبات الحجر ضحكة ناعمة . وعندما اختلست نظرة من الداخل

اكتشفت أن الضابط الكبير لم يكن وحده ، كان الى جواره حمزه

يك عبد المقصود ، وفى مواجهته مدام ريتا ، وفى نفس الثوب

الاحمر الفاقع فى لون النار ، وشعرها الذى فى لون الشاى

يتسدل على كتفها البضتين ، وعنقها العاجى الدقيق .. وكانت

تضحك فى دلال ، وزكى بك يتسم فى وقار ، وحمزة بك يصيب
فى جوفه ما تبقى من كأسه ، وتوقفت دقيقة لأدرى ماذا أفعل
.. ثم انسحبت فى هدوء واستدرت الى الخلف وهرولت نحو
الشارع .. ورحت أعدو فى طريقى الى البحيرة .. الى عيش المعلم
حمودة ..

وهكذا مضت عشرة أيام طويلة وأنا مرابط فى عيش المعلم
حمودة لا أكاد أفيق لحظة حتى يبرز الفجر فأخرج فى موكب
حمودة المسلح الى فندق يالاس . لأعود اليه بعد ساعات أوصل
مع المعلم حمودة ورفاقه ما انقطع بالامس ..

وخلال الايام العشرة لاحظت تطورات خطيرة بدأت تطرأ
على شخصية المعلم حمودة .. فقد بدا خلال تلك الايام ، وكأنه
نسى كل شيء عن المعركة وازداد اهتمامه برجاله .. وازداد
اهتمامه أكثر بنفسه .. وظهرت عليه فجأة آثار النعمة حتى
خلت أنه سطا فعلا على البنك .. وأنه لفق قصة محاصرتة
والقبض عليه !!

وفى خلال الايام العشرة التى قضيتها مع حمودة فى عيش
النسر ، كانت عربات الكارو تحمل الى العيش قطعاً شتى من
الاثاث . سرير فاخر ومكتب ، وطقم مذهب .. وكلها لاستعمال
المعلم حمودة .. وكان البناءون خلال النهار يواصلون العمل
بشدّة فى بناء حجرة تليق بمقام المعلم حمودة ، وعندما انتهوا
منها .. انهمك حمودة فى تأثيثها ، وثبت على بابها لافتة نحاسية
تحمل كلمتين « ممنوع الدخول » ..

واستطاع حمودة بطريقة ما أن يحصل على بدلة ضابط
انجليزى برتبة بريجادير .. والتقط لنفسه صورة ضخمة وهو
داخل البدلة ، وعلقها على جدار فى الحجرة .. وكان يرتديها
أغلب الاوقات حتى وهو منهمك فى اعداد النار وتدخين الجوزة

.. ولما سألته عن سر تمسكه بإرتداء البدلة داخل العش قال
وهو يغمز بعينه :

— عشان ماحدش يعرفنى !

وكان شديد الحرص على شراء أجود أنواع السمك ، وأفخر
أنصاف الحشيش وباع مسدسه القديم واشترى مسدسا آخر
مطعما بالصدف ، وكان رجاله أحيانا يفدون الى العش فى أول
الليل ومعهم نساء متخفيات لم أتبين حقيقتهن أول الامر .. وكان
المعلم حمودة يختلئ بهن كثيرا داخل حجراته الجديدة ، تاركا إياي
مع رجال الكتيبة فى الحوش نباشر اعداد الشاى للمعلم
وضيوفه ..

وذات مساء تطوع هو بالحديث عن وفود النساء التى كانت
تقد الى العش فى الليل وقال وهو يلحق شفتيه بلسانه :

— دول نسوان خواجات ..

ولما فتحت فمى دهشة من المفاجأة ..

قال وهو يربت على كتفى برفق :

— لا .. دول مش لعب .. دول بيحيبولى أخبار المعسكرات ..

ولم يبد المعلم حمودة أى اهتمام خلال هذه الايام بالمعركة
الناشبة فى القناة .. خيل لى أنه نسيها تماما ، أو أنه يحاول
نسيانها بحرق أكبر كمية ممكنة من الحشيش ..

وكما نسى المعلم حمودة المعركة أو حاول أن ينساها .. كنت
أنا الآخر أحاول أن أنسى مدام ريتا .. ولكنى كنت أحيانا أوجه
أسئلة أحرص دائما على أن تبدو أنها عابرة عن مدام ريتا ،
وكان هو يجيب عليها باقتضاب وفى غير اهتمام .. وذات مرة
نظرت الى حمودة عقب سؤال وجهته اليه عن مدام ريتا ...
وارتعش حاجباه ، ونظر الى وهو يتفرس بعينه اللتين فى لون
العمل المخلوط بالطحينة . وقال :

— ايه الحكاية .. مدام ريتا .. مدام ريتا .. انت ايه

مغرم صباية قوى ..

وقلت له وأنا أحاول أن أبدو طبيعيا :

— أبدا .. بس أنا عندي خبر عنها يهز الدنيا كلها ..

وانتفض حمودة وهب من فوق مقعده وقال وهو يجز على

أسنانه :

— خبر .. خبر ايه ؟

— كانت سهرانه من أسبوع في معسكر الانجليز بالاسماعيليه .

— سهرانة مع مين ؟

— مع كابتن اسمه ويليامز ..

وبلا وعي ، اندفع حمودة يكذب الخبر .. ويؤكد لي أن مدام

ريتا طيبة للغاية ، ووطنية مخلصه ، وأن أعداءها في المدينة

يشيعون عنها مثل هذا الكلام الفارغ .. وفي النهاية طلب منى

عدم نشر هذا الخبر لان في نشره اساءة بالغة لحمودة !

وتملكنتني الدهشة لموقف حموده .. فما علاقة مدام ريتا

بحموده وكيف يسىء خبر عن مدام ريتا لحمودة شخصا ؟

ولما استفسر منه عما يقصده بالضبط قال وهو يهز رأسه

بطريقة توخى أنه يعلن أسفه لحيبتي العريضة :

— لو ما كنتش مدام ريتا ، كناقلنا الكتيبة دي من زمان ..

— ليه ؟

— ليه ايه ؟ هيه الي بتصرف عليها يا أستاذ ، دي أجدع

الراجل ..

مدام ريتا تصرف على الكتيبة ؟ ولماذا ؟

ماشأناها هي بهذه القضية . الحسنة الايطالية التي توكل

الاشاعات انها على علاقة وثيقة بقوات الاحتلال ؟

وهل كل مظاهر البذخ التى يعيش فيها حمودة وأفراد جيشه
الآن من خير مدام ريتا ، وهل هى ثرية الى هذا الحد ؟ أم انها
واسطة ، والنقود التى يحصل عليها حمودة من مدام ريتا مصدرها
مجهول ، ولعلها سلطات الانجليز فى المنطقة ؟
أشياء متشابكة وغريبة ومريبة فى نفس الوقت ؟

هل الامر جد أم هزار ؟ وكيف يمكن أن يكون جد ، وحمودة
يدخن الحشيش طول النهار ، وفى بدلة الجنرال وينفق عن سعة
من خير مدام ريتا ؟

المسألة الآن هزار فى هزار ٠٠ والمركة الناشبة لاحتتمل
هزارا سخيفا من هذا النوع ، وأنا أيضا مسئول عن هذه النهاية
الغريبة التى تطورت اليها المركة ، أنا شخصا خاطئ مثل
حمودة ومثل الايطالية الحسناء !

والحكومة التى فى القاهرة ، ألغت المعاهدة ووقفت تتفرج ،
والأحزاب كلها تتآمر على المركة ، والملك يتربص بها وبالشعب
٠٠ وحمودة خاض المركة للحصول على أجود اصناف الحشيش ،
وأفخر أنواع السمك ٠٠ وأنا هنا فى المركة أتفرج ، لا
أتأمل ٠ فالمسطول لايتفرج ، انه يتأمل وعينه نصف مفتوحة
ونصف عينى المفتوحة يبحث فى نهم عن المرأة ذات الشعر الاحمر
فى لون الشاى !

وافقت على يد المعلم حمودة تهزنى فى عنف ٠٠ وقال وهو
يصرخ فى وجهى :
- أوعى تنشر حاجة ٠ لازم تقابلها الاول ٠٠ قابلها وافهم
كل حاجة ٠٠

وعندما سكنت ، ولم أتكلم ، استأنف حديثه قائلا :
- ايه رأيك ، تقابلها بكره ٠٠

وقلت وأنا لازلت ساهما :

— فين ؟

— فى اللوكاندة ، ايه رأيك ؟

وتمتتم فى همس :

— اتفقنا ..

ومد المعلم حمودة كفه الغليظة نحوى وقال :

— كفك ..

ومددت كفى أنا الآخر .. وتشابكت أصابعنا فى ضمة قوية،
ورائحة الحشيش تنفذ فى الحياشيم ، وأصوات الطيور المهاجرة
نحو الغرب تملأ الجو .. والليل بدا أشد بهجة عن ذى قبل
.. والبحيرة بدت أكثر اتساعاً ، وأحسست كأنى أهم
بالطيران ..

الفصل الخامس

قبل أن ألتقى بمدام ريتا ذلك المساء الرائع من نوفمبر في جناحها الانيق بفندق بالاس ، لم أكن قد التقيت بامرأة جميلة في مغامرة مثل هذه من قبل . ولم تكن لى مغامرات من هذا النوع تعيننى على مواجهة الموقف ، وكانت كل تجاربى فى هذا الميدان محدودة وتافهة ، لم تكن تجارب ، كانت شقاوة وكانت بطلتها ، تلميذة فاشلة تعلمت الحب فى السينما ، وكانت تصر كلما التقيت بها على سلم البيت المظلم على اتهامى بالخيانة ، وكانت تنطق بالكلمات على طريقة عزيزة أمير وكل عضلة فى وجهها تختلج ، وكأنها تمثل الدور أمام كاميرا غير منظورة ، وكانت تحديق طويلا فى وجهى ونحن نجلس على درجات السلم المكسورة ، ثم تقول بنفس اللهجة التمثيلية :

— حلمى ، أنا خائفة .

وكنت أهب واقفا من شدة الذعر أتلقت هنا وهناك ثم أعود الى الجلوس وأهمس فى أذنها أحاول أن أدخل الطمأنينة على قلبها :

— ماتخافيش ، مافيش حد ..
وعندئذ كانت تغلق عينيها ، وتلقى برأسها على صدرى وتقول
فى دلال شديد :

— أنا خايفة أحسن سعادتنا تنتهى قوام .

ولم تكن ثمة سعادة نحس بها على الاطلاق ، فالسلم مكسور ،
ورائحته الحبيثة تفوح فى الجو ، وتبعث على الغثيان . ولم أكن
أحمل فى جيبى مايكفل ثمن فنجان قهوة واحد ، ولم يكن هناك
أمل فى أن نلتقى يوما ما فى مكان آخر غير السلم ، فلم تكن
ملابسها تسمح بدخول مكان آخر ، ولم تكن نقودى تسمح
بتحقيق هذا الأمل الجميل .

وكانت المسكينة كلما انتهى لقاءنا طوقت عنقى بيديها وبكت
وكانت تبكى فى حرقة وهى تتشنج فى عصبية وكنت أتخلص
من يديها باستعمال العنف أحيانا ، وكانت تقف على السلم وأنا
صاعد للشقة تلوح لى بمنديل رخيص مكرمش وصوتها يتهدج
من فرط التأثر :

— مع السلامة يا حلمى .

وكان هذا الوداع الحار يتكرر كل يوم ، وكاننى مسافر الى
أقصى الارض .

كانت المسكينة تمثل معى دورا غراميا عنيفا شاهده على
الشاشة ، وكانت لفرط اندماجها فى الدور تصر على أننى أشبه
تماما حسين صدقى ، بالرغم من انعدام الشبه بينى وبينه ، ثم
هجرتنى! بعد ذلك ، عندما التقت بشاب ظهر مرة فى دور كومبارس
فى أحد الأفلام .

وتجربة أخرى خضتها مع خادمة كانت تعمل لدى أحد القضاة
العظام . وكان القاضى يعيش مع أسرته فى قصر كبير على حافة

المزارع • وكنت ألتقى بها كلما خرجت لشراء اللحم والخضر كل صباح • وفى المساء كانت تنتحل ألف عذر لتحصل على أذن بالخروج • وكانت تنزع منديلها المحلاوى من فوق رأسها قبل أن تقفز سلالم القصر الى الشارع • وكانت تصر على أنها ابنة البية القاضى وكنت أظاھر بتصديقها بالرغم من قدميها الحافيتين • وكانت تنطق بالكلمات كأنها بنت فى الثالثة تتعلم النطق بالكلام • وكانت تظن أنها لغة بنات الذوات • وكنت أصحبها

أحيانا الى محل طرشى بلدى ، فقد كان القاضى مغرما بالطرشى الى حب كبير ، وكانت مائدته لاتخلو أبدا من سلطانية الطرشى، وكان اذا افتقد السلطانية على المائدة لايتذوق الطعام • وكانت تزعم انها هى التى تحب الطرشى ، وانها تذهب بنفسها لتشتريه كل يوم لانها وحدها هى التى تأكل الطرشى، ولم تكن بالطبع تجد ما يبرر شراءها هى بالذات دون أخواتها أبناء القاضى ، اللحم والعيش والحضار !!!

وذات مرة ونحن فى طريقنا الى محل الطرشجى قالت تسألنى
بلغة الذوات :

– انت بتحب الطلسى

وقلت أسألهأ وأنا فى منتهى الدهشة :

– باحب ايه ؟

وقالت وهى تتثنى :

– الطلسى ؟!

– آه قصدك الطرشى

– أيوه ••

– أيوه باحبه •

وقالت وقد أخذتها موجة من الدلع البايخ :

٠ فيه حاكّة «حاجة» كمان أنا باحبه ٠

ونظرت إليها فى غيظ فاضطربت وهممت لشدة غيظى أن
أصفعها قلمين على وجهها الكالج الشاحب ، ولكن أنقذ الموقف
صرخة رهيبة انطلقت من فمها فجأة ، ثم ركعت على الأرض
تتحسس قدمها وهى تصرخ وتبكي ٠ وعندما انحنيت على قدمها
اكتشفت أن قطعة زجاج حادة شطرت جلد قدمها فتدفق دمها
كالنافورة ٠ وأشفقت عليها جدا فحملتها معى الى الشقة ،
وضمدت لها الجرح ولففته بقطعة قماش من قميص ممزق ٠
ومنحتها حذاء قديما مثقوبا من أسفل فقبلته شاكرة والفرحة
تلمع فى عينيها ٠ وعندما هدأ الجرح قليلا عادت الى طبيعتها
الاولى ، فجلست تحكى لى عن قسوة أبيها القاضى لانه متزوج من
امراة غير أمها التى ماتت وهى طفلة ٠ وقصت رواية محبوسة
توحى بموهبة قصصية فذة ٠٠ وبعد أن انتهت منها بكّت فى
أسى حقيقى ، ثم خطفت السلطانية وهرولت نحو بائع الطرشى
وذاات مساء كنت أسير معها نحو قصر القاضى وكان الظلام
شديدا ، فلم نتبين الذى كان يقف فى الشرفة يترقب عودتها
وقد أقلقه غيابها الطويل ٠٠

وعندما اكتشف القاضى اننى معها شخط فى لهجة أمرة :
- بت ياسيدة ٠

وارتاعت البنت جدا للمفاجأة ونسيت نفسها وسقط قناع
الكذب من فوق نفسها ، فقالت والرعب يأكلها :
- نعم ياسيدى ٠

ولم أسمع بقية الحوار ، فقد أطلقت ساقى للريح وكان هذا
آخر عهدى بسيدة ، فقد طردها القاضى فمضت الى حيث لايعلم
أحد !

كانت هذه كل تجاربي في الغرام وأنا طالب مقلس ولم يكن فيها ما يفيدني مع مدام ريتا ، الحسنة المجربة التي احترفت عشق الرجال •

وكان حموده قد جاءني في الصباح وقال وهو يرسم ابتسامة عريضة أكلت معالم وجهه كله :

- أبسط ياعم ، الست هتقابلك بالليل •

ثم غمز بعينه وهو يزغدني في جنبي ولم ينس وهو خارج أن يدس في يدي بقطعة أفيون ، ثم التفت نحوي وقال في فخر شديد :

- عشان تبقى تدعيلي

ولكني رغم كل شيء أحسست وأنا أقطع الطريق نحو جناح مدام ريتا أنني مقبل على مغامرة مجهولة محفوفة بالمخاوف ، وأحسست في الوقت نفسه بزهو عظيم كأنني أول رجل في العالم اختارته الأقدار لعبور المحيط وارتديت قناع الاهمية ، وطرقت الباب في رفق وفتحت مدام ريتا ، وابتسمت في حلاوة ثم أغلقت الباب ، ووقفت تنظر نحوي قليلا ، ثم قهقهت وصوتها يرن كأنه كئوس ذهبية يقرعها بعض السكارى في ليلة مكتملة الأنس والانسجام •

وسابت مفاصلي وتفككت لضحككتها واجتاحني رعب هائل ، لقد خيل لي أن شيئا ما في وجهي انتزع منها هذه الضحكة المجلجلة • ترى هل هو شاربى الرفيع كأنه حاجب غانية لها وجه مرسوم ؟ أم أنفى الضخم أم فمى الواسع ؟ ••

وعندما دعنتني للجلوس ، جلست كأنني تلميذ خائب في مدرسة أولية • وساد الصمت نننا فترة حاولت أن أبدده بالكلام

أكثر من مرة ، ولكنى فشلت وعندما نجحت محاولاتي في النهاية
قلت كأننى فلاح منوفى لم يغادر قريته قط .
- أزيك يامدام ريتا .
وهزت رأسها واكتفت بالابتسام .
وبعد فترة صمت أخرى ، قلت لها وبفس اللهجة الرسمية -
- سلامات ..

ويبدو انها لم تفهم معنى الكلمة فاستفسرت عما اطلب فقلت
وأنا أرتعش من شدة الاضطراب :
- أهلا وسهلا ..

ومضت نصف ساعة ثقيلة قبل أن تنهض مدام ريتا وتحضر
زجاجة ويسكى وكاسين . وعندما أفرغت الكأس الاول فى جوفى
أحسست بنشوة عارمة ، وبعد نصف ساعة أخرى كنت قد
أفرغت نصف الزجاجة فى جوفى ، وعندئذ أخذت راحتي أكثر
ومددت ساقى الى آخر ما أستطيع ، وألقيت برأسى الى الخلف .
وجلست أدندن بأغنية قديمة وحاولت فى كل ما أفعله أمام مدام
ريتا أن أبدو كأحد رعاة البقر المغامرين فى أفلام أمريكا .

ونظرت مدام ريتا نحوى وهى تبتسم نفس الابتسامة الحلوة ،
وقالت فى نغم :

- انت زعلان ليه ، المعلم حموده حكى لى كل حاجة ..
ونظرت اليها فى استهتار ، والحرر تكاد تفقدنى وعيى وقلت
لها وأنا أهز قدمى :
- أنت حلوة ، شعرك حلو .

وضحكت المرأة الجميلة وهزت رأسها الجميل فى رشاقة .
فاهتز شعرها كله ، ثم وضعت ساقا على ساق وكشفت عن
فخذها فى حركة غير مقصودة . وحدثت فى الفخذ العارية بعينى

نهمة مجنونة واشعلت النار فى نفسى ، فمددت يدى المرتعشة
ولمسنت الفخذ الجميلة ، وأحسست بها تحت أصابعى المرتجفة
طرية كأنها طبق بلوطة حارة أو كأنها رغيـف عيش خارج من الفرن
وأرعشت مدام ريتا ساقها ومدت يدها تبعد يدى فى دلال ،
وقالت وهى تضحك :
_ لا .. مش وقته !

كانت رأسى قد دارت من أثر الجمر وفقدت توازنى تماما ، ولم
أعد أميز الأشياء بوضوح ، وكل شىء بدأ يتحرك أمامى ويرتعش .
وسقط القناع الزائف الذى كنت أرتديه لحظة وصولى الى جناح مدام
ريتـا . وعدت الى حقيقتى صيبا فى الثالثة والعشرين يلتهب
رغبة وشبقا . وأحسست بضعفى أمام المرأة الجميلة وشعرت بأننى
أقفه مما قدرت . وأهيف مما ظننت . وتمنيت لو أخرج من حجرة
مدام ريتا الى الشارع . وأنزوى فى عش المعلم حمودة ، أدفن
ضعفى فى ضباب الحشيش ، ولكن حتى هذه الأمنية لم أكن
قادرا على تحقيقها ، كانت أى حركة من هذا النوع تستلزم
شجاعة لم أملك منها شيئا .

وأخذت أبحث عن موضوع أتحدث فيه مع مدام ريتا ، وكان
لا بد من اختيار موضوع أجيده ، لكى أؤكد تفوقى على المرأة
الجميلة ، وأنا لا أجيد الحديث الا فى السياسة . وبدأت أتحدث .
عن الأحزاب ومناوراتها والملك وخيائنه . وظللت أتكلم بلا انقطاع
كأننى حنفية مفتوحة ، والمرأة الجميلة لا تبدى اهتماما بالحديث ،
وبدا عليها أنها لا تفهم شيئا مما أقول . واضطربت مرة أخرى
تغيرت مجرى الحديث الى الصحافة ، وتحدثت طويلا عن الصحف ،
وموقفها من المعركة ، وعن الصحفيين ، ودورهم فى حرب التحرير .
وكنـت حريصا بالطبع على أن أؤكد خلال الحديث أننى صحفى
كبير ومرموق ومستنول وقادر على صنع المعجزات . وسألتها فى

نهاية حديثي عما اذا كانت قد قرأت مقالاتي الاخيرة .. هزت
رأسها الجميل بالنفي .. وقالت في بساطة :
- أنا ما عرفش أقرأ عربى !! ..

وعندئذ انهرت تماما ورحت أتكلم فى كل شىء وعن كل شىء ..
كلاما فارغا للغاية ، ورحت أشتتم كل شىء وأى شىء ، حمزة بك
عبد المقصود ، والمعلم حمودة والانجليز ، والنساء ، ولم أترك
شيئا الا وشتتمته كأننى سكران مغلس نهض آخر الليل يحطم
كل شىء فى الحانة !

وقالت مدام ريتا وقد بدا عليها الضجر الشديد والقرف
أيضا :

- بتحب المزىكة ..

قلت وأنا أهز رأسى كأننى أستاذ فى معهد الموسيقى :

- طبعا

- بتحب مزىكة مين ؟ ..

- بتهوفن ، وجوهان ستراوس

- تحب تسمع ايه لستراوس

- الدانوب الازرق •

ونهضت مدام ريتا وأدارت أسطوانة الدانوب الازرق ، ورحت
أستمع الى الاسطوانة فى شغف مصطنع • وأنا أرسوم على وجهى
علامات الرضا أحيانا ، وعلامات الاهتمام أحيانا أخرى ..

الحقيقة لم أكن من المهتمين بسماع الموسيقى من قبل
ولم أكن من الخبراء فى علم المزىكة ، صحيح أنا أحب الاستماع
اليها دون أن أفهمها ، ولم أكن أحب موسيقى بتهوفن • ولكنى
كنت أعلم أن الناس تحب موسيقاه ، وقدرت أن مدام ريتا مادامت
من هواة الموسيقى لا بد تحبها هى الأخرى ، ولم أكن قد استمعت

الى موسيقى لجوهان سترأوس غير الدانوب الازرق، واستمعت اليها مصادفة ، غير أن حركاتى التمثيلية أقنعت مدام ريتا بأننى من هواة الموسيقى ، ولكن نتيجة هذا التمثيل وهذا الاقتناع كانت وبالا على . فقد ظلت تسقينى من موسيقى سترأوس حتى تصدع رأسى وكرهت اليوم الذى سمعت فيه اسم سترأوس !

وعندما انتهت الموسيقى ، قالت مدام ريتا وهى تشير الى مكان بالقرب منها على الكنبه التى تجلس عليها :

— تعالى جنبى هنا .

وزحفت على الفور الى المكان الذى أشارت اليه ، وجلست أنظر نحوها كالعبيط دون أن أجرؤ على لمسها بيدي .

وكانما أدركت المرأة المجرية اننى أعبط من درويش وأخيب من فلاح . فانجنت على شفتى وقبلتنى ثم مدت أصابعها وراحت تعبت بأظافرها الطويلة فى شعرى ، وأحسست عندئذ أننى فى حلم ، واستسلمت للمرأة كأننى عذراء وقعت بين يدي ذئب ، وأغلقت عيني واضطجعت فى انتظار قبلاتها ، ولكنها كفت عن ذلك . وترامى الى أذنى صوت شفتيها وهى تمتص الكأس ، وعندما فتحت عيني اكتشفت انها قد انتقلت من مكانها الى مقعد آخر .

وبعد أن أفرغت كأسا آخر فى جوفها ، قالت وهى تنظر نحوى ويدها تستند خدها :

— انت كنت زعلان ليه ، معلم حمودة حكى لى انك زعلان ..

وحكى لها يوم لقائى بها فى القطار ، ثم فى صالوا الفندق مع حمزة بك عبد المقصود ، ثم فى اليوم التالى عندما رفقتنى بنظرة احتقار .

وابتسمت المدام فى خبث شديد ، وقالت ولسانها يلحق
شفتيها :

- صدقنى أنا ما كنتش أعرفك ..

ونظرت اليها ولم أتكلم ، ثم أشعلت سيجارة ورحت أدخن
فى هدوء . ونهضت هى من مكانها وانتقلت الى جانبى ، وربت
بيدها على خدى ، وقالت فى صوت كالمنكجة :

- انت لسه زعلان ..

- أبدا

- طيب احلف

-والله العظيم ثلاثة ..

ونطقت بالقسم كأننى فلاح فى دوار العمدة يقسم أن جاموسته
لم تقترب من الحقل ، ولم تذق طعم اللفت الذى زرعه بسطويسى .
وقالت تسألنى وظفرها المدبب يعبث بشاربى الحفيف :

- انت منين ؟

- من كفر ناموس مركز الباجور منوفية

وطرقت ضحكة مدام ريتا وجلجلت فى الجو ، وكتمت فمها
بيدها ، ويدها الاخرى على صدرها وظل جسمها يهتز كأنها
شجرة توت رقيقة دهمتها رياح الخماسين .

وعندما انتهت من نوبة الضحك عادت تسألنى من جديد :

- أنا موش قصدى كده ، أنا قصدى انت ساكن فىين ؟

- فى مصر ..

- فى أى حته ؟

- فى الروضة ..

- عندك شقة جميلة ؟

- أنا ساكن مع أبويا ..

وحدقت مدام ريتا في وجهي وقالت :

- انت ظريف خالص ..

وعلى الفور ، وبلا مقدمات ، طوقت مدام ريتا بذراعي ، ونكشت شعرها في عنف ، ومزقت ثوبها من فوق الكتف ، ورحلت أطبع مئات القبل فوق شفتيها وعنقها وكتفها وشعرها ، وكانت أحيانا تتأوه ، ثم اضطرت الى التوقف عندما صرخت مدام ريتا ، وعندما تخلصت من ذراعي تماما اكتشفت أنها كانت تتأوه من شدة الألم .. ولم تكن اللذة هي السبب كما خيل الى !! ..

وملأت لنفسها كأسا ، وملأت لي كأسا آخر قدمته الى ، فأمسكت بيدها .. وانحنيت عليها فقبلتها في شغف .. وجلست أرشف من كأسى وعيناي سارحتان على مدام ريتا من شعرها الى كعب قدمها . وفجأة وضعت ريتا كأسها وقالت وقد ضاقت عينها جدا :

- مين قال لك أنا كنت عند الانجليز ..

وكان السؤال ضمة فافقت ، فالحقيقة اننى لم أسمع من أحد أن مدام ريتا كانت عند الانجليز ، كل ما هنالك أن إشاعات كثيرة تترثر بها السنة أهل المدينة عن علاقات مدام ريتا بالانجليز قبل الغاء المعاهدة ، وسهرات كبار القواد معها في بار فندق بالاس .. والصفقات التي كان يعقدها حمزة بك عبد المقصود مع هؤلاء القواد أثناء الليل والتي درت عليه ألوف الجنيهات .. ولكن لم أكن قد سمعت من أحد في الاسماعيلية كلها أخبارا تؤكد أن ريتا التقت بالانجليز أو ذهبت عند الانجليز بعد الغاء المعاهدة . وكنت أكذب على المعلم حمودة عندما هددت بنشر أخبار اجتماع ريتا بالكابتن ويليامز في معسكر الاسماعيلية . وعندما نظرت الى مدام ريتا لمحت الخوف واضحا في عينيها ..

وأحسست بالقوة لأول مرة منذ التقينا . . . فهأنذا أقوى ومدام
ريتاً تبدو ضعيفة وخائفة ، ، وقلت لها وأنا أتصنع الاهمية :
- ناس . .

قالت وهى تهرش فى خدها بلطف شديد :
- ناس مين ؟

- ناس كثير . .

وقالت مدام ريتا فى عصبية :

- كذب ، كذب . .

ثم أفرغت كأسها كله مرة واحدة ، ومسحت بأصابعها على
شعرها ، وعادت تقول بنفس الثورة :
- ناس كذايين ، ولازم تقوللى مين همه .

قلت وأنا أحاول أن أهدي من ثورتها :

- على كل حال المسألة انتهت ، أنا مش هانشر حاجة .

وفجأة أيضا وبلا مقدمات ، بكت مدام ريتا ، بكت بشدة كأنها
طفل ، ونهضت من مكانى ، وجلست عند قدميها ورحت أربت
بيدى على ظهرها ، وأحاول أن ألمس كتفها العارية ، وعندما كفت
عن البكاء ، انتزعت من صدرها منديلا معطرا ومسحت به وجهها ،
ونهضت من مكانى وملأت كأسا وقدمته لها ، وعندما انتهت
من الكأس رفعت رأسها فى كبرياء ، وقالت فى جلال الملكات :

- أنا حقولك الحقيقة ، أنا فعلا كنت فى الكانب . .

ودق قلبى بعنف ، وشعرت به ينزلق الى ركبتي ، مدام ريتا
كانت فى الكانب ، وأكاذيبى كانت حقائق دون أن أدري ،
وتهاويت على أقرب مقعد وقلت فى لهفة :
- كنتى فى الكانب امتى ؟

- من أينبوع . . .

- له ؟

- كنت بأحصل فلوس ، كان له فلوس عند ميت ظابط

انجليزى شربوا بيها خمر فى اللوكاندة . . .

- وجيتى الفلوس ؟

- مش كلها . . .

- يعنى هتروحى تانى ؟

وصممت لحظة قبل أن تقول :

- لا ، مش رايحة تانى ، فى داهية الفلوس .

وسكتت ريتا ، وسكت أنا الآخر ، وأشعلت لنفسى سيجارة ، ورحت أنفث حلقات دخانها فى فضاء الحجرة وألقيت نظرة على زجاجة الويسكى الفارغة ، وقطع الأثاث المتناثرة فى الحجرة ، وصورة مدام ريتا المعلقة على الحائط ، وتعجبت لهذا الذى يدور كله على ضفاف القناة . حمودة وجيشه وقعدات الحشيش الحرافية على شاطئ البحيرة ، ومام ريتا التى تنفق على الكتيبة ، وتذهب الى معسكر الانجليز لتحصيل نقودها كأن مهمتها فى الفندق هى تحصيل النقود !! ولماذا لم ترسل مدام ريتا موظفا فى الفندق لقضاء هذه المهمة ، لماذا ذهبت بنفسها الى معسكر الانجليز والمركة قائمة فى المدينة على قدم وساق .

والنقود التى حصلت عليها مدام ريتا ! هل هى ثمن خمر كما تزعم المدام الجميلة ؟ أم هى ثمن شئ آخر ؟ لعله حموده وجنوده ؟ والى أين سوف تمضى المركة وهذه ظواهرها العجيبة ؟ حموده على شاطئ البحيرة فى زى بريجادر يشوى أجود أنواع السمك على النار ، ويقلب الجمرات بماشته الفضية ، وريتا فى الكانپ تبخث عن ثمن الخمر ، وأنا فى حجرة مدام ريتا فى منتصف الليل ، وزجاجة ويسكى فارغة بيننا ، ومام ريتا تجلس

أمامى نصف عارية ، ومخدعها يبدو مرتباً ونظيفاً من خلال
فتحة الباب .

وعندما ارتفع صوت مدام ريتا بالحديث انقطع حبل أفكارى
وانتبهت إليها ، كانت مدام ريتا تسألنى عن سر وجومى ، وقلت
لها وأنا أحاول أن أبدو طبيعياً :

— لا ، مفيش حاجة ..

وقالت فى صوت ضعيف :

— أنا آسفة اذا كنت ضايقتك بعياطى ..

— لا أبدا ..

— يعنى انت موش مضايق ؟

— أبدا ..

— طيب تعالى هنا ..

ورحت الى حيث تجلس ، وجلست الى جوارها كقطة بلدى
مريضة .. وانقضت ريتا كالصاعقة تقبلنى ، وطوقتها بذراعى
ثم حملتها وأجلستها على ركبتى ، ورحت أغمر عنقها ووجهها
بقبلاتى المحمومة . وشعرت كأن حمى رهيبة تجتاح جسمى كله ،
والدم يتصاعد الى رأسى ويكاد يقفز من عروقى وارتفعت ساعة
الكنيسة الفرنسية تدق الثانية بعد منتصف الليل ، وكانت مدام
ريتا لاتزال على ركبتى مستسلمة بين ذراعى كأنها مغمى عليها ،
وألقيت نظرة على المخدع الذى يبدو من فتحة الباب ، ثم حملت
مدام ريتا واتجهت نحو حجرة النوم ..

وعندما ألقيتها على السرير فتحت عينيها فى دعر .

وعندما ألقىت نفسى عليها دفعتنى بقسوة ، ونظرت إليها
والشرر يتطاير من عيني ، ثم هجمت عليها ولويت ذراعيها بشدة
فندت عنها صرخة مرعبة ثم أمسكت بشعرها الاحمر بين أصابعى
وجذبته بوحشية ، ثم ألقىت بنفسى فوقها وكتمت أنفاسها بفعى

وحاولت المرأة التخلص من قبضتي دون جدوى ، وعندئذ
أيقنت انها لن تستطيع التخلص منى بسهولة لجأت الى أسلوب
آخر ، فقالت وهى تحاول رغما عنها أن ترسم ابتسامة على
شفتيها :

- حلمى ..

قلت وأنا منهمك فى التقبيل

- ايه ..

- بلاش ..

- ليه ؟

- عشان خاطرى ..

- وعشان خاطرى أنا ..

- موش النهاردة ..

- آمال امتى ؟

- بعدين .. لما تعرفنى كويس ، موش معقول كده ..

وأحسست بالحجل ، ونهضت من فوقها وجلست على مقعد
الى جوار السرير ، ورحت أرتب ملابسى ، وأعيد تسوية شعرى
المنكوش ، ورمقتى ريتا بنظرة فاحصة ، وقالت :

- انت بتحب ؟

- لا ..

- ليه ؟

- كده ..

وتقلبت فى الفراش كالسمكة ، وقالت وهى تضحك :

- انت زعلت ..

- موش قوى ..

- طيب مايزعلش ، بكرة تعرف بعض كويس ..

وهزّزت رأسي وإبتسمت في سخرية وقلت :
- ان شاء الله ..

وقالت المرأة وهي تخفي بملاءة السرير ماتعري منها :
- لا ، دا انت زعلان قوى ، طب حقك على راسي ، تعا
هنا ..

وقلت في حدة :
- لا كفاية كده ..

وضحكت ضحكة عالية وقالت :
- عشان خاطري ..

وقمت كعبد حبشي وجلست تحت قدميها على الفراش . ولكنها
أشارت الى بأصبعها . وقالت :
- لا ، تعالى هنا ..

ونهضت مرة أخرى وذهبت الى حيث أشارت ، وأغمضت
عينيهما وقالت في حنان :
- بوسنى ..

واضطربت لحظة ، ثم هجمت على شفتيها وأكلتهما أكلا ،
وغبت عن الدنيا دقائق ، ثم أفقت على طرق خفيف على الباب .
ونهضت واقفا أنظر نحو الباب فى قلق ، ولكن ريتا بدت رابطة
الجلّاش متزّنة ، وان كانت قد ظلت صامئة مثل لا تتكلم ، ولم ينقطع
الطرق على الباب ، وأحسست أنى فى مصيدة ، لابد أنها أعدت
كمينا لى حتى تنتقم ، ونظرت اليها فى غيظ وقد خيل الى أن
شكوكى ليست الا حقائق ثابتة .. وعندما التقت عيناي بعينيها
لم أستطع أن أثبتن فيهما شيئا على الاطلاق .. كانت هادئة
كعادتها ، بريئة كأنها طفلة لم تتعود المشى بعد ..

وفجأة ، دار مقبض الباب ثم انفتح ، ودخل حمزة بك عبد
المقصود ، بينما كانت ساعة الكنيسة القريبة تعلن الرابعة ،
والفجر تتعلق أهدابه بالافق البعيد • ويبدو من خلف قمم
الأشجار العالية كأنه قطعة من الليل خفف لونها الدامس فنان
عبقري بفرشاة مغموسة في الماء •

ونظر حمزة بك نحوى فى مودة ، وقال وهو يرفع يده فى
الهواء ••

— سعيدة ••

وردت مدام ريتا ، وهى لاتزال تتقلب فى الفراش ••
— هاللو ••

ولم أتكلم ، وعدت الى المقعد فى وجوم ••

الفصل السادس

انقضى شهر على ذلك اللقاء الاول مع مدام ريتا ، وأصبحت فى النهاية عضوا فى الشلة التى تحيط بها ليل نهار ، وأحيانا كثيرة كنا نقضى الليل معا فى حجرتها بالفندق ، وكنت أترش الارض تحت أقدامها وخصلة من شعري تهطل على جبينى وتخفى عيني ، وكنت أقضى الساعات الطويلة صامتا لا أتكلم ، وكئوس الوسكى تمتلىء لتختفى بسرعة فى جوفى ، وأذناى المرهفتان تلتقطان كل كلمة تهمس بهاريتا ، وهى فى روبها الاسود الشفاف وقد تمددت على الفراش الوثير • وشعرها الاحمر يتهدل على عنقها وينام على صدرها ، وكنت اذا أفرطت فى الشراب أحيانا أتخيل نفسى شهريار •• وشهرزاد تحكى له قصصها العجيبة •

وكنت قد اكتفيت من علاقتى بها بالجلوس اليها ، والنظر الى عينيها ، والاستماع الى قصتها الغريبة • وأحيانا كانت تستقبلنى بقبلة ، وتودعنى بقبلة ولم يكن هذا يحدث دائما ، بل كلما أبدت مدام ريتا رغبة فى ذلك •

وخلال تلك الليالي الطويلة التي كنا نقضيها معا عرفت أن مدام ريتا ليست سعيدة كما كنت أتوهم ، وتعجبت اذ اكتشفت انه حتى هؤلاء الذين يلفهم النعيم كما يلف ورق السلوفان قطع الملبن يعانون من الحياة كما يعانون هؤلاء الذين يقطعون رحلة العمر وأنظارهم مشدودة نحو الارض بحثا عن رغيـف .

ولقد كان فى ضمير مدام ريتا شيء ما يشدها نحو الماضى ، وكانت اذ تحكى هذه الفترة من حياتها تبدو تعيسة بشكل ملحوظ ، بل انها كانت تتوقف عن الحديث أحيانا وتبكي بعنف كأنها طفلة صغيرة . ثم تتوقف عن البكاء فجأة ، وتقذف بكأس الوسكى فى حلقها الضيق ثم تضحك وتبدو سعيدة وكأن شيئا لم يكن على الاطلاق . ولم يكن أروع منها فى تلك اللحظات التى تعقب بكاءها . كانت تبدو شديدة البهجة وكأن السعادة تندفق فى عروقها بدل الدم ! وكنت أنهض فى تلك اللحظات من مكاني وأهم بتقبيلها ولكنها كانت تصدنى برفق ، وتقول وقد ازداد وجهها لمعانا :

— حلمى ، مش وقته ..

وكان أشد ما يعذب ريتا هو ذكرى السنوات الاولى التى عاشتها مع أبيها وأمها ، وكان أبوها ايطاليا قصير القامة ، ذا كرش ضخيم وعينين ضيقتين غشاشتين ، وكان شديد النهم الى كل شيء .

وقد ظل حياته كلها يلهث وراء جمع المال ، حتى فى الفترة التى أصبح فيها ثريا ، لم يكف لحظة عن ارتياد طرق جديدة توصله الى أن يجمع رصيـدا أكبر من النقود !

وكانت أمها على عكس أبيها ، نحيفة عصبية جميلة ، وقد صرعت قلوب أكثر الرجال وسامة وجاها و ثراء فى مدينة

الاسماعيلية • ولقد كانت مطمع كل الرجال الذين يلتفون حولها وكانت حلم كل من يراها • وكان الرجل السمين البليد زوجها لا يهتم كثيرا بها ، بل كان لا يراها الا عندما يدخل غرفته في الفندق آخر الليل ويتمدد الى جوارها على الفراش كالقتيل ، وشخيره يتردد صداه في جنبات الفندق الهادئ !

وكانت المرأة الحسناء التى تزوجت بعد قصة حب عنيفة لا تكف عن الشجار مع فتى أحلامها الذى تحول الى خنزير ، وكان يواجه شجارها بالاختفاء من وجهها الى درجة انه فى نهاية الامر خصص لنفسه حجرة مستقلة ، وكانا لا يجتمعان معا الا على مائدة الطعام الرئيسية فى حفل عيد رأس السنة •

وعندئذ كان ينحنى على يدها يقبلها كأنها زبونة طيبة من زبائن الفندق !

وأخيرا ، اختفت المرأة من الفندق ، ثم عرف هو بعد أسبوع انها هربت مع شاب وسيم كان يتردد على غرفتها أحيانا ولكنه لم يهتم حتى بالبحث عنها ، وذهب حمزة بك عبد المقصود يبحث عنها فى كل مكان ، ولم يمض شهر على فرارها حتى ماتت قتيلة ، صدمتها شجرة جميز عتيقة على جانب أحد الطرق الزراعية •

وهى الى جوار عشيقها الشاب فى سيارة كانت تنهب الطريق فى سرعة الريح ، ومات الشاب أيضا بعد أيام من الحادث فى مستشفى ريفى •

ولم يبد على الزوج أى انفعال حتى وهو يسير عارى الرأس خلف الجنازة ، وفى مساء نفس اليوم ظهر فى الفندق جم النشاط ، شديد السعادة ، وكان شيئا لم يحدث • ولكنه بعد أيام قليلة أصابه تغيير مفاجئ • فقد لزم حجرة زوجته ولم يغادرها أبدا ، وأحيانا كان خدم الفندق الذين خصصهم لخدمته يستمعون الى نحيبه فى الليل ، ثم أدمن الشراب بعد ذلك ، وكان يغنى بصوت

عال ، ثم يمزق ما يقع بين يديه ، ثم يرتعى على الفراش وصوته يشحط كأنه وابور جاز فاسد !

وعندما أصابه المرض رفض أن يستدعى طبيبا لعلاجـه ، وظل على عناده حتى مات . وفى اليوم الذى سبق وفاته استدعى قسيسا على عجل ، وارتدى أجمل ملابسه وهى ملابس أنيقة كان يستعملها فى مناسبات خاصة ، ثم نسيها بعد ذلك خلال بحثه الميت عن مزيد من المال .

وبعد أن أفضى باعترافه للقسيس ، طلب أن يجتمع بحمزة بك عبد المقصود لمدة دقائق ، ثم سمح لابنته ريتا بالدخول عليه ، وعندما وقفت الى جانب فراشه تطلع الى وجهها طويلا ، ثم أشار اليها فانحنى عليه ، وعندئذ أحاطها بذراعه وطبع على خدها قبله ثم أمر الجميع بالانصراف . وفى الصباح وجدوه ميتا وهو فى نفس ملابسه التى كان يرتديها بالامس .

وكان على ريتا وهى بنت العاشرة أن تكافح وحدها لتحفظ بالفندق ، ولكن الحسائر المتتالية التى منيت بها ابتلعت ثروة أبيها ، وأشرفت على الافلاس فعلا ، ولكنها رغم ذلك ظلت تكافح بلا هوادة حتى انقذت الفندق من الافلاس ، ثم استطاعت بعد ذلك أن تسترد ثروة أبيها ، وقالت بعد أن انتهت من سرد قصتها وهى تغمز لى بعينيهما ..

— البركة فى حمزة بك ، هوه الى وقف جنبى !

ولقد كنت أكره حمزة بك كراهية شديدة باعتباره غريمى ، وعندما استمعت الى قصة مدام ريتا ازدادت كراهية له . فعلاقته بها ليست مجرد مغامرة عاطفية مثيرة ، ولا هى نزوة ، وانما جذورها تضرب فى بطن الماضى الى غور بعيد . ليس هذا فحسب وانما هى علاقة شاملة كاملة ، فهو الذى أنقذها من الافلاس ،

وهو الذى استرد لها ثروة أبيها ، لولاه من يدري ، لعل مدام ريتا كانت تبيع المناذيل فى متجر شهير بالقاهرة ، لعلها كانت تعرض نفسها الآن تحت أعمدة النور فى شوارع روما الفسيحة ..

ولكن مسلك حمزة بك تجاهى خفف هذه الكراهية .. كان مسلكه طيبا للغاية وكان ودودا ومخلصا على نحو ما .

وقد تبدلت هذه الكراهية بعد ذلك فانقلبت الى عطف متبادل ، كان ذكيا ، وكان ذكاؤه من هذا النوع الهادى الذى لا يصدمك فجأة ، ولكنه يتسلل اليك فى رفق ، ثم يبهرك ويجبرك على الاعتراف به .

وعندما اقتحم غرفة مدام ريتا ذلك المساء وأنا معها توهمت أن فى الامر مؤامرة . وأن حمزة بك سيستغل المسألة ضدى ، ولكنه ورغم المرات العديدة التى التقينا فيها بعد ذلك لم يشرالى ذلك ولو من باب التلميح . بل كان حريصا دائما على ألا يذكر اسم مدام ريتا على الاطلاق . وبدأ لى خلال تعارفى به كأنه بشر عميق ، وانه يخفى فى صدره رصيда من الاسرار يكفى عشرة بنوك ، وأن انتزاع روحه أسهل من انتزاع سر من صدره ، والحق أقول اننى أحببته ، لم يكن هذا حمزة بك الذى رسمت صورته فى أذهنى عند أول لقاء ، لقد أصبح شيئا آخر !

والحق اننا نكره الناس بلا أسباب ، نحكم عليهم دون أن نعرفهم ، ونصدر هذه الاحكام غيايبا دون روية ، وتظل هذه الاحكام مقدسة لا تقبل نقضا وكأنها انزلت فى كتب مقدسة . والعجيب أننا نتشبهت بأحكامنا ضد الناس فى رعونة ، وذلك لأننا نقدر ذكاءنا تقديرا غير صحيح ونتوهم أننا نحن الملائكة ونحن غارقون الى آذاننا فى الخطيئة ، ان ادانة الناس نوع من حكم البراءة لنا ، والأغبياء يبالغون فى التحدث عن أنفسهم ، ولكن الحباش

هم الذين يهاجمون الآخرين ويحاولون تحطيمهم ، دون أن يشعروا
ولو من طرف خفى الى انفسهم، الايكفيكهم هدم الآخرين، ليبقوا
هم عمالقة فوق تل من جثثهم ..

كان شهر نوفمبر قد أوشك على الانتهاء ، والحالة فى المدينة
تزداد سوءا ، والمركة تتطور فى عنف شديد والانجليز يقطعون
الطريق على الناس ، ويطلقون النار بلا حساب ، وأفواج العمال
الذين هجروا العمل فى المعسكرات أخذوا يفدون الى المدينة ،
كلهم بلا نقود ، وبعضهم بلا ثياب ، وأسواق المدينة خلت من
الطعام ، والنقود شحت فى ايدي الناس وبالرغم من ذلك لم تنقطع
عادتى فى السهر مع مدام ريتا حتى الصباح ..

ونسيت حمودة فى غمار حياتى الجديدة ولم أعد أهتم به ، ولم
يعد هو يهتم بالسؤال عنى ، وكانت ثمة معارك شديدة نشبت
فى المدينة خلال تلك الايام ، فهاجم الناس كائتين النافى
وأحرقوه ، ودمروا مركز قيادة الطيران ، وأشعلوا النار فى مكتب
البوليس الحربى وأطلقوا النار على جماعات من جنود الانجليز
فقتلوا عددا منهم ، وكان من بين القتلى ضابط بريطانى كبير .
واضطرب الانجليز لمصرع هذا القائد الكبير فهاجموا المدينة
بالدبابات ومدافع الميدان ، وأطلقوا النار بلا حساب على جموع
الناس ، ودكوا بقنابلهم الثقيلة البيوت القديمة الآيلة للسقوط ،
وسقط المئات قتلى فى المركة وانتشر الجنود الانجليز فى المدينة
واحتلوا الشوارع الهامة ، وعزلوا أحياء المدينة بعضها عن البعض
الآخر بأسلاك شائكة ثم قرضوا حظر التجول فى الليل الا لمن
يحمل ترخيصا منهم بالمرور ، وران على المدينة شبح الموت ،
وخلت طرقاتها من الناس ، فأصبحت كأنها مدينة مهجورة

كل هذا الذى حدث ، ولم يظهر حمودة ولم أسمع باسمه ،
وذات مساء فوجئت بمن يطرق الباب بشدة ، وتوقعت شرا فلم

يكن مسموحاً لأحد بالمرور فى تلك الساعة من الليل الا للجنود
الانجليز ورجال الاسعاف ، والموظفين الذين تستدعى أعمالهم
السهر فى الخارج ! .. وعندما استفسرت من الطارق جاءنى
همس من خلف الباب ..

- افتح ..

ولم أتبين الصوت فى البداية ، ولكنه بعد أن كرر النداء
اكتشفت انه فتحى بدير !

ودخل فتحى بدير بقامته الطويلة الهزيلة ، ثم جلس على
المقعد ولزم الصمت . كان يبدو أنه يلهث ، وأنه قطع الطريق
جرياً بأقصى سرعة ، وأنه واجه أثناء رحلته الى الفندق متاعب
شديدة ، ولكنه عندما بدأ يتكلم نفى بشدة بأن شيئاً من هذا قد
حدث ، وقال وهو لا يزال يلهث :

- أصلى اتخاقت مع البواب بتاع اللوكاندة ..

- ليه ..

- ماكانش عاوز يفتح ..

- أmaal جيت ازاي ..

- جيت ماشى من عند البحيرة لحد هنا ، دا الجو بره جميل ،
الليلادى حلوة ..

الجو بره جميل ؟! هذا المجنون مستشار حمودة يأتى فى جوف
الليل الى فندقى والانجليز يحتلون المدينة ويطلقون النار لاهنا
ويبتغنى بجمال الليل ..

- طيب والعساكر الانجليز ؟ ..

- مالهم ؟

- ماحدش قابلك منهم ؟

- كثير ..

- ماحدش قالك حاجة ؟

- همه مالهم ومالى ..

ثم ضرب يده فى جيب بنطلونه الخلفى وانتزع ورقة نشرها
بالقرب من عيني ، وقال فى هدوء شديد :

- معايا تصريح ..

ودق قلبى للمفاجأة ، فتحى بدير مستشار كتيبة وحوش
الجبال معه تصريح بالمرور فى الليل ، انها ضربة معلم ، ولاشك،
وحيلة لم يستطع أن يظن اليها رجال المقاومة أيام الاحتلال
النازى فى باريس !

وخطفت التصريح من يد فتحى ودققت النظر فيه ، وتملكنى
الاعجاب ، فلقد كان متقنا الى درجة أن الانجليز أنفسهم
لا يستطيعون أن يكتشفوا انه مزيف .. وعندما أبدت دهشتى
لفتحى لبراعة الذى قام بتزييفه ، قال وهو يتناول التصريح
منى :

- وبين قال انه مزيف ؟ دا حقيقى .

- حقيقى !!

هتفت بها مشدها .. اذ كيف يحصل فتحى بدير على
تصريح حقيقى من الانجليز وأى حيلة شيطانية لجأ اليها ليحصل
على التصريح وباسمه الحقيقى ، وهو مستشار كتيبة حمودة ،
ولا بد ان مخابرات الانجليز تعلم كل شئ ، وقال فتحى وهو
يخلع جاكته :

- حمزة بك الى جاب التصريح ، كل واحد فى الكتيبة معاه
تصريح !

وانتفض جسمى كله كأنما أصابتنى رصاصة ، فها هو حمزة
بك مرة أخرى يقتحم الاحداث ويصيب نفسى بالاضطراب ..
انى لا أكاد أفهمه ، لقد أحبيته فعلا خلال الايام التى صادفته
فيها ، ولكن ها هو خبر جديد يمتد نحو حمزة بك كأنه أصبح

التهام قاس لا يرحم .. انه يوزع تصاريح المرور على كتيبة وحوش
الجبال ، وأفراد الكتيبة لابد انهم يتجولون الآن في المدينة وبحرية
كاملة ، والانجليز ليسوا من السذاجة بحيث يمنحون تصاريح
لمن يطلق عليهم الرصاص ، فأى مهمة يقوم بها رجال حمودة في
الليل بهذه التصاريح التي منحهم اياها الانجليز عن طريق حمزة
بك ..

وكانما قرأ فتحي بدير ما يدور في نفسي من شكوك فقال وهو
يملا لنفسه كأسا ..

- احنا اتفقنا مع حمزة بك يجيب التصاريح دى عشان نعرف
ننسف استحكامات الانجليز ؟

- ونسفتوا حاجه ؟ ..

- لسه ..

- وحمودة فين ؟

- راح بركة أبو جافوس ..

- ليه ؟

- معزوم هناك !

وعندما بدا الامتعاض على وجهي ، قال فتحي مستأنفا حديثه
على الفور ..

- فى الحقيقة أنا جى أشكيلك ..

- من ايه ؟

وشكا فتحي من حمودة . من تصرفاته فى الايام الاخيرة ، من
سلوكه مع أفراد الكتيبة . من تقاعسه عن القتال . من مغامراته مع
البنات الخواجات اللاتي يفدن الى عشه فى الليل ، ثم أبدى بأسه
من اصلاحه ، فحمودة لا يستمع الى النصيح ، وهو مندفع فى
الطريق الذى يسير فيه بكل قوة الى مالا نهاية ، ثم قال بعد أن
صمت قليلا :

- أنا هافتح كتيبة ثانية ..

ورنت فى أذنى كلمة « أفتح كتيبة ، كأنما فتحى بدير سيفته
محلا للبقالة ، ولكنى تجاهلت هذا المعنى وقلت أساله :
- ليه ؟

ورد فى أسف بالغ :

- مافيش فائدة ، حمودة مش ناوى يحارب ..

- طيب وعندك الرجالة ..

- موجودين .. بس لازم تحميننا ..

- أحميكم ، من ايه ؟

- من حمودة ، حمودة مش راح يسكت ..

- وحمودة ماله ومالكه ؟

- ماله ومالنا ازاي ، حمودة بيكسب ذهب م الكتيبة ،

النهاده بقى بتاع ألف جنيه شهرى ، دا عقبال أملتك بقى
ألفى ..

وأدركت عندئذ معنى « أفتح كتيبة » لابد أن فتحى سيفته
الكتيبة ليصبح «ألفى» هو الآخر مثل حمودة ، وبالطبع حمودة
لن يسكت على هذه المنافسة ، وفتحى بدير يطلب حمايتى !!
ودورى فى المعركة سيقصر على حماية فتحى لتتسع تجارته
وتبور تجارة حمودة ..

واذ أفرغ فتحى كأسه الثالث فى جوفه كان قد أصبح أكثر
استعدادا للحديث ، فقال وهو ينفجر من النبوة :

- مش كده بس ، داراح جاب مستشار تانى ، واحد كان
بيشغل فى الجيش الانجليزى وساب الشغل ، وطول النهار
والليل مع حمودة دلوقت ..

ثم هز رأسه ومصمص شففيه فى أسى شديد ، وقال وهو يخطب
كفا بكف :

- بقى دا معقول ، دا كان بياخد ميت جنية عند الانجليز ،
فيه حد يسيب ميت جنية ويشتغل فدائي ، بقى دا معقول ؟!
ثم توقف عن الحديث وخطف جاكته وارتابها على عجل ، وقال
وهو يهم بالانصراف ..
- عاوز أشوفك بكره . انت لازم تكون معنا فى الكتيبة
الجديدة ..

وفتح الباب ومضى . وفتحت النافذة وألقيت نظرة على
الشارع ، كان الظلام شديدا ، والرياح باردة ، والمدينة ساكنة
كأنها مقبرة هائلة ، ولم يلبث أن ظهر فتحي على الرصيف تحت
النافذة يخطو فى ثبات واطمئنان فى طريقه نحو التربة . ومن
بعيد كان يبدو كشك الحراسة الانجليزى عند نهاية الشارع ،
وضوء المصباح يشع من داخل الكشك ، وحارس واحد يروح
ويجىء أمام الكشك فى حركات منتظمة وروتينية ، كأنه أسد
حبس فى قفص . وأغلقت النافذة فى هدوء وعدت الى الفراش ،

الفصل السابع

كان يوما من تلك الايام الباردة الكثيبة ، حيث يبدو
السحاب أسود كالحا كأنه سقّف مشروح من الاسمنت لن يلبث
طويلا حتى يتهاوى فوق الرؤوس ٠٠ وكنت منذ الصباح
الباكر أوصل السير وحدى على شاطئ بحيرة التماسح فى
طريقى الى عش النسر لمقابلة حمودة ٠ وكان خبر انقسام الكتيبة
وخروج فتحى بدير على طاعة زعيمه قد انتشر فى المدينة ٠٠ فقد
حدث ما توقعه فتحى بدير ، فلم يكد حمودة يسمع بالنبا حتى
ثار بشدة وأقسم أن ينتقم ٠٠

وكان انتقامه سريعا وحاسما ، فلم تكد شمس ذلك اليوم
تختفى حتى قاد حمودة هجوما خاطفا على مقر الكتيبة المنافسة ،
حيث اختار فتحى لها معسكرا مهجورا على شاطئ بركة أبو
جاموس ٠٠

ولم يصمد فتحى طويلا أمام هجوم حمودة ، فلم يكن فتحى
خبيرا بالحرب ، ولم يكن قد اشترك فى أى نوع من أنواع

القتال ، وكان لسانه هو السلاح الوحيد الذى يجيد استخدامه ،
فما أن أحاط حمودة ورجاله بالمعسكر وأطلقوا النار فى الهواء
حتى انهار فتحى وبعث يفاوض حمودة فى الصلح . ولكن حمودة
رفض كل عروض الصلح التى عرضها فتحى . وأصر على أن
يتم التسليم فوراً وبلا قيد ولا شرط ، وأن يغادر فتحى
الاسماعيلية فى نفس الليلة الى القاهرة ..

ورغم قسوة الشروط التى وضعها حمودة للتسليم ، فقد
قبلها فتحى على الفور ، وخرج من المعسكر رافعا يديه فوق
رأسه ، ووقف حمودة يستعرض طابور المهزومين فى زهو
القائد الكبير ، واذ تسلم رجال حمودة أسلحة كتيبة فتحى ،
اكتشفوا أن أحد رجال فتحى لا يزال فى داخل المعسكر ومعه
سلاحه .. وعندما تقدم ثلاثة من رجال حمودة الى داخل المعسكر
لاستطلاع الامر ، فوجئوا بوابل من الرصاص ينهمر عليهم
كالطر : ودب الفرع والرعب فى صفوف كتيبة وحوش الجبال
.. وانتشروا حول المعسكر المهجور يطلقون النار فى كل اتجاه .

وكان الرجل الذى فى الداخل يدعى عبده ، ولم يكن أحد
يعرف اسمه بالكامل وكان قد جاء الى حمودة بعد الغاء المعاهدة
بأيام قاطعا ثلاثين كيلو مترا على قدميه من قريته على ضفة
القناة الغربية . وقضى الرجل أياما فى عش حمودة يتدرب فى

حماس ، ثم انطوى على نفسه عندما اكتشف أن حمودة ليس فى
نيته أن يخوض المعركة الناشبة فى القناة ، وعاش على مقربة
من عش حمودة يتجول بمفرده على شاطئ بحيرة التمساح ،
ويتجنب سهرات حمودة ورجاله . وعندما فاتحه فتحى فى
الانضمام اليه قبل العرض على الفور وحمل سلاحه واختفى فى
الصباح ليظهر فى معسكر فتحى على شاطئ بركة أبو جاموس .
وبالرغم من أن عبده كان يقاتل بمفرده داخل المعسكر الا أنه

استطاع أن يصمد نصف ساعة كاملة . وكان رجال حمودة الذين أصابهم الجنون قد أطلقوا خلال هذا الوقت القصير مئات الطلقات . ولما كان العسكر الذي تدور حوله المعركة لا يبعد عن معسكرات الانجليز ، فقد ظن هؤلاء أن هجوما رهيبا قد بدأه الفدائيون ضدهم . وعلى الفور انطلقت من داخل المعسكرات قوات هائلة لاعدد لها ، واتجهت هذه القوات على هيئة مروحة الى مكان المعركة ..

وقبل وصول الانجليز الى حيث يدور القتال بين عبده وجيش حمودة ، كانت المعركة قد انتهت . فقد أصابت عبده رصاصة طائشة في صدره فسقط على الفور ، ومات بعد أن أصاب ثلاثة من رجال حمودة بجراح خطيرة ..

وبينما كان حمودة ورجاله منهمكين في تضييد جراح المصابين ، وسحب جثة عبده الى الخارج ، فوجئوا بالانوار الكشافة تغمر الصحراء المحيطة بهم ، وبنيران قوية تحصده خمسة من رجال حمودة دفعة واحدة ..

وعندئذ خلع حمودة ملابسه وترك سلاحه والقى بنفسه في البركة وكذلك فعل بعض رجاله ، وتسلس البعض الآخر في اتجاه المقابر ، وعند الفجر كان حمودة قد وصل الى الشاطئ الآخر من البركة مجهدا منزوف الانفاس ، وقد أصابه برد شديد جعله يرتجف ، وهو يقف على الشاطئ عاريا تماما في انتظار من يحمله الى عش النسر ..

وفجأة بدا في غبش الفجر شبح يجرى على الطريق ، وعندما اقترب الشبح من حمودة اكتشف أنه فتحي بدير ، وكان فتحي قد أطلق ساقيه في اتجاه المقابر ، واختفى في مقبرة مهجورة حتى حانت فرصة مناسبة فانطلق من مخبئه في طريقه الى المدينة ..

وبعد دقائق كان فتحى وحمودة يسيران جنبا الى جنب فى اتجاه الاسماعيلية ، وقد ارتدى حمودة بعض ملابس فتحى سالكين طرقا مهجورة ، ومسالك وعرة ، مسرعين قدر الطاقة ليصلا الى المدينة قبل بزوغ اشمس ..

وبينما كان حمودة وفتحى يلهثان فى طريقهما نحو الاسماعيلية ، كان جيش الانجليز يعود الى المعسكرات وقد نجح فى احباط الهجوم ، وبدد شمل المهاجمين وقتل ستة وجرح ثلاثة وحقق نصرا مبينا فى أول معركة ضد الفدائيين !!

وتطورت الامور بعد ذلك بسرعة مذهلة . وخرجت الاسماعيلية كلها تشيع جنازة الشهداء الستة ، وسار حمودة فى صدر الجنازة والى جواره فتحى بدير وكبار الرسميين وحمزة بك عبد المقصود ، وكان فتحى وحمودة قد اتفقا على كتمان ما حدث بينهما تلك الليلة . ولفق فتحى قصة مجبوكة رويها لأهل المدينة ، وأكد فى قصته أن مائة على الأقل من جنود الانجليز قد ماتوا فى المعركة . ووافق حمودة مقابل هذا على اعادة فتحى الى منصبه القديم مستشار للكتيبة ! ..

وارتاع الانجليز لما حدث ، فخروج عدد من الرجال المسلحين الى الصحراء المحيطة بالمعسكرات أمر جديد فى المنطقة . وأيا كانت الاسباب التى من أجلها أطلق هؤلاء الرجال نيران مدافعهم تلك الليلة فالنتيجة بالنسبة للانجليز واحدة .. وثمة حقيقة رهيبية فى الموضوع لا يمكن أن يتجاهلها الانجليز ، وهى أن هناك رجالا مسلحين ، وانهم أطلقوا فى نصف ساعة مئات الطلقات ، صحيح أنهم أطلقوها فى الهواء ، ولكن من يدري غدا ، الى أين تنطلق هذه المدافع ! وأى شئ يمنع من اطلاق هذا الرصاص على معسكرات الانجليز ؟

ولقد بدأ واضحا فى الايام القليلة التى تلت المعركة أن

الانجيز فقدوا أعصابهم وأنهم عقدوا العزم على مواجهة الموقف بكل ما لديهم من قوة ، وهم يلتفتوا بعزل أحياء المدينة بعضها عن البعض الآخر ، بل عزلوا المدينة نفسها عن العالم كله ، ووقف صف طويل من الدبابات الضخمة يحرس مداخل المدينة ، وطوفت العربات المصفحة الصحراء الغربية ، وقامت نقاط التفتيش هنا وهناك ، وقام البوليس الحربى الانجليزى بعدة هجمات على أماكن متفرقة فى المدينة بحثا عن سلاح ، وحتى المقابر نبشوها ، وفى النهاية جردوا عساكر البوليس من أسلحتهم الصغيرة القديمة ، ثم راحوا يراقبون الأمور فى حذر شديد ..

عندما وصلت ذلك الصباح البارد الكثيب الى عش حمودة ، كانت الريح الشديدة تقرع السقف ، وتهز الأبواب والنوافذ ، والفضاء كله يصفر بشدة ، ويثرأزى مخيفا . واستقبلتنى المرأة البدنية فى الحوش ، وقد غطت رأسها بغطاء ممزق ، وارتدت ثوبا فضفاضاً ، وعقدت شعرها فى ضفيرة واحدة ألقت بها الى الخلف ، وبدت لى أكبر سناً ، وأقصر قاماً وأكثر بدانة مما تبدو فى العادة . ورسمت المرأة ابتسامة باهتة على شففتيها انتزعتهما بصعوبة ، ثم انسحبت الى الداخل لتوقظ حمودة ، ومضت عشر دقائق قبل أن يظهر حمودة خارجاً من غرفته فى جلباب أزرق ، منكوش الشعر مغمض العينين ، حافى القدم ، وشعر لحيته نابت ، فبدأ كأنه مجنون هارب لتوه من مستشفى المجاذيب !

وقال وهو يجلس الى جوارى ويشعل لنفسه سيجارة :
- مرحب ..

ثم أردف بعد فترة صمت :
- خير انشاء الله ، جى بدرى يعنى .

- جى أشوفك ..

وقال حمودة بعد أن جذب أنفاسا عميقة من سيجارته

- انت معذور الى ما بتسألش ، الله يكون فى عونك ..
ثم ضربنى براحة يده على فخذى ، وقال وهو يغمر بعينه
- مدمم ريتا شاغلاك يا عم ..

وتجاهلت مزاحه السخيف وقلت فى جد بالغ :

- كويس الى حصل ده يا حمودة ..
ومال بنصه الأعلى نحوى ، وقذف بالسيجارة انتى فى يده
على الارض ، وقال فى غير مبالاة :
- ايه الى حصل ؟ حصل كل خير ..
- عاجبك ! الناس الى ماتت بكش دى ..

-- الاعمار بيد الله ، ما حدش بيموت ناقص عمر ، الواحد
بيموت لما ينتهى أجله !

وبدا انه غير آسف على شىء مما حدث ولا هو نادم على
الارواح التى أزهدت بلا ثمن . وأن الامر كله لا يعدو حادثا
عابرا فى حياته ، وكل شىء على مايرام مادام هو صحيحا معافى
لم يمسه ضرر ..

وهممت بالانصراف فقد أخذ اليأس يتسلل الى قلبى من
اصلاح حمودة ، واستأذنت فعلا فى الانصراف ولكنه رفض
بشدة ، واقسم بالطلاق أننى لن أغادر العش قبل أن أشاركه
طعام الافطار ..

وعندما انتهينا من الافطار ، جلس حمودة على الارض أمامى
يرتشف كوب الشاى فى لذة فائقة ، وفجأة وضع كوب الشاى
جانبا ، وقال فى عصبية شديدة :

- انت زعلان منى ، طيب وأنا مالى : ما هو فتحى السبب ،

نبقى واكدين عيتس وملح سوا ، وبعدين بخونى ، يخون العيش والملح ؟!

ووجدت الفرصة سانحة فهاجمت موقفه من المعركة ، واستغلاله للكتيبة فى أمور أخرى لا شأن لها بالمعركة ، وفندت موقف فتحى والرجال الذين ثاروا معه على حمودة وانتهيت الى نتيجة واحدة ، هى أن فتحى لم يرتكب أى لون من ألوان الخيانة بموقفه الأخير ، وأنه كان يهدف الى شىء واحد هو قتال الانجليز !

وضحك حمودة ضحكة صفراء ، ثم نظر نحوى طويلا ثم هز رأسه فى حسرة شديدة قبل أن يقول ..
- تصدق بالله ، دا فتحى ما يقدر يحارب قطه ، دا يخاف من خياله ، الحكاية مش كده ياسيدنا لفندى !
وراح حمودة يشرح الأمر من وجهة نظره ، وكان صريحا الى أقصى حد ..

• - دا بيشتغل مستشار للكتيبة وياخد ثلاثين جنيه وعمرى ما استشترته فى حاجة .. مش عاجبه ، عاوزينهب ، عاوزالنص .. على ايه ؟ مش عارف ؟ عاوز يشاركنى ، قتلته احمد ربنا واهمد ، مارضييش راح مسلط العيال ضدى .. عاوز يخنقنى ، يعنى أسيبه ، وبعدين تقوللى يحارب الانجليز طيب المدافع أهه ، والرجال أهه ، خليه يحارب الانجليز !

وعندما سألته عما اذا كان للكتيبة موارد ثابتة ، أجابنى وهو مطرق نحو الارض :
- أهو ربنا بيرزقنا بحسنة من هنا والا من هنا ، مش حرب آمال صحفى ايه ؟ ..

ثم ضحك ضحكة صافية ومن الاعماق ، وأمسك بكتفى وهزنى فى عنف ، وقال وهو يضحك :

- وشك منور اليومين دول ، مدام زيتا واخدة بالها منك
قوى ..

ولما لم تبد منى أى استجابة لمزاحه ، قال فى استنكار :
- انت مالك مكبوس كده ليه ، هوه ايه انلى حصل ، دا
العيال اللي ماتوا ، مايسووش تلاته مليم ، وادى احنا عملنالكو
هزة فى البلد ، دا انت كتبت صفحة بحالها ، مش تحمد
ربنا ..

ثم نهض من مكانه فجأة ، وجرى نحو الشاطئ ، وراح
يزعق بصوت كالبومة على رجل يصطاد داخل البحيرة فى قارب
صغير .. ثم عاد عندما أجابه الرجل على صراخه بالتلويح
بيده ، وقال وهو يجلس فى مكانه :

- الله يرحمه بقى الواد عبده ، ماكانش فيهم راجل غيره ..
والحق أن حمودة لم يستطع أن ينزع من نفسه ذكرى هذا
الرجل .. عبده . كان شبحه يتراعى دائما أمام عينيه . وكان
لا يفتأ يردد اسمه بمناسبة وبغير مناسبة ، وكان أكثر ما يحز
فى نفسه انه هو الذى قتله وليس الانجليز ..

- تعرف بس ياسى حلمى لو كان الانجليز همه الى قتلوه ،
ماكانش همى انما العيال بتوعنا همه الى قتلوه ..

وحرص حمودة على تأدية الصلاة فى مواعيدها . وكان
يستغرق وقتا طويلا فى الدعاء عقب كل صلاة . ولكنه لم يلبث
أن هجر الصلاة ، ثم طرد المقرئ ، وعاد حمودة الى سابق عهده ،
وضعت الروابط بينه وبين فتحي مرة أخرى ، فلم يعودوا يلتقيان
واكتفى فتحي بلقبه فى الكتيبة . وبالجنهات الثلاثين التى يسلمها
له حمودة أول كل شهر ، ولكن فتحي الذى تعود الثروة لم
يستطع أن يكتم حقيقة الامر الذى حدث بينه وبين حمودة تلك
الليلة فى الصحراء .. ولم تلبث المسألة أن ذاعت وشاعت بكل
تفاصيلها .. وأصبحت حديث المدينة ..

وخاف فتحي عاقبة هذا الامر فانقطع تماما عن الذهاب الى
عش حمودة ولكنه لم ينس أبدا أن يرسل رسولا أول كل شهر
الى حمودة ليتسلم نصيبه ..

ودار همس على شاطئ البحر أن حمودة سيقتل فتحي ،
وانه يتربص به حتى تحين فرصة مناسبة للتخلص منه ، وعندما
ماتحت حمودة في هذا الامر ونحن نجلس معا داخل العش ذات
مساء ، قال في هدوء ..

— الحجر الداير لابد عن لظه ، وده عايز عمال على بطل ..

وعندما أوضحت لحمودة خطورة هذا العمل ، والفضيحة التي
ستحدث اذا سولت له نفسه قتل فتحي ، قال في غير مبالاة :

— وأنا مالى وماله ، هوه أنا بس الى زعلان منه ، دا العالم
كلها مضايقة منه .. مين عارف ، يمكن حد م العيال الى متغاضين
منه يموته ..

كانت علاقتى بمدام ريتا قد أخذت تتدهور خلال الايام الاخيرة
فقد انشغلت عنها بالاحداث الرهيبة التي اجتاحت المنطقة ، وكنا
نلتقى أحيانا ولمدة قصيرة وكانت تحرص دائما على سؤالى عن
تطورات الموقف ، وكنت أفرغ لها مافى جعبتى من أنباء ،
وتكهناتى حول المستقبل وكانت تبدو سعيدة كطفلة لان الامور
لم تتطور الى أسوأ ..

وذات مساء قالت لى فى حديث خاطف بيننا :

— أنا عاوزه أبيع اللوكاندة ..

— ليه ؟

— أنا خايفه ..

— خايفة من ايه ؟

وقالت وفى صوتها رعشة غريبة .

— مش عارفه . انما خايفة .

ونصحتها بالابتعاد عن المدينة بعض الوقت حتى تريح أعصابها
من جو التوتر الذى يخيم على المنطقة .
وردت على اقتراحى بسؤال ألقته فى دلال :
- وتقدر تبعد عنى ..
- أبقى أزورك ..
وقالت وهى تغلق عينيها :
- صحيح ؟
وقلت وأنا أناهب للانصراف :
- صحيح ..

و ذات صباح مطير استيقظت على صوت مدام ريتا تحدثنى
من حجرتها فى التليفون
وقالت وهى تتثأب :
- اطلع عندى ..
ولما استفسرت منها عن سبب هذه الدعوة المفاجئة فى هذا
الوقت المبكر من الصباح ، قالت فى اصرار :
- عاوزاك ضرورى ..

وارتديت ملابسى على عجل وصعدت الى غرفة ريتا . وكانت
لاتزال فى قميص النوم ، وبدأت أشد فتنة وأكثر جمالا رغم
رائحة النوم التى تفوح منها . وبدأ وجهها الذى لم يلمسه الماء
بعد كانه حبة تين ناضجة !
وقالت المدام وهى لاتزال تتقلب فى فراشها الوثير :
- أنا مسافرة بعد ساعة ..
- على فىن ..
- رايحة العزبة بتاعتى فى المحسمة

وشعرت بالغيظ لانها أقلقتنى من نومى وسحبتنى من بوزى
الى غرفتها لتخبرنى أنها راحلة بعد ساعة !! لماذا استدعتنى الى

غرفتھا اذن ، وكان بوسعھا أن تخبرنى بالنبا فى التليفون !
وقلت فى فتور :

- تروحي وترجعى بالسلامة ..

وقالت مدام ريتا وهى تنهض من الفراش ..

- انت حاتروح معايا ..

- أنا ؟

هتفت بها فى دهشة بالغة ، فكيف أذهب أنا مع مدام ريتا
الى عزبتها فى المحسمة ؟

وكيف أترك المدينة فى هذا الوقت بالذات ، ومن الذى يتولى
تزويد جريدتى فى القاهرة بأنباء الموقف فى المنطقة ؟
وعندما شرحت لها مايجول بخاطرى قالت فى هدوء :

- عندى تليفون فى العزبة ، اتصل كل يوم بجميزة بك ،
وأعرف الاخبار منه ، وبعدين اتصل بالجريدة .

وعندما أخذت أفكر فى الامر ، قالت على الفور :

- انت لازم تروح معايا ، أنا خايفة أقعد هناك لوحدى ..

وعندما سألتها عن المدة التى يمكن أن تقضيها فى العزبة ..
قالت وهى تدخل الى الحمام ..

- كام يوم ، مش هنغيب هناك .

عندما وصلت بنا السيارة الى قصر مدام ريتا الذى يقع وسط
حقول الفول السودانى كانت السماء لاتزال تمطر كأنها نهر
عريض فى السماء قد فاض فجأة على الارض .

وكان القصر يقوم على ربوة تتوسط الحقول . تحيط به أشجار
التين والبرتقال ، وخلف القصر كان يمتد صف طويل من شجر
المانجو وينحدر مع الربوة حتى الحقول التى تتراعى الى نهاية
الأفق .

واستقبلنا عند الباب رجل عجوز وثلاثة كلاب ضخمة راحت
تنبح وهى تقفز حول ريتا فى سرور بالغ ، وانطلقت مدام ريتا

وحولها الكلاب الثلاثة تتفقد حجرات القصر كلها ، وعندما انتهت
من هذه المهمة طلبت من الخادم العجوز أن يحضر لها بعض الطيور
من العزبة المجاورة . وكان التعب قد استبد بى فخلعت ملابسى
وألقيت بنفسى على أول فراش صادفنى . وعندما استيقظت من
نومى ، كان المطر قد توقف ، ورائحة طعام لذيذ تملأ الجو .

الفصل الثامن

وارتديت ملابسى ورحت أبحث عن مدام ريتا ، حتى عثرت عليها فى المطبخ وقد انهمكت وحدها فى اعداد الطعام • وعندما عرضت عليها مساعدتى رفضت بشدة وقالت وهى تضحك - ألد أكلة كلتها ايه فى حياتك ؟

قلت وأنا أبلغ ريقى ، وقد سرح عقلى محاولا أن أتذكر ألد أكلة فى حياتى • وابتسمت عندما تذكرتها ، فقد كانت ألد أكلة فى حياتى منذ خمسة عشر عاما وكنت صبيا صغيرا عندما ذهبت الى الريف لأقضى أجازتى الصيفية مع جدتى العجوز ••

وكانت المرأة الطيبة تحبنى الى درجة الجنون • وكان عندها أرنب كبير تعتز به كثيرا •• ولكنها اكراما لحاطرى ذبحته وأعدته على طبخة ملوخية ، أصرت هى على أن تحضرها بنفسها من الحقل الذى كان يبعد مسافة ربع ساعة على القدمين من بيتها • ولما كانت المرأة العجوز الطيبة تعمل وحدها فى البيت فقد تأخرت فى اعداد الطعام • وجلست وحدى على المصطبة أمام البيت أتلوى من الجوع فى انتظار الملوخية بالارانب •

وفجأة • والمغرب يزحف على الفرية ، والظلام يطبق عليها
رويدا رويدا ، ونسمة هواء طرية بدأت تهب من حقول القمح
الحالية ، امتلا الجو برائحة الملوخية وهي تمتزج بالتقليية على
النار المشتعلة •• ونفذت الرائحة الى خياشيمي فشعرت بلذة
فائقة مصحوبة بدوار • ولم أشعر فى حياتى بلذة كذلك التى
شعرت بها وأنا ألتهم الطعام مع جدتى فى المساء على المصطبة
خارج الدار ••

وقلت لمدام ريتا وشبح الابتسامة لايزال يلوح على شفتى :
- ألد أكلة كلتها عند ستى ••

ولوت مدام ريتا عنقها نحوى • وقالت فى استنكار :
- انت كنت خدام ؟

وقلت مندهشا وقد ناجأنى السؤال :

- خدام ؟ خدام ايه ؟

- أمال ازاي كنت عند ستك ؟

وضحكت رغما عنى • ولا أدري لماذا ضحكت فى عنف ،
فأحيانا أنسى أن مدام ريتا خوجاية وانه يتحتم على أن أسلك
معها سلوكا يتفق مع طبيعتها ، وقلت أشرح لها الامر ••
- قصدى جدتى ، يعنى ماما بتاع ماما ••

وضحكت مدام ريتا حتى كادت تقع على الارض ، ثم قالت بعد
أن هدأت :

- انت هتاكل عندى زى ستك ••

ونهضت من مكانى وأمسكت بيدها ورحت أقبلها فى شغف ،
ثم قلت وأنا ألثم كتفها العارية :

- انت أحسن من ستى ، انت ستى بصحيح ، أنا خدام ••
وقالت مدام ريتا :

- خدام ..

قلت :

- نعم ..

- تعالى ناكل ..

وأكلنا ، والحق أن الطعام كان لذيذا رغم أنه ماسخ ، فلم تكن ريتا على دراية بفن الطبخ ، ولكنها رأت أن اعداده بنفسها نوع من التكريم لى ، وخفت أن تواصل تكريمى فى الايام القادمة فسألتها فى اشفاق :

- ما فيش طباخين هنا ..

وقالت وهى تمد يدها تحشو فمى بالطعام

- فيه ، بس أنا هاطبخ عشان خاطرك ..

وكدت أهتف .. عشان خاطرى بلاش .. ولكنى كتمت الكلمات فى صدرى ، فقد خفت أن تغضب لهذا اللون من المزاح ..

كنا قد تجولنا فى حقول الفول السودانى قبل أن نعود الى القصر فى المساء ، وقد استبد بنا التعب ، وبدأ عليها الارهاق الشديد . وصعدت مدام ريتا الى غرفة نومها ، ودست نفسها فى الفراش ، بينما جلست أنا على مقعد بالقرب منها أحتسى أقداح الوسكى وأحكى لها ماحدث بين حمودة وفتحي من خلاف . وفجأة قالت مدام ريتا وهى تغطى وجهها باللحاف :

- قوم نام ..

ونهضت على الفور ، وانحنيت عليها فقبلتها فى جبينها ثم استدرت خارجا من الحجرة ، وقبل أن أخطو الى الخارج ، هتفت مدام ريتا من خلفى :

- رايح فين ؟

- أنا ..

— هتنام فين ، مفيش حنة تنام فيها غير هنا •
وانكمشت فى جانب السرير ، وأفسحت لى مكانا الى
جوارها •

مضت الايام الثلاثة الاولى فى قصر مدام ريتا الريفى فى هدوء ،
وفتحت لى هذه الرحلة نافذة ضخمة على حياة لم أكن أعرفها من
قبل ، وكنت فى الاوقات التى تغيب فيها مدام ريتا عن القصر
أتخيل نفسى هارون الرشيد بعث مرة أخرى من القبر • وكنت
اذ أنفرد بنفسى فى القصر الفاخر الكبير لا أستطيع أن أمنع نفسى
من ارتكاب أعمال هى غاية فى الجنون والحمق ، كنت أشق قلب
على السرير ، وأنقى بنفسى فوق المقاعد الوثيرة لأجد نفسى مرة
أخرى قافزا فى الهواء • ولقد حرصت فى اليوم الاول على نادبة
مهمتى الصحفية على خير وجه ، اتصلت فى المساء بحمزة بك
عبد المقصود ، وأفرغ الرجل لى ما فى جعبته من أخبار ، ونمت
فى ذلك المساء وقد زودت جريدتى بأخبار المعركة • وفعلت
نفس الشئ فى اليوم التالى ولكن بلا اهتمام ، وفى اليوم الثالث
لم أهتم بالاتصال بحمزة بك فى الاسماعيلية • وفى اليوم الرابع
نسيت المعركة تماما ، بل اننى سئمت انعمل كله ، واكتفيت
بالنوم والاكل والتحديث من خلف زجاج النافذة لى المطر المنهمر
على حقول القبول • واكتشفت أنه ليس هناك ألد من الصياغة ،
وبشرط أن تكون الصياغة مسنودة برصيد فى البنك وتصرف الريف
وتحسرت على أيامى التى أكلتها مهنة الصحافة ، واكتشفت أن
اللذة التى كنت أشعر بها فى العمل لم تكن الاوهما ، واننا نتوهم
لذة العمل نتيجة العادة ، تماما كعادة تدخين السجاير ، غير أن
اللذة الحقيقية يشعر بها المدخن بعد أن يقلع عن هذه العادة •

ولقد أحسست فى نهاية الاسبوع بأننى قد أقلعت فعلا عن
عادة العمل ، وشعرت ببشاعة الطاحونة التى كنت مربوطا اليها ،
فى الوقت الذى يوجد فيه مئات على ظهر هذا الكوكب يعيشون

هذه الحياة اللذيذة • ويتفرجون على أصحاب المهن كما يتفرج
الأطفال على النسانيس فى حديقة الحيوان •

ولقد كان من الممكن أن تستمر هذه الحياة الى وقت طويل ،
لولا أننى مخلوق من نوع عجيب ، وأغلب ظنى أننى شخصان
لا شخص واحد • وان هذين الشخصين متنافران الى أقصى حدود
التنافر ، متخاصمان أشد ما يكون التخاصم • ويبدو أن أحدهما
مولود قبل الآخر ، وان كلا منهما قد عاش فى بيئة تختلف تمام
الاختلاف عن البيئة التى عاش فيها الآخر ، بل انى أشعر أحيانا
كثيرة بأن أحدهما يحتقر الآخر ويحمل له نظرة رثاء !

وذات مساء دق جرس التليفون ، وكان حمزة بك يتكلم من
الاسماعيلية ، وقال فى صوت مرتجف :

— عرفت ؟

— ايه ؟

— معركة حصلت دلوقت جنب المعسكر ••

— أنا سمعت النار من هنا ••

— نار ايه يا أستاذ •• دى مجزرة ••

— ايه اللي حصل ؟

— حاجة تشيب •• ميت قتيل وأكثر فى المعركة دى ••••

الترعة كلها جثث •

— جثث مين ؟ الآهالى ؟

— لا ، انجليز ••

وضاع صوت حمزة بك بعد ذلك ، وضاعت أيضا كل
المحاولات التى بذلتها للاتصال به ، وقطعت الوقت واقفا على
أعصابى أنتظر رنين التليفون الذى مات فجأة ••

ما الذى حدث هناك ؟ هل هى الحرب فعلا كما قال الضابط
الانجليزى الشاب ؟ والجثث التى استقرت فى قاع الترعة ، هل
هى جثث انجليز كما ادعى حمزة بك ؟ ومن الذى خاض المعركة

هذه المرة .. حمودة ورجاله ؟ أم فتحي بدير ورجال حمودة ؟
أم عساكر البوليس ؟

وقررت أن أبقى ساهرا حتى الصباح لاذهب مع أول خيوط
الفجر الى الاسماعيلية ، وفتحت النافذة ووقفت أدخن فى قلق ،
وألقيت نظرة على خيمة الضابط الانجليزى ولكنى لم أستطع
أن أتبين شيئا ، كان الظلام شديدا ، ولا شئ غير النخيل والحقول
الى مرمى البصر ..

وفجأة ، رن جرس التليفون ، واختطفت الساعة فى لهفة
كأننى عثرت على كنز ، وكان حمزة بك هو المتحدث ... وقال
بنفس الصوت المرتجف أن الانجليز احتلوا المدينة ، احتلوا
حتى حجرات البيوت واسطح المنازل ، وانهم قرروا تجفيف
الترعة لانتشال الجثث ، وأن العمل قد بدأ فعلا فى تجفيف
الترعة ، وعندما يأتى الصباح ستكون ترعة الاسماعيلية مجرد
مقبرة من الطين لعشرات من الجثث ..
وهمست فى التليفون أسأله :

- انت متأكد أن الى ماتوا انجليز !

- تعالى الصبح شوف بعينيك ..

- ومين الى عملها ؟ .. حمودة ؟

- مش باين ..

- البوليس ؟

- مش عارف ..

- يظهر الكتيبة الجديدة ..

- انت متأكد ..

لا ..

ثم ضاع صوت حمزة بك .. ومات التليفون مرة أخرى ،
وهرولت مسرعا الى مدام ريتا وأيقظتها من النوم ، وقالت وهى
تغالب النوم :

- انت مسافر امتى ؟

- دلوقت ..

- على طول ؟

- أيوه ..

- طيب حضر شنطتى ..

عندما دخلت الاسماعيليه مع الفجر كانت تختلف عن
الاسماعيليه التى رأيتها من قبل ، مئات الجنود المسلحين فى كل
ركن ، ودبابات ضخمة تسد الطريق ، وآلات تتحرك على حرف
الترعة .. وكشافات نور قوية تعمى العيون ، تتحرك لاهثة
فى بطن الترعة بحثا عن الجثث المفقودة ، وكانوا كلما عثروا على
جثة حملوها على الفور فى سيارة لتسرع بها بعيدا عن العيون .
ووقفت ملطوعا عن جانب الطريق الى جانب مدام ريتا فى
انتظار التفتيش .. ورحت أزفر من الضيق ، وأقرض أسناني
كالفأر المحبوس ..

وابتسمت مدام ريتا وهى تنظر نحوى وقالت فى دلال كأنها
تتفرج على معرض :

- زعلان ليه ؟ مش منظر لطيف ..

وقلت فى ضجر شديد :

- أنا عاوز أدخل الاسماعيليه بأى طريقة ..

وقالت وهى تبتسم فى خبث :

- والى يدخلك الاسماعيليه دلوقت ..

- مين هو ده ؟

- أنا !!

- انت يظهر عليكى قايقه ..

- باتكلم جد ..

واذ كان الموقف لايسمح بالهزار السخيف قلت لها فى
ضيق :

- طيب مستنية ايه ؟

ومدت يدها فضغطت على يدي برفق .. وتحركت نحو ضابط انجليزى عجوز كان يقف على حرف التربة ، وبعد لحظات جاءت ومعها انضابط ، ثم أشارت نحوى ، ونظر الضابط طويلا الى وجهى ثم انصرف ، وعاد معه ضابط آخر أصغر منه فى السن والترتبة ، وبعد حديث خاطف بين الضابط ومدام ريتا سمحوا لنا بالمرور ..

وعند الكوبرى شكرت مدام ريتا وودعتها ، وانحرفت ناحية البحيرة ، وطرقت عش النسر بعنف شديد ، ورحت أصرخ على حمودة حتى جاءنى صوته من الداخل ، وعندما فتح لى كان مغلق العينين لا يكاد يرى تحت قدميه ، منفوخ الوجه كأنه نائم متدغم ، وقلت له قبل أن نستقر جلوسا على الأرض :

- ايه الى حصل دا يا حمودة ؟

وقال وهو يهرش فى شعر رأسه :

- انت عرفت ؟

- دا البلد مقلوبة خالص ..

وقال وهو يتثائب :

- سى فتحى ياسيدى الى عملها ..

قلت مشدوها ..

- فتحى ؟ متأكد ؟

- طبعا ، عشان كنت بتقول دا طيب .. وابن حلال .. اتفرج

بقى يا سيدى ..

- وعملها ازاي ؟

- عرف امبارح ان أنا غايب عن الاسماعيلية راح عاملها ..

جبان !!

- جبان ليه بقى ! دا يستاهل بوسة ..

وحدجنى حمودة بنظرة قاسية .. وقال فى حدة ...

- أنا وراه والزمن طويل ..

وخيل الى أن حمودة نائر لان فتحى سبقه وانتزع البطولة

لنفسه ، ومعركة مثل هذه سترفع أسهم فتحى وتقصم ظهر حمودة وقد تفضى عليه ، فقلت محاولاً تهديته ..

- الفرص كثير يا حمودة ، خليك ابن بلد آمال ..
وقال حمودة تائراً ..

- يعنى عشان أبقى ابن بلد ، ياخذ الولية منى وأسكت ..
وصدمتنى كلمة ولية ، فنظرت نحو حمودة أحاول أن أتبين ما يقصده ، وعندما عجزت عن ذلك ، قلت له فى اهتمام :
- ولية ايه ؟

- الولية !! آمال انت بتتكلم عن ايه ؟ سى فتحى بتاعك جه
امبارح خدها وهرب ..
- الولية مين !

- الولية الى كانت هنا ، دى ثابت على ايدى أنا ، وقاعدة
عندى أنا ، وبتاعتى أنا ، يقوم حتة ولد زى ده ...
وتعشرت الكلمات على شفتى حمودة ، ثم قال وهو يهدد :

- طيب أنا لازم أجيب خبره ان شاء الله ..
كان واضحاً أن حمودة لم يعلم بنبأ المعركة ، وأن الطلقات
التي كانت تسمع على بعد عشرات الكيلومترات لم تنجح فى
إيقاظ حمودة من نومه الثقيل بعد قعدة حشيش على حرف
البحيرة ..

وعندما استأذنت فى الانصراف نهض حمودة يودعنى حتى
الباب ، وعندما مددت يدي أصفحه ، قال وهو يهزنى فى
عنف :

- الجو كويس !

- الحمد لله ..

- مفيش أخبار جديدة ؟

- لا أبدا ..

ثم قال وهو يغلق الباب :

- الله يجازيك ، صحتنى من أحلى نومة ..

ثم سعل بشدة قبل أن يدخل الى عش النسر لينام !!

الفصل التاسع

عندما دخلت في الفراش لاناام كانت الشمس تتوسط الافق ،
وكان التعب قد هد جسمي تماما بعد ليلة الامس المثيرة وكنت
قد فرغت لتوى من اعداد رسالتى عن المعركة وبعثت بها الى
جريدتى فى قطار الظهر ..

وشعرت وأنا أستسلم لسيلطان النوم بالغيف ينهش قلبى
من موقف حمودة ، وعصف بى أعصار هائل من الغضب النزاع
الى الانتقام ، واستبد بى شوق طاغ الى كشف حمودة وصب
الاهانات على رأسه ..

وهاهى الظروف تسمح أخيرا بالسخرية من حمودة والهزء
به .. ولا بد من اذاعة نبأ النصر على الناس مقرونا باسم صاحبه
.. ولكن أين صاحبه .. ومن هو صاحبه ؟ والامور تتطور هنا
الى أحسن ولكن فى جو من الغموض ..
لقد كان ثمة هاجس يهتف فى نفسى أن عساكر البوليس هم
الذين صنعوا المعجزة ، ولكن اللواء زكى مراد أكد لى عندما

تحدثت اليه فى الصباح أن عساكر البوليس تدخلوا فعلا
ولكن فى اللحظة الاخيرة . وقال لى وهو يضحك فى سرور . .
- لازم الجدع صاحبك الى كان بيزعق فى اللوكاندة . .

وكان اللواء زكى مراد يقصد حمودة ، عندما رآه تلك
الليلة فى فندق بالاس وهو يهدد الحكومة بالحرب اذا لم تسمح
له بسرقة البنك قبل أن يذهب الى الجبل . .

ولم أعقب على حديث اللواء ، ووضعت سماعة التليفون ،
وسردت أنباء المعركة كما حدثت ، وخصصت فصلا كاملا لدور
عساكر البوليس فى المعركة ، وحرصت على أن تؤكد أنهم
اشتركوا فى المعركة قبيل النهاية ، وحرصت أكثر على أن أبين
لقراء الجريدة أن الذين اقتحموا معركة الامس صنف جديد من
الرجال لم يسبق له أن اشترك فى معركة القناة من قبل ،
واكتفيت بهذا الغمز ، وقررت أن أكشف كل شيء بوضوح
عندما أعثر على الابطال الذين صنعوا المعجزة ليلة الامس . .

وعندما أفقت من نومي كانت الشمس قد مالت للمغرب ،
ورنين التليفون يعربد فى جو الحجرة الهادئ ، وكان المتحدث
هو حمزة بك عبد المقصود يدعونى الى الحضور الى مكتبه بسرعة
وقال وهو يضع سماعة التليفون :

- عندى لك مفاجأة تهز الدنيا . .

ولم أكن أتوقع أن يكون مكتب حمزة بك عبد المقصود مزدحما
الى هذا الحد ، واستطعت أن أستنتج كل شيء من النظرة
الاولى . .

فقد كان حمودة جالسا على مقعد مريح فى صدر المكتب وحوله
عشرات من الناس يستمعون اليه فى صمت ، بينما وقف عدد
من مراسلى الصحف يلتقطون لحمودة صورا فى مختلف الاوضاع .
وعندما رآنى حمودة كف عن الكلام وهب واقفا يستقبلنى
بابتسامة عريضة ، وبنظرات ثابتة من عينيه اللتين فى لون

العسل المخلوط بالطحينة ..

واذ هب حمودة واقفا ، قفز الجميع وقوفا فى احترام مبالغ فيه ، وقدمنى حمودة للجمع المحتشد فى المكتب :

— أجدع راجل فى الكنال • راجل نمس ، قلبه ميت زى الحديد ..

كان واضحا أن حمودة يريد أن يكسبنى الى صفه ، ولم يكن يبدو عليه أدنى شعور بالحجل ، كأنما هذا الرجل الغريب قد نجح فى التخلص نهائيا من هذه الصفة الانسانية البسيطة التى لاتليق برجل فى مركز حمودة !

وعندما عدنا الى الجلوس نظر نحوى نظرة فاحصة ، وقال وهو يلحق شفتيه بلسانه :

— انما انت كلتها ياسى حلمى النهارده الصبح ..

ثم وجه الحديث الى الجمع المحتشد وقال فى فخر شديد :

— سى حلمى جه عندى الصبح عشان يعرف أخبار المعركة ،

كنت أنا تعبان ، وزعته ، عملت نفسى ماعرفش حاجة ..

وضحك ضحكة شيطانية خلت أنها صادرة من سقف

حنكه ، ثم وضع قناع الاهمية الزائف على وجهه وراح يحكى

للناس تفاصيل المعركة الرهيبة :

— تعرفوا من غير مؤاخذة ، بقيت نايم على حرف التربة

والدبابات تقوت من فوق منى •

وقاطعه واحد من الجالسين هب واقفا فى حركة هسترية وقال.

وهو يضفق بيديه من شدة النشوة :

— ياسلام يامعلم حمودة ، ألف سلامة ..

وقال حمودة وهو يمصمص بشفتيه :

— لوماربنا ستر ، كان الواحد راح فطيس ..

وصمت حمودة قليلا ثم قال فجأة :

— انما ، واللى خلق الخلق ماشعرت بالخوف ..

وأشعلت كلماته الاخيرة النار فى قلب الرجل النحيل الطويل الذى كان يجلس قبالة • والذى كان شديد الإعجاب بحموده ، فهب واقفا مرة أخرى وقال :

— سلامتك يا أبو قلب حديد يا معلم حمودة ، ألف سلامة • •
ولكن حمودة لم يلبث أن ألقى بقبيلة بددت هذا الشعور عندما قال فجأة :

— أنا صحيح خفت مرة واحدة •
وران الصمت على الناس ، وانحنى بعضهم أكثر نحو الارض وزحف بعضهم أكثر نحو حمودة ، واستأنف حمودة حديثه بصوت أشد هدوءا وأكثر عمقا عن ذى قبل •

— تعرفوا خفت امتى ؟ لما بصيت لقيت واحد اسكتلندى يعرفنى هاجم بالدبابة على ، فضل يهجم لما بقى بينى وبينه من غير مؤاخذه شبر • الغرض ، بصيت للواد وغمزت له ، حكمة ربنا راح محمود بعيد عنى • •

وانهالت التعليقات من اكل جانب •
— حكمة ربنا • •

— ليك عمر يا معلم حمودة • •

— شوف صنع ربنا •

واذ هدأت الضجة ، وعاد الناس الى الهدوء ، قال المعلم حمودة :

— أصل الواد ده اسكتلندى ، واسكتلندا ضد الانجليز من غير مؤاخذه • •

وقال الرجل الطويل الهايف يسأل حمودة •

— يا سلام يا معلم ، بقى اسكتلندى زينا • •

— آمال ، زينا تمام •

ومصمص الرجل الطويل الهايف شفثيه فى حسرة صادقة وقال :

— يا سلام حكمة ربنا • •

عندما غادر الناس مكتب حمزة بك عن المقصود كانت الساعة

قد تجاوزت منتصف الليل ، ولم يبق فى المكتب الا حمزة بك
وحمودة وأنا .

وسألنى حمودة فجأة :

- لازم كتبت موضوع حلو ..

قلت وأنا أنظر نحوه ببرود :

- آه .. بس قلت الحقيقة .

وقال حمودة فى برود أشد :

- بس انت ماسالتنيش ..

قلت فى تحد شديد :

- أسألك عن ايه ؟

- عن المعركة ..

- مانت كنت نايم يا حمودة ..

وضحك ضحكة صفراء ثم قال :

- حلوة دى ، احنا هنهزر والا ايه .

وسادت بيننا فترة صمت ، قبل أن يدخل حمزة بك وقد

ارتدى معطفه وقال وهو يتجه نحو الباب :

- ياللا بينا ..

وقمت من فورى دون أن أدري الى أين يأخذنا حمزة بك .

وعندما كانت السيارة تنهب بنا الطريق فى اتجاه قصر حمزة

بك مال حمودة على أذنى وكان يجلس خلفى وهمس قائلا :

- كتبت ايه بالظبط ؟ ..

وتجاهلت سؤال حمودة ولم أرد .. ولكنه استأنف حديثه

قائلا :

- كل بتوع الصحافة خدوا صورتى ، اשמعنى انت ؟ دناحم

وضبت فورمه معتبرة لواحد صحافى .. يظهر انه فى الكتابة

على قدمه من غير مؤاخذه ، حنة فورمة ، تعجبك ..

ونظرت الى حمودة فى غيظ شديد وسألته وقد استبد بى
الفضول :

— فورمة ايه دى بقى ؟

— قلتله يكتب من غير مؤاخذه •• شوهده أحد الكتائب يحمل
المدفع ويناول الانجليز فى الصميم
وقال وهو يجلس على حرف المقعد الخلفى ويميل بجسمه
نحوى :

— مش حلوة ويناول الانجليز فى الصميم دى ، ايه رأيك ؟
انت لازم تشوف لى شغله معاكو بعد الحرب
ثم قال وهو يضطجع على المقعد :

— ايه يعنى ، وحياة النبى أنا أشتغل أحسن صحافى ، دى
شغلة عجز من غير مؤاخذه •

وراح يرددوهو يجلس مجعوصا على المقعد وكأنما يحدث نفسه
وهو يناول الانجليز فى الصميم •• يا حلاوتك يا حمودة
حلوة فى الصميم دى قوى ••

ثم زغدننى بأصبعه فى كتفى وقال مازحا :

— على الطلاق ماتعرف انت تجيبها دى ••

لم أكن قد دخلت قصر حمزة قبل الآن ، وكان قصرا أنيقا يقف
فوق ربوة عالية عند حافة الصحراء ، تحيط به حديقة مترامية
لم أتبين معالمها لشدة الغلام • وقادنا حمزة بك الى بهو فاخر
وتركنا لحظات ثم عاد ومعه زجاجات ويسكى وكميات هائلة من
السجائر الفاخرة • واختطف حمودة علبة لنفسه ، وراح يتفرج
عليها فى سذاجة طفل يتفرج على لعبة وقال وهو يفرك يديه من
السعادة :

— ياسلام يا جدهان ، كرافن ، دى م النافى •

ورد حمزة بك على الفور :

— دول عندى من زمان ، قبل الحرب ..
وقال حمودة فى غير روية :

— الكابتن وليامز مايبعتلكش ؟
ثم أدرك أنه أخطأ فوضع العلبة مكانها على المائدة وسكت .

وبسرعة صب حمزة بك لنفسه كأسا أفرغها فى جوفه ،
ودارت الكئوس بعد ذلك حتى فرغت الزجاجه ، واذ أحس
حمزة بنشوة الخمر خلع جاكته وحل رباط عنقه . وقال
وتأثير الخمر باد عليه ..

— ياسلام . الواحد زى مايكون هيتخنى ، ايه آخر الحكاية
دى مش عارفين ؟

وعندما استفسرت منه عما يقصده بالحكاية ، قال :
— انصيبة الى احنا فيها دى ، وقف حال من جميع النواحي
وفهمت أن حمزة بك يعنى الحرب الذائرة فى انقنال ..
ويبدو أن صمتى قد أثار حمزة بك فقال يستحشنى على
الكلام :

— عاجبك الحال ده ، انت ايه رأيك ؟
ولزمت الصمت للمرة الثانية ، فقال حمزة بك يشرح
الموقف :

— لا احنا قادرين نطلع الانجليز ، ولا احنا عارفين نعمل
حاجة ، مش نتفق أحسن ؟
وقلت أستدرجه الى الحديث :

— وهنتق ازاي ؟
— تتفق ياأخى ، احنا يعنى أحسن م الهند ولا أحسن من
فرنسا ، وماهم متفقين مع الانجليز ، مانتفق ..
واذ لزمت الصمت مرة أخرى ، قال حمزة بك فى جد بالغ:
— أوعى تكون فاهم اننا ضد الحرب ، أنا مستعد أحارب لآخر

الزمن ، بس يكون فيه فايده ، انما حرب وبس . دا كلام فارغ
مش هينوبنا غير وقف الحال . احنا ننتهز الفرصة ونتفق مع
الانجليز ، والحرب وادى احنا حاربناهم ، نقوم نكسب شوية ،
حاجة حاجة ، دا البنى آدم بيتعلم المشى خطوة خطوة ، نقوم احنا
عاوزين ناخذ كل حاجة مرة واحدة ، وهو دا معقول ، نتفق
أحسن ، وبينى وبينك احنا من غير الانجليز مانسواش نكلة ،
والكلام دا لك انت بس ، انت الى تفهمنى ، انما الواحد حاطط
همه فى قلبه وساكت ، الناس الغنم الى فى الشوارع فاهمين
المسألة خطف ، نحارب الانجليز ، ياللانحارب . هيه ايه ؟
اشرب اشرب ..

ومد يده نحوى بكأس متربعة ، فقذفتها فى جوفى ، ورحت
أنظر من النافذة عبر الظلام الى الصحراء البعيدة .

وقال بعد أن انتهى من كأسه :

— أنا عايش لوحدى زى مانت شايف كده . البيت الطويل

العريض ده مافيهش حد ..

وسألت حمزة بك فى سداجة :

— انت مش متجوز ؟ ..

وضحك ضحكة صافية وقال وهو يشعل لنفسه سيجارة .

— احنا مش بتوع جواز ، الجواز ينفع لناس معينين ، واحد

موظف ، واحد عامل يجيب عيال ، ويشترى لهم بطيخ وبعدين

يكبر ويموت ، احنا صنف تانى .

وسكت حمزة بك قليلا ثم قال وهو ينفخ دخان سيجارته

فى ضجر شديد ،

— وهنتجوز ليه ، نجيب واحدة ست ، ما ألسنات على قفا من

يشيل ، نجيب عيال ، كفاية العيال الى فى الدنيا ، دا حتى يظهر

العيال مابقتش تموت ، كل ماتمشى فى حننه تلاقى عيال زى

الديبان ..

وقال وهو يثبت نظارته على أنفه :

- تعرف ، مايصلحش الحال فى الدنيا دى غير حرب ، حرب
تشيل شوية م الهم ده ..

وقلت محاولا أن أبدد جو الكآبة الذى ران علينا :

- طيب ما الحرب شغاله أهه ..

وضحك حمزة بك ضحكة استهزاء وقال فى سخرية حادة :

- ودى حرب ، دا لعب عيال ، أنا فى الحرب الى فاتت كنت
واخذ مقالة تفريغ فى الموانىء بتاعة الانجليز ، كنت أفرغ كل
يوم ميت ألف صندوق فى ميناء الأدبية • ميت ألف كل يوم ،
كان ليه قرش صاغ واحد على كل صندوق ، يعنى ألف جنيهه
كل يوم يا أستاذ ، ألف جنيهه من مينا واحدة ، دا غير الموانىء
التانية ، أهى دى الحرب ، الحرب بتشيل الزيادة وتعمل رواج
انما حرب م النوع اياه ده ، الغرض ، ربنا يفوتها على خير الايام
دى ..

واستيقظ حمودة الذى كان قد نام خلال حديث حمزة بك،
والتقطت أذناه العبارة الاخيرة التى نطق بها ، فقال معقبا دون
أن يفهم شيئا :

- يارب تفوتها على خير ، أنا وحياة سيدنا النبى عيني بتعرف ،
يظهر هاشرب من دم الواد فتحنى النهارده •
وقال حمزة بك ينصح حمودة :

- أوعى تعمل لفتحنى حاجة ، احنا مش عاوزين خوة دماغ ،
ملعون أبوه لأبوها ، هو مافيش غيرها ياأخى •
والتفت نحوى وقال فى لهجة آمرة :

- احنا عاوزينك تمنجه حمودة شوية • يعنى كام مقالة كده
سخنين • الراجل عمل اللى عليه امبارح أما نشوف انت هتعمل
ايه بقى ؟

واختلست نظرة نحو حمودة ، كان وجهه هادئاً لا يعبر عن شيء ، وبريق عينيه الأخاد لم يخمد ، وإبتسامته العريضة البلهاء ، لرف على شفتيه • وقال وهو ينظر نحو حمزة بك :
- دا مش مصدق ياسعادة البيه ان أنا الى حاربتم امارح
وقال حمزة بك وهو ينظر نحوى فى مودة :
- دابيهزر ••

ثم قال مستنكراً :

- أمال هو مين يعنى • عفريت من تحت الارض ؟

ثم قال وقد حول مجرى الحديث :

- انت عرفت الى حصل لحمودة امارح ؟

- هو كان مشغول فى المعركة ، وفتحى بدير خد البت بتاعته

وهرب ، صحيح : كل واحد فى سوق •

وضحك ضحكة هستيرية ، وخبط الأرض بقدمه ، ثم قال :

- انت عرفت ؟

وقلت :

- أيوه عرفت •••

وضحك حمزة بك بنفس الطريقة وقال :

- الله ، طيب مانت عندك الاخبار أه • صحيح صحفى

- حمودة الى قالى على الاخبار ، ماقالش حاجة عن المعركة

فالى فتحى بدير والبس ••

- ماهو مغفل ، بيعب ياسيدى ، واخده عقله ، آل حب آل

انا عمري ماحبيت ، حب ايه ياخويا ، تعرف أنا مرة واحدة بس

حييت ، بت من بورسعيد ، كان سنة ٣٠ وأنا شاب صغير ،

كانت عاوزانى أتوظف فى البوستة وتجاوزنى • وجابتنى ميت

جنينه أدفعهم رشوة عشان أتوظف خدت أنا الميت جنينه وهربت

لى مصر ، ضاعوا فى شهرين رجعت تانى ، لقيتها انتحرت ،

رمت نفسها فى البحر ، تعرف مانت ليه المغفلة ، عشان الميت

جنينه !

وهب حمزة بك لراقفا يضحك في جنون ، ثم راح يقهقه كأنه
قرود وهو ينظر الى نفسه في المرأة الضخمة التي نابت تنوسط
البهو ، ثم دفد بانداس فجأة واخذ في البكاء . لان يبكي بحرقة
وبصوت ؟؟ وكان واضحا أنه قد اوعى من شدة السر . فلم
يكن على المائدة سوى ثلاث زجاجات فارغة ، وعلى الارض كأس
محطم ، وعلى المقعد رجل بائس مبعثر النفس كحطام الكأس .
ونهض حمودة فحمل حمزة بك الى الداخل . وعندما عاد بعد
فترة قال ونحن نتأهب للخروج :

- لما يسكر قوى يعمل كده ، مسكين الناس حاسده على
العز الي هو فيه ، ماحدش غارف الحقيقة .
ورحنا نقطع الطريق من قصر حمزة بك الى قلب المدينه
في هدوء .

كان كل منا يحمل ترخيصا بالمرور وكان حمودة كلما
استوقفتنا نقطة مرور انجليزية . أبرز تصريحه في زهو ، ثم
مد يده للجندى الانجليزى ، وهتف في وجهه :

- كفك يا جورج . نهارك أسود انشاء الله . .

وكان الجندى الانجليزى الذى لا يفهم شيئا يدق كفا بكف مع
حمودة ، ويمطره بكلمات الشكر . ولكن عند آخر نقطة حراسة
كادت تحدث فاجعة . فقد هتف حمودة كعادته في وجه الجندى
الانجليزى بكلمة نابية شديدة الوقاحة ، وكان الجندى يعلم معناها
فأمسك بخناق حمودة ، ثم صوب مدفعه الرشاش نحوه وكاد
يضغط على الزناد . لولا توسلات حمودة له بالا يفعل . .

والحق اننى شعرت بشماتة بالغة تجاه حمودة ، فقد وقف
أمام الجندى يتوسل في خوف شديد ، وجسمه ينتفض كأنه
أرنب أمسكت به يد قاسية . وراح يتكلم بسرعة محاولا بشتى
الطرق افهام الجندى الغاضب انه يمزح ليس الا . .

- هزار يا جوني ، هزار وحياة النبى احنا سوا سوا .

وراح يتوسل الى فى استخذاء :

– ماتقوللوا دا هزار ٠٠ قوللو بالانجليزى ٠٠ ياسى حلمى
وتركه الجندى أخيرا بعد أن صب على رأسه كل الكلمات
البذيئة التى يعرفها فى كل اللغات .

وظل حمودة يختلس النظر خلفه خوفا من أن يطلق الانجليزى
النار على ظهره وعندما انحرفنا فى طريق جانبى اطمأن قلبه ،
وعادت الشجاعة اليه ، فقال يتوعد الجندى :

– آخر يوم فى عمرك يا ابن المركوب ، أنا حفصت شكله اياك
أسوفه فى المعركة البجاية .

وتركنى حمودة عند باب اللوكاندة وانصرف ٠٠ ولم أكد
أخطو داخلها حتى فوجئت بفتحي يعترض طريقى، وكان ينتظرني
منذ ساعات . وعندما هممت بالوقوف معه فى بهو الفندق
جذبني بشدة نحو السلم ، وقال بصوت مرتعد :
– نطلع فوق أحسن .

وكان واضحا أنه خائف من شيء ما ، ومذعور لا يكاد رأسه
الصغير يستقر على حال فوق رقبته النحيلة . وعندما أصبحنا
داخل الحجرة قال بعد أن اطمأن الى أن الباب مغلق بالمفتاح :

– انت كنت فين دا كله ؟

– مع حمودة ٠٠

وبدا على فتحي الاضطراب ، وقال وهو يتهاوى على المقعد :
– وراح فين ؟

– راح ع العش بتاعه ٠٠

– مش معقول ٠٠

– دنا سايبه دلوقت رايح على هناك ٠٠

– أيوه صحيح ، بس هوه مش حيروح على هناك ، حمودة
بيخاف ينام لوحده بيخاف م الضلمة .

وخلعت جاكتنى واتجهت نحو الدولاب مبديا عدم اهتمامى
بحديث فتحي ، ولاحظ هو هذه الحركة ، فقال على الفور .

- ماتتكرش أنا باشنع على حمودة ، حمودة قلبه زى الحديد
فى كل حاجة ، انما يخاف ينام لوحده ، عشان كده كان قاعد
مع رتيبه ..

ورنت كلمة رتيبة فى أذنى ، فقد كانت هذه أول مرة أعرف
أن المرأة البدينة اسمها رتيبة . وقلت لفتحن متجاهلا الموضوع
كله :

- وهيه مش معاه دلوقت .

- الله ، هوه حمودة ماالكش ..

- لا ..

وتملك فتحن ذعر أكبر ، فمادام حمودة لم يقص نبا هروب
رتيبة فلا بد أنه يدبر أمرا ، وحمودة سفاح وشديد القسوة
وخصوصا اذا استولى الغيظ على قلبه .

- وقال فتحن فى اضطراب ..

- هيه هربت منه امبارح ..

- ليه ؟ ..

- مش عاوزه تقعد معاه ، كان راميه زى الكلبة فى العشة ،
يقعد ياكل لوحده وان فاض منه حاجة تقعد تأكلها . عمره
ماقالها تعالى كل معايا ، عمره ماخرج معاها مرة ، عمره ما فكر
يجيب لها جلييه كانت تقعد بالاسبوع مايشوفهاش . دالواحد
لو عنده قطعة بيراعيه ، زهقت منه ، كتر خيرها .

- وهيه فين دلوقت ؟

- ماعرفش ..

- ماتعرفش ازاي ، مش انت الى مهر بها .

- حمودة قالك كده ؟

- آه ..

- أمال بتقول ماقلش ليه ؟

- عاوز أعرف ايه الحكاية ..

وصمت فتحن « وراح ينظر فى سقف الحجرة ، وبدأ عليه

أنه شعر بالراحة اذ علم أن حمودة روى لى قصة رتيبة • ولم
يظل صمت فتحي فقال والزهق يملؤه :

— مش دا المهم ، انت شفت الى حصل امبارح

— حصل ايه ؟

— المعركة الى عند الترعة ، انت مادريتش والا ايه ؟

— لا دريت ••

— ايه رأيك ؟ كله من ده من هنا ورايح ، أنا فتحت كتيبة
صغيرة كده ، انما عيال زى العفاريات الزرق • شيبوا الانجليز
امبارح ، انت لازم تكتب كلمة عن الكتيبة ، أنا سميتها كتيبة
الشياطين الحمر ، ايه رأيك ؟

ونظرت الى فتحي وأنا أتمدد على الفراش ، وتناوبت بشدة ،
وقلت وأنا أجذب الغطاء على رأسي :

— أنا عاوز أنام •

وقال فتحي وهو يغوص فى الكرسى الجلد

— نام سوخد راحتك ••

— وانت ؟

— هنام مطرحي ، مش هازعجك •

— وليه ماتنامش فى البيت ، انت مش معاك تصريح ••

— أيوه معايا ، بس حمودة تلقاه داي ر لف فى الشوارع مش

هيروح العش الا الصبح ، ولو قابلنى دلوقت ••

وتناوب فتحي وأغمض عينيه وألقى برأسه الى الحلف ، ثم
دعك عينيه وهز رأسه فى عنف ، وقال وهو يغالب النوم

— نام انت على كيفك ، أنا هافضل صاحى للصبح ، النهار له

عينين ، أول النهار مايطلع هاخرج أنا ماتخافش مش هازعجك •
ولم يكد فتحي ينتهى من حديثه حتى أغفى ، كان واضحا انه

شديد الانفعال وانه فى حاجة الى نوم عميق ••

ولكن أين رتيبة ؟ أين هى بعد أن خطفها من حمودة ، لعلها

مع الشياطين الحمر ، رجال فتحي الذين شيبوا الانجليز ليلة

الأمس ، لعلها هي كل الشياطين الحمر الذى يقودهم فتحى لتحرير مصر من جيش الانجليز .

وزعقت بشدة فى زجهه أناديه ، وهب مذعورا من نومه كأن نمرأ مفترسا !نقض عليه ، ثم هدأت نفسه بعد أن اطمأن الى أن كل شيء على مايرام ، فعاد الى مكانه مرة أخرى ، ولكن مفتوح العينين :

وقلت فى همس :

— فتحى ، مين الى دخل معركة امبارح ؟

ورد متحمسا :

— مش حمودة .

— أنا عارف مين امال ؟

وقال والنوم يداعب عينيه :

— الكتيبة الجديدة ، بس احنا اشتركنا معاها ..

— عارف مكانهم ..

— آه ، الصبح أروح معاك اذا كنت عاوز ، وزى بعضه أنضم

لهم .

— طيب نروح بكره سوا .

— حاضر ..

وأغلق فتحى عينيه ، وراح صدره يعلو ويهبط بانتظام ، وبدأ وجهه الشاب المفضن فى ضوء المصباح كأنه دمية من خشب لتخويف الغربان . وشعرت بالندم اننى اتفقت مع فتحى على الذهاب معه الى مكان الكتيبة الجديدة فى الصباح فليس من الخير أن يعرف فتحى مكانهم ولكنه كان يعرف مكانهم من قبل والاملا استطاع أن يقودنى الى هناك . ثم ماذا يهم لو عرف فتحى مكانهم .

وماذا يستطيع أن يصنع فتحى ؟ هذا البائس اليائس ،

المسكين !

وكانت الساعة قد تجاوزت الرابعة بقليل ، والريح قد

نشطت في الخارج وراحت تلطم النافذة بقسوة • والمطر الذي
انهمر فجأة أخذ يفرقع على أسفلت الشارع ••
وأحسست ببرد شديد يهراً جلدي وينفذ في عظامي ، وكميات
الويسكي التي شربتها مع حمزة بك تحولت الى صداد قاتل
ينشر في عظام رأسي كالسكين وعندما سحبت الغطاء على وجهي
وتأهبت لنوم عميق ، دق باب حجرتي طارق مجهول ، وارتفع
صوت حمودة من وراء الباب يستأذن في الدخول •

الفصل العاشر

كان صوت حمودة الذى ارتفع من خلف الباب يستأذن فى الدخول أشبه بعضا من الشوم فلعت دماغ فتحي بدير فانكمش مذعورا فى مقعده ، ينظر نحوى فى قلق بالغ ، وعيناه الضيقتان الغشاشتان تنظران نحوى فى توسل ذليل إلا أفتح الباب • • ولكن رغم منظر فتحي الذى يدعو الى الرثاء نهضت من فراشي واتجهت نحو الباب وقد تملكنتى رغبة فى الاستمتاع بمشاهدة المعركة التى ستدور حتما بين الرجلين • ولكن هذه الرغبة سرعان ما انسحقت من هول المفاجأة التى حدثت عندما فتحت الباب • فقد سقط حمودة كالشوال داخل الحجرة ، بينما اندفع دمه على الارض راسما بقعة كبيرة لم تلبث أن اتسعت حتى بدت كأنها بحيرة صغيرة من الدم ، وأكثر من نهر رفيع اندفع من داخلها فى كل اتجاه • وانجنيت على حمودة الذى انكفأ على وجهه فى صمت ، وأصابه يده الباردة تنام مسترخية فى بحيرة الدم • وراعنى الشحوب الذى اعترى وجهه ، والكدمات التى بدت معالمها القاسية • وصدره الذى بدا لشدة ضعفه وكأنما انقطعت عنه أنفاس الحياة •

ووقف فتحي بدير مضطربا لا يدري ماذا يفعل ، ولكنه سرعان ما اندفع نحو الحوض وعاد بعد قليل وقد حمل بين يديه اناة وقبض بين أسنانه على فوطة ، وركع على الارض الى جانب حمودة يغسل له الجراح • •

وجلس على الارض لا أدري ماذا أفعل ، وفي موقف مثل هذا
أجد نفسي دائما فاقد القدرة على التصرف . ولا أملك فى المآزق
إلا أن أنتظر هبوط معجزة من السماء . ورحت أدق النظر فى
وجه حمودة المستسلم لأنامل فتحي بدير المرتعشة ، كان وجهه
شديد الشحوب ، شديد الهدوء ، زایلته كل الاقنعة الزائفة التى
يرتديها حمودة فى المناسبات ، وبدا لى أن الوجه الذى أراه هو
وجه حمودة الحقيقى ، الوجه الذى كان يخفيه فى أعماقه ، ثم ظهر
فجأة فى لحظة ضعف ، وكأنما نوبة الاغماء التى احتوت حمودة
قد احتوت أيضا كل أحلامه وأطماعه .

وفجأة ، ترك فتحي بدير رأس حمودة يتدحرج من بين
أصابعه يسقط على الارض ، والتفت مذعورا نحوى ، وقال وهو
يخلع ملابس حمودة :
- دا مضروب فى جنبه .

ولم أكن حتى هذه اللحظة قد تبيننت مدى الاصابات التى لحقت
بحموده ، كنت أتوهم أن المعركة انتهت عند حد الكدمات التى
فى وجهه ، والزرقة التى حول عينيه وخيط الدم الذى يسيل
من أنفه وجانب فكه ، ولكن عندما كشف فتحي عن جنب حمودة
أدركت خطورة ما حدث . كان ثمة جرح غائر فى جنبه ، مفتوح
كأنه ضربة سكين فى بطيخة شديدة الاحمرار ، والدم يتدفق بلا
انقطاع ، وأمعأؤه برزت الى الخارج ، وعندما وضع فتحي القوطة
على الجرح اصطبغت بلون الدم ، ولكنها لم تجف فى صد النزيف
الذى راح يسيل ، كأنما دم حمودة المتقلب الأهواء قد وجد أخيرا
فرصة ليهرب من هذا الشق المفتوح . . وعندما أشار فتحي
باستدعاء طبيب ، انتابتنى الحيرة ، فأنا لا أعرف أطباء فى
المدينة ، وحتى لو كنت أعرف طبيبا ، فكيف يصل إلينا ،
والتجوال ممنوع فى المدينة ، ولا تزال أماننا ساعة حتى تشرق
الشمس ، وبقاء حمودة ساعة أخرى وهو فى هذه الحالة سيعرض
حياته حتما للخطر . وفكرت فى أن أحمل حمودة وأجرى به

الى المستشفى وأنا وفتحي معنا تصرّيح بالمرور فى الليل ، ولكن هذا القتل الذى معنا سيثير الشبهات حتما عند نقط التفتيش ، وقد ينتهى الامر الى أن نفقد أرواحنا جميعا ..

ووقفت وسط الحجرة أتأمل جرح حمودة ودمه الذى ينزف وأبحث عن طريقة للعمل . هل أترك حمودة على الارض حتى يموت ، أم أحمله وأخرج الى المستشفى ، وقد أموت أنا وفتحي وحمودة .. أم أستدعى طبيبا ، وقد تدفعه الشهامة الى المجازفة بالحضور ، وعندئذ قد يتعرض للقتل برصاصة يطلقها مركز من مراكز التفتيش . . .

وكان فتحي الذى لم يتقن عملا فى الحياة قد انهمك فى تضييد جرح حمودة الغائر وغسله بالماء ، تاركا لى مهمة تدبير مصير حمودة ، وأحسست أنى فى حاجة الى شخص آخر ليواجه الامر معى ، ورفعت سماعة التليفون واتصلت بمدام ريتا . وارتفع صوتها بعد دقائق كالنغم الحلو وان كان يشوبه شىء من الضيق . ولما لم يكن هناك وقت للاعتذار بكلام سخيف اعتاده الناس فى مثل هذه الظروف ، فقد دخلت الى الموضوع مباشرة ، وقلت لها فى لهجة جادة وفى صوت متهدج :

— عاوزين دكتور بسرعة .

وصرخت من الفزع :

— ليه ، حصل حاجة ؟

— بعدين حاحيكلك كل حاجة . المهم عاوزين دكتور باى

شكل ..

وقالت مدام ريتا فى اشفاق :

— دكتور دلوقت ، مستعجل .

وراحت تعدد الأسباب التى جعلت الحصول على دكتور فى هذا الوقت شيئا أشبه بالغول والعنقاء والحل الوفى ، وهى أسباب كنت أعرفها تماما من قبل .. وعندئذ تأكد لى أن حمودة سيلقى حتفه حتما قبل أن تشرق الشمس ، وأن الألوان قد حان ليحصل

حمودة على الراحة التي لشد ما كان يتوق إليها في الحياة . ولكن
خيطا رفيعا من الأمل برق وسط هذا الجو المشحون باليأس والقلق ،
عندما هتفت مدام ريتا وهي تنهى المكالمة :
- أنا نازلة عندك حالا .

ونزول مدام ريتا أو صعودها قد لا يكون له أدنى تأثير على
الموقف ، ولكنني أحسست بالراحة لمجرد نزولها ، وهو إحساس
هايف إذا ناقشناه على ضوء المنطق ، ولكن من قال أن أحاسيس
الإنسان تخضع لمنطق ؟

وجاءت مدام ريتا في قميص نوم شفاف ويبدو أنها كانت
تتوقع كل شيء الا الشيء الذي رآته بالفعل ، فعندما أبصرت
حمودة ممدا كالفسيخة على الأرض ، هوت على مقعد قريب ،
وقالت وهي تخفي عينيها يديها :
- مين قتله . .

وحكيت لها القصة باختصار وعندئذ نهضت وضغطت على
الجرس المثبت عند الباب ، وحضر اليها خادم عجوز ، ووقف
مفتوح الفم من الدهشة وقد زاعه وجود مدام ريتا في تلك الساعة ،
والقتيل ينزف دما على الأرض ، وقالت له ريتا في حزم :
- هات كشف اللوكاندة حالا . .

ولم أدرك الحكمة من وراء هذا الطلب ولم أناقشها في هذا
الأمر ، وكأنما اتخذت قرارا بيني وبين نفسي أن أترك مهمة تدبير
الأمر كيفما تشاء .

وعندما جاء الخادم بالكشف ، ألقت عليه نظرة سريعة ، ثم
هتفت في سرور بالغ :
- فيه دكتور في اللوكاندة . .

واندفعت بعد ذلك الى الممر المظلم ، وغابت دقائق ، ثم عادت .
ومعها رجل أشيب نحيف في ملابس النوم ، تتأرجح نظارته
السميكة فوق أرنبة أنفه الصغير . .
وانحنى الرجل يتحسس جسم حمودة ثم طلب ماء ساخنا .

وجرى الخادم فأحضر الماء فى لحظات ، وراح الطبيب يحشو جرح حمودة بالفوط ، ثم لفه بملءة السرير ، وحملناه معا الى الفراش . وقد انقطع النزيف ، وعندئذ جلس الطبيب العجوز على المقعد . يلتقط أنفاسه ، وانحنى الخادم على الارض يزيل بركة الدم المتجمد ووقفت مدام ريتا عند قدمي حمودة ، وفتحت بدير راح يشرح لها الامر كخبير فى طب الجراح ! ..

وشكرت الطبيب على نجدة لنا ، وابتسم الرجل فى ود عميق ، وقال وهو يمسح عدسات النظارة :

— ما باليد حيلة ..

ثم ضحك ضحكة خفيفة قبل أن يقول

— أنا فى الحقيقة .. دكتور .. بيطرى ..

ثم جلس صامتا ينظر الينا من تحت زجاج نظارته فى ريبة شديدة ، وكان بين الحين والحين يتثأب ، فاتحا فمه على اتساعه ، فتبدو أنيابه وقد نخرها السوس . وكان يبدو عليه أنه شديد الرغبة فى النوم ، ولكنه لم يكن يجرؤ على تنفيذ هذه الرغبة . فقد خيل اليه لغرابة المفاجأة ، أنه فى فندق محوط بالاسرار ، وأن الظروف التعيسة قد منحته دورا هاما فى قصة بوليسية شديدة الغموض . والا فأى فارق بين ما يراه هنا وما يقرؤه فى روايات أرسين لوين ، هذه المرأة الحلوة فى قميص نوم شفاف تطرق عليه الباب فى الفجر ، وتستدعيه فى قلق بالغ ، ثم يخرج معها ليفاجأ بقتيل مطعون فى الجنب ، على وشك الموت لكثرة ما نزف من الدماء ..

ولكنه ورغم كل هذه الشكوك التى كانت تساور الطبيب العجوز لم يجرؤ أبدا على توجيه أى نوع من الاسئلة الينا اكتفى بالجلوس والصمت والتحديث فينا دائما ، كأنما ينبغى أن يطبع صورنا فى ذهنه ، فقد توقع أن يكون للقصة فصول لم تتم ..

وعندما عاد الخادم بالشاي ، رفض أن يشرب رغم شدة احتياجه الى شئ ساخن يشربه ، لعل خاطرا طاف فى ذهنه أن الشاي

مسموم ، واننا ندبر قتله لنتخلص منه حتى لايفشى سرنا .
وعندما سألته عن حالة حمودة ، أجاب فى اختصار :
- خطيرة ..

ثم عاد بعد فترة فأكد ضرورة نقله الى المستشفى ، ثم قال فى
لهجة آسفة :

- لو عاش يبقى محظوظ -

وعندما سألته ، هل الامل كبير فى النجاة ، قال فى
هدوء :

- لو عاش للصبح ، يبقى ..

ولم يزد الدكتور حرفا ، ومط شفتيه وخلع نظارته وراح
يمسح زجاجها من جديد ..

وعندما سمع فتحى هذه العبارة الاخيرة هوى على مقعد بجوار
الدكتور العجوز ، ثم وضع رأسه الصغير بين راحتيه ، وفجأة
انخرط فتحى فى بكاء عنيف .

وبهت الطبيب لهذا الذى حدث ، وراح ينظر فى صمت الى
فتحى بدير الذى أخذ يهتز فى حركات عصبية وقد ارتفع صوته
فى نحيب صادق شديد .

وقال الدكتور وهو يشير نحو فتحى :

- هو قريبه ..

- لا ، صاحبه ..

وسكت الدكتور ، ولكن نظراته الينا خفت حدتها ، وكانما
غسلت دموع فتحى المنهمرة كل الشكوك التى فى نفسه ، وعندئذ
مد يده الى كوب الشاى البارد فشفطه على دفعات كبيرة متلاحقة
ثم تنهد فى عمق ، وقال فى اهتمام :
- ايه الحكاية ..

وحكىنا له الامر كما وقع بالضبط وبالتفصيل ، منذ تركت
حمودة عند باب اللوكاندة ، الى مجيء فتحى ، ثم عودة حمودة
بعد ذلك ، حتى قصة الخلاف بين فتحى وحمودة شرحتها له .

وعندما انتهيت من سرد كل شيء ، سألتني في اهتمام كأنه
محقق عنيد :

— انت قلت ان حمودة اتخاقت مع عسكري انجليزى عند
نقطة التفطيش ..

— أيوه ..

— مش ممكن يكون هوو الى ضربه .

وقلت وأنا أجلس أنا الآخر وقد هد التعب جسمى :

— مش عارف ..

وهذا الرجل رأسه فى أسى بالغ ، ثم قال وهو يفووس فى
مقعده ..

— ياسلام ، شوف الصدف ، أهى دى أول مرة آجى

الاسماعيلية ..

ثم راح يحكى لنا ببساطة تاريخ حياته ، منذ يوم وفاة أمه
وهو صبى صغير ، ثم عندما أصبح طبيباً ، ثم زواجه ثم وفاة
زوجته وهى تضع ابنها الثانى وقد تركت خلفها ابناً لم يتعد
الثالثة وكيف نذر نفسه لتربية الطفل الذى فقد أمه ، لم يشأ
أن يدع ابنه يمر فى نفس التجربة التى خاضها هو مع زوجته
آبيه فلم يتزوج ، ولقد كبر الطفل بعد ذلك حتى أصبح شاباً ،
تخرج فى الجامعة وأصبح مهندساً ، يعمل فى الوزارة وله مكتب
ينتردد عليه فى المساء ، ولكنه هجر كل شيء فجأة واختفى ،
وانسحق قلب الطبيب الشيخ لهذا الامر ، كان يعلم أن سعيد
— اسم الابن — قد وقع فى حب فتاة ، فقدر أن ولده قد صدم فى
حبه فآثر أن يعتزل الحياة بعض الوقت . ولكن الذى اكتشفه
بعد ذلك كان أقسى مما يحتمله ، فقد اكتشف أنه فى الاسماعيلية
هسمن كتيبة جاءت الى هنا لتحارب الانجليز فى القناة .

ولقد كان الرجل على استعداد لان يسمح بأى شيء الا هذا .

لقد عاش من أجل هدف واحد ، أن يشيعه حتى باب القبر
عندما ينفذ فيه أمر الله ويموت ، ولكن هاهو المجنون سعيد يريد

أن يسبقه ، من اذن سوف يحمله الى القبر ويتلقى فيه العزاء
كان يحكى لنا جميعا ، ولكنه لم يحول بصره عن مدام ريتا ،
وكان يتحدث بمرارة عن النساء كلما تعرض لهن خلال قصته
الطويلة . . . ولقد جاء الى الاسماعيلية بحثا عن سعيد ، فاذا به
يرى فى أول ليلة له فى المدينة ماهبط بقلبه الى ركبتيه . . . فيها
هو رجل صريع يلفظ أنفاسه أمامه مطعونا بسونكى حاد .

وراح يسألنا عن عدد القتلى من الرجال وعن أسمائهم ومهنتهم
وراح فتحى يجيبه كأنه المسئول الاول والاخير عن كل ما يدور
فى المنطقة من معارك ، وكل الذين يسقطون على أرضها من رجال
واطمان الطبيب الشيخ الى فتحى ، وتوسل اليه أن يمر عليه
فى الصباح بعد أن يعود من المستشفى ، وعندما وعده فتحى
تهللت أساريره وهتف وهو مبسوط . . .

— الحمد لله . . .

وكان الصباح قد بدأ يزحف علينا ، وحمودة لايزال غائبا عن
الوعى ، وفتحى بدير أسند رأسه على حافة الكرسي ونام ، وغادر
الدكتور الحجرة مستأذنا لشدة احتياجه الى النوم ، وبقيت مدام
ريتا وهى تنظر الى حمودة أحيانا ، وإلى بعضنا أحيانا أخرى .
وعندما مرت سيارة فى الطريق هرعت مدام ريتا الى النافذة . ثم
هتفت ورأسها للخارج :

— خلاص ، الناس مشيت . . .

ثم عادت الى التليفون ، واستدعت المسيو فرانشيسكو وأمرته
بتجهيز السيارة ، ثم قالت لى وهى تغادر الحجرة :

— فرانشيسكو هيوصلكم لحد المستشفى . . .

وحملنا حمودة ، فتحى بدير وأنا وانطلقت بنا السيارة الى
المستشفى وعندما تحسست وجه حمودة — ونحن فى الطريق
خيل الى انه مات ، فقد كان باردا كلوح الثلج ، ناشفا كأنه رقيق
عيش بايت ، ولكن الطبيب الذى كشف عليه فى المستشفى
أخبرنا انه لايزال على قيد الحياة ، وانه سيعيش رغم كل شيء .

وعرفت وقتئذ أن سكيننا حادا قد غاصت في جنبه ، ومزقت
أمعاءه . وقال الطبيب وهو في غاية الدهشة :

— واحد غيره كان مات .

ثم سألنا وهو يكتب في ورقة .

— فيه حد منكم قريبه . .

ولما أجبناه بالنفى ، راح يسأل عن علاقتنا به ، ومن الذى
طعنه ؟ ومن ؟ وأين ؟

ولما أبدينا له جهلنا بكل شئ يتعلق بهذا الموضوع ، نظر
نحونا فى ريبة وقال يتهددنا .

— أنا هابلغ البوليس .

وعندما رفع سماعة التليفون ، انهار فرانثيسكو تماما . .
وقال وهو يكاد يبكى :

— أنا ماليش دعوة ، أنا مدير اللوكاندة همه دول يعربوه ،
أنا ماعرفوش .

وعندما شخط فيه الطبيب آمرا إياه بالصمت ، سكت على
الفور ولم يتكلم .

وعندما وضع الطبيب سماعة التليفون نظر إلينا ثم قال وهو
يستعد للانصراف :

— البوليس جى دلوقت . .

ثم توقف عند الباب وقال وفى صوته نبرة تهديد :

— ماحدش منكم يخرج ، فيه حراسة على الباب . .

ونفض فتحي بديروقال للطبيب وهو يجاهد لكى يبدو بسيطاً
وغير مهتم :

— دلوقت يفوق حمودة ويقول على كل حاجة . .

ولكن الطبيب لم يعلق على عبارة فتحي ، وتركنا وانصرف ،
وعاد الى فرانثيسكو جنونه ، فراح يتوسل إلينا أن نذكر الحقيقة
ثم ارتفع صوته وهو يرجونا أن نسمح له بالخروج وكأن الامر
فى يدينا ، وعندما شخط فتحي عاد إليه هدوءه وجلس صامتا

لا يتحرك .

واذ عاد الهدوء الى الحجره الضيقه ، همس فتحى وهو الى جوارى :

— الله يحرب عقله حموده ، مافيش وراه غير المشاكل ، ان كان عايش والا ميت ..

ثم فتح فمه الواسع عن ابتسامه باهته ، لم تلبث أن ماتت سريعا ، ثم عاد يهمس فى اذنى مرة اخرى :

— يبقى خازوق لو مات ..

ثم غص على شفته وقال فى خوف شديد :

— ياخبر أسود لو مات ..

ولما لم أورد عليه ، استأنف حديثه قائلا :

— هيقول الناس أنا الى قتلته ، عشان الخلاف الى بينى وبينه ، وأروح فى حديد ، انت عارف الى حصل بالظبط .. انت شاهد يا أستاذ ، أنا كنت عندك فى اللوكانده ، ياخبر أسود يا جدهان أهى دى داهية كحل بصحيح الله يخرب بيتك يا حموده ..

واذ ارتفع صوته حتى أصبح ضجيجا زعقت فى وجهه أمرا اياه بالصمت ، فقد تحول صوته المرسع المسلوخ الى عشرات الأبواق تصرخ فى اذنى ..

وسكت فتحى فعلا ، بينما جلس فرانكسكو ينظر إلينا فى قلق ، وأغلقت عيني كأنى أنا ، ولكن لم تلبث الضجة أن انبعثت من جديد فى الحجره ، أحذية ضخمة تدق الارض فى قسوة ، والباب يفتح ويغلق فى حركة عصبية ، ففتحت عيني بصعوبة ، وقد خيل الى انهما محشوتان بالتراب ، واستطعت أن أتبين وجه ضابط بوليس شاب وبعض الجنود وآخرين فى ملابس أفندية .

وبدا تحقيق سريع معنا عن سر الجريح ، وقلت للضابط ما عرفه بالضبط ، وبكى فرانكسكو وأعلن انه برى وانه مدير اللوكانده ليس الا ، ولم يذكر مدام ريتا فى الموضوع .. وقال فتحى بدير

كلاما مشابها لما قلت وعندما انتهى التحقيق ، واستفسر الضابط من الطبيب عما اذا كان يستطيع أن يستجوب الجريح ورد الطبيب بالنفى . وأضاف وهو يبط شفتيه ان حالته خطيرة ، وأن الطبيب الذى يجرى له العملية يتوقع موت الجريح أثناء العملية ، والتفت اليها الضابط وطلب اليها فى رفق أن نصحبه الى قسم البوليس لاستكمال التحقيق ولعرض الامر على المأمور ، ولم أمانع فى ذلك ، غير أن فرانيسكو رفض مغادرة الحجرة ، وراح يصرخ وهو يشد شعر رأسه الناعم :

— أنا ماليش دعوة ، أنا موش قتلت حمودة . .

ولما كان الضابط حديث العهد بالمهنة فقد راقه أن يمثل دور شرلوك هولمز معنا ، وكأنما حركت فيه كلمات فرانيسكو المتوسلة هذه الرغبة . فالتقط كلمة القتل التى وردت فى كلام فرانيسكو ، وأخذ يدور حولها مستخدما كل ذكائه ، وكل تجربته الضئيلة ، وكل غرور شبابه الغض ، وراح يهاجم فرانيسكو الذى انهازت أعصابه بأسئلة كان يشعر بالسعادة وهو يرددها فى لهجة واثقة مطمئنة . .

— انت ماقتلتوش ؟

— أنا ماليش دعوة . .

— انت ماقتلتوش ، طيب مين قتله ؟

— أنا ماليش دعوة ، هوه كان مع دول . .

— يعنى دول اللى قتلوه .

وراح يتبادل الأسئلة والاجوبة مع فرانيسكو المسكين كأنه لاعب ماهر فى الرماية ، وشعرت بالضيق من هذه التمثيلية السخيفة . فقلت للضابط فى ضجر :

— احنا عاوزين نروح القسم أحسن .

وبدا عليه الامتعاض الشديد ، وقال وهو يسند نحوى نظرة

صقراء :

— انت مستعجل قوى ع القسم طيب احنا رايعين .

واذ بدأنا نستعد لمغادرة الحجرة ، رأينا من خلال الباب .
الزجاجى عربات جيب انجليزيه تتحرك نحو باب المستشفى ،
ومدفع برن فى المقدمة ، ثم توقفت العربات وقد سدت باب
المستشفى وقد أحاط به عدد من الجنود ومدافعهم مصوبة الى
الامام . ووقفنا مبهورتين ، وقد راعنا المنظر .

وعندما اقترب الضابط منا ، وقف غير بعيد عنا ، وقال فى
لهجة صارمة للطبيب الذى كان يقف معنا حتى هذه اللحظة :

— هل جاءكم رجل مطعون بالسونكي فى جنبه الأيمن .

وهم الطبيب بالحديث ثم عدل عن ذلك واختلس نظرة نحوى
ثم تبادل النظرات مع ضابط البوليس ، ثم قال للضابط
لبريطانى .

— لا ، لم يستقبل المستشفى جريحا بريطانيا على الاطلاق .
وقال الضابط فى نفس اللهجة الصارمة :

— ان الذى جئت أسأل عنه ليس انجليزيا ، انه سفاح مصرى
قتل بعض الجنود الانجليز فى مركز تفتيش بالمدينة ليلة
أمس .

ورد الطبيب وقد اكتست ملامحه قناعا من الدهشة :

— لم يحضر حتى الآن .

وقال الضابط وكأنه يهدد الطبيب :

— بالتأكيد ؟

وهز الطبيب رأسه علامة الايجاب ، وعندئذ نظر الضابط
نحونا يتفرس وجوهنا فى اهتمام ، ثم قال وهو يستدير
لينصرف :

— ما اسمك أيها الطبيب ؟

ورد الطبيب فى هدوء .

— مجدى .

— اذن لابد أن تدرك يادكتور «مهدى» خطورة الامر اذا جاء
هذا الرجل الى هنا ولم نخط علما بذلك . ان الامر أخطر مما

•• تتصور

فلم يرد الطبيب ، نظر الى الضابط وسكت ، ووقفنا جميعا صامتين حتى انصرف الضابط ، وقفلت سيارات الجيب عائدة فى الطريق المضاد ، واذ رفعت بصرى نحو ضابط البوليس اكتشفت ان هيئته قد تبدلت ، غروره الشديد زائله ، ورغبته فى تمثيل دور شرلوك هولمز فارقتة الى الأبد • ونظر نحونا فى خجل ، وقال وهو ينصرف :

— لا مؤاخذه يا جماعة ••

وعندما ألقيت بنفسى على المقعد الحلفى فى عربة فرانشيسكو، أحسست كأنى أغوص فى جبل من التراب تحت أنقاض بيت مهدم ••

وانطلقت العربة الى الفندق ، بينما راح فرانشيسكو يرغى مع فتحي بدير ، الذى كان هو الآخر قد أغلق عينيه فى سبات عميق ••

الفصل الحادى عشر

عندما دخلت حجرتى بالفندق أحسست بالراحة تملأ نفسى
كانى غريق وصل الشاطئ بعد حرب عنيفة مع الريح والموج .
والقيت بنفسى على الفراش بملايىنى فقد كنت متعبا الى درجة
أننى لم أستطع أن أرفع يدى الى رقبتى لانتزع الكرافتة التى
كانت تلتف حول عنقى كحبل المشنقة . وحتى الوضع غير المريح
الذى ألقيت نفسى فيه بعد أن تمددت على الفراش لم أستطع
تغييره ، اذ كنت عاجزا تماما حتى عن التقلب فى الفراش ، وخيل
الى أن أعضائى كلها قد ماتت ماعدا عينى ، كانتا تحدقان فى
سقف الحجرة الوردى ، بينما جهاز دقيق كما كينة سينما راح
يعرض داخل مخى شريطا بأحداث الامس .

وابتسمت اذ خطر لى أن حمودة قد يموت على فراشه فى
المستشفى . ومع أن الموت لم يكن أبدا باعثا على الابتسام الا أن
حمودة لو مات ، فسيكون ذلك خليقا بانتزاع الضحك من أقسى
القلوب وأشدّها صرامة . ان ميتة على هذا النحو يلقاها حمودة
لهى ميتة مضحكة حقا . قائد كتيبة وحوش الجبال يموت فى
خناقة مع عسكري انجليزى وفى الشارع وبعد سهرة حمراء فى
قصر حمزة بك . ومن أجل أى شىء يستشهد حمودة ؟ من أجل
كفك يا جورج ، دانت ابن سستين و . . و . . أشياء من هذا
النوع . .

ولو مات حمودة اليوم فى المستشفى فستخرج المدينة كلها
غدا تشيع جنازته ، فقد مات قائد كتيبة وحوش الجبال فى معركة
مع الانجليز ! وسأدبج أنا نفسى مقالا طويلا عن الشهيد الذى
سقط دفاعا عن الحرية ! والا فماذا أستطيع أن أكتب عن الشهيد
حمودة ؟!

واذ خيل الى أن موت حمودة قد أصبح أمرا لا ريب فيه . فقد
رحت أختار الزاوية التى أكتب منها قصة حمودة . وأتخيل
المعركة التى دارت بينه وبين الجنود الانجليز فى الليل ، وعدد
الطعنات التى مزقت لحمه قبل أن يركع على ركبتيه زاحفا على
الأرض حتى حجرتى بالفندق .

وعندما انتهيت من رسم الصورة كاملة شعرت بالاسف
الشديد ، فاذا مات حمودة فأى شئ من مظاهر المعركة يبقى
للمدينة ؟

لقد كان حمودة على ثقافته هو رمز حى لضمير الأمة الذى
أغفى . كان حمودة كزهرة من البلاستيك لها شكل الزهرة .
وليس فيها رائحة الورد .

وتمنيت لو عاش حمودة ، فان المعركة لم تلد أبطلا بعد
واذا كان البطل لم يوجد على المسرح ، فلا بأس من وجود حمودة
ليقوم بتمثيل الدور ، ولو مجرد تمثيل ، فهذا خير من
لاشئ ..

ورن جرس التليفون فانتشلنى من أفكارى ، وكان المتحدث
هو فرانكسكو وانقبض قلبى فقد توقعت أن يبلغنى نبأ موت
حمودة ، ولكن فرانكسكو قال برقة متناهية ..

— فيه واحدة مدموازيل عاوزاك .

وقلت دون تفكير :

— خليها تطلع ..

وأعدت سماعة التليفون مكانها ورحت أحرق مرة أخرى فى
سقف الحجرة . وعقلى سارح فى هذه «المدموازيل» التى تريد

الفضل الحادى عشر

عندما دخلت حجرتى بالفندق أحسست بالراحة تملأ نفسى
كانى غريق وصل الشاطئ بعد حرب عنيفة مع الريح والموج .
والقيت بنفسى على الفراش بملابسى فقد كنت متعبا الى درجة
أننى لم أستطع أن أرفع يدى الى رقبتى لانتزع الكرافتة التى
كانت تلتف حول عنقى كجبل المشنقة . وحتى الوضع غير المريح
الذى أقيت نفسى فيه بعد أن تمددت على الفراش لم أستطع
تغييره ، إذ كنت عاجزا تماما حتى عن التقلب فى الفراش ، وخيل
الى أن أعضائى كلها قد ماتت ماعدا عيني ، كانتا تحدقان فى
سقف الحجرة الوردى ، بينما جهاز دقيق كما كينة سينما راح
يعرض داخل مخي شريطا بأحداث الامس .

وابتسمت اذ خطر لى أن حمودة قد يموت على فراشه فى
المستشفى . ومع أن الموت لم يكن أبدا باعنا على الابتسام الا أن
حمودة لو مات ، فسيكون ذلك خليقا بانتزاع الضحك من أفسى
القلوب وأشدّها صرامة . ان ميتة على هذا النحو يلقاها حمودة
لهى ميتة مضحكة حقا . قائد كتيبة وحوش الجبال يموت فى
خناقة مع عسكري انجليزى وفى الشارع وبعد سهرة حمراء فى
قصر حمزة بك . ومن أجل أى شىء يستشهد حمودة ؟ من أجل
كفك يا جورج ، دانت ابن ستين و . . و . . شىء من هذا
النوع . .

ولو مات حمودة اليوم فى المستشفى فستخرج المدينة كلها
غدا تشيع جنازته ، فقد مات قائد كتيبة وحوش الجبال فى معركة
مع الانجليز ! وسأدبج أنا نفسى مقالا طويلا عن الشهيد الذى
سقط دفاعا عن الحرية ! والا فماذا أستطيع أن أكتب عن الشهيد
حمودة ؟!

واذ خيل الى أن موت حمودة قد أصبح أمرا لا ريب فيه . فقد
رحت أختار الزاوية التى أكتب منها قصة حمودة . وأتخيل
المعركة التى دارت بينه وبين الجنود الانجليز فى الليل ، وعدد
الطعنات التى مزقت لحمه قبل أن يركع على ركبتيه زاحفا على
الارض حتى حجرتى بالفندق .
وعندما انتهيت من رسم الصورة كاملة شعرت بالاسف
الشديد ، فاذا مات حمودة فأى شئ من مظاهر المعركة يبقى
للمدينة ؟

لقد كان حمودة على تفاهته هو رمز حى لضمير الامة الذى
أغفى . كان حمودة كزهرة من البلاستيك لها شكل الزهرة .
وليس فيها رائحة الورد .

وتمنيت لو عاش حمودة ، فان المعركة لم تلد أبطالا بعد ،
واذا كان البطل لم يوجد على المسرح ، فلا بأس من وجود حمودة
ليقوم بتمثيل الدور ، ولو مجرد تمثيل ، فهذا خير من
لاشئ ..

ورن جرس التليفون فانتشلنى من أفكارى ، وكان المتحدث
هو فرانشسكو وانقبض قلبى فقد توقعت أن يبلغنى نبأ موت
حمودة ، ولكن فرانشسكو قال برقة متناهية ..
- فيه واحدة مدموازيل عاوزاك .

وقلت دون تفكير :

- خليها تطلع ..

وأعدت سماعة التليفون مكانها ورحت أحرق مرة أخرى فى
سقف الحجرة . وعقلى سارح فى هذه «المدموازيل» التى تريد

مقابلنى • اننى لا أعرف فتيات فى المدينة ، وليس فى حياتى فتاة حتى تجرى ورائى الى فندق بالاس فى الاسماعيليه •• وخيل الى أن « المدموازيل » التى يقصدها فرانسسكو ليست الا المرأة البدينة رتيبة التى خطفها فتحنى من عش حمودة ، ولكن لماذا أتى رتيبة الى هنا ؟ لعلها جاءت تسأل عن مصير حمودة ، أو لعل فتحنى بدير لم يذهب اليها بعد ، فجاءت تستفسر عن مصيره •• وفجأة ارتفع رنين التليفون ومن بعده صوت فرانسسكو يهمس فى أذنب جرسونات المطاعم :

— المدموازيل مش عاوز يطلع ، اتفضل انت أنزل ••
ونفضت رغم التعب الشديد وزحفت على السلالم حتى وصلت الى مكان فرانسسكو ، وأشارت الى صالون جانبي ودخلته ، وكانت المدموازيل التى تريدنى تجلس على مقعد ووجهها نحو الباب ، ويدها على ركبتيهما كأنها تلميذة مؤدبة فى حصة حساب ••
وعندما أبصرتنى هبت واقفة ، كانت صغيرة لم تتعد السابعة عشرة ، يتدلى شعرها على كتفيها فى ضفirtين غليظتين ، وترتبط شعرها بفيونكة حمراء ، وترتدى ثوبا بسيطا ، وحذاء بدون كعب علاه التراب ، وأدركت من النظرة الاولى اننى أمام تلميذة مكلفة بعمل لم تمارس مثله من قبل • وأحنيت لها رأسى وقلت وأنا أتفرس فى وجهها الصغير :

— أفندم ••

وقالت والكلمات تتعثر على شفتيهما

— حضرتك الاستاذ حلمى الصحفى ؟•

— أيوه ••

— أخويا عاوزك ••

قلت مندهشا :

— أخوكى مين ؟

وأجابتن وهى تحاول أن تخفى قلقها :

— لا مش أخويا ، هوه قريبى ••

وازدادت دهشتى . . . وقلت وأنا أقترّب منها

— قريبك مين ؟

وازداد ارتباكها ، وانتزعت من كيس صغير فى يدها منديلا راحت تمسح به العرق المتصبب من جبهتها ، وقالت وهى تعصر المنديل بأصابع يدها :

.. هوه قاللى كده بس ..

— هوه مين ؟

وضربت الفتاة الارض بقدمها الرقيقة وقالت فى توسل .

— أرجوك تيجي معايا ..

— فين ؟

— هوه منتطرك فى المكان بتاعنا .

وكنّت لشدة تعبى قد أحسست بدوار عنيف ، والحجرة الصيقة راحت تدور بى كالمرجيحة ، فجلست على مقعد ، ومددت قدمى الى أقصى ماأستطيع ورحت أدعك بأصابعى جلد وجهى الذى كان لفرط تعبى كأنه جلد مملح ، ونظرت بعينين مجهدتين الى الفتاة الصغيرة الرقيقة التى كانت ماتزال واقفة مكانها تنظر نحوى فى اضطراب ، وخيل الى اننى أحلم ، والا . . فأى شىء كل هذه الإلغاز ، والبنت الصغيرة وأخوها الذى يريدنى ، لأقريبها ، هذا المجهول الذى ينتظرنى فى « المكان » ويرجونى أن أذهب معها . .

ودعوتها بإشارة الى الجلوس ، فجلست على الفور دون مناقشة ، وأفهمتها اننى لا أستطيع الذهاب معها قبل أن أعرف كل شىء عن هذا المجهول الذى ادعت انه أخوها ، ثم قريبها واننى حتى لو عرفت فاننى لاأستطيع أن أذهب معها هذه اللحظة لاننى متعب بعد ليلة عاصفة لم أذق فيها طعم النوم .

ونظرت الفتاة نحوى نظرة غاضبة . . . وخلت أن الدموع على وشك أن تنهمر من عينيها الجميلتين الصغيرتين وقالت وشففتها وترتعبان من فرط الاضطراب :

- الحقيقة هو مش قريبى ، هو قائد الكتيبة بتاعتنا ..
وبددت كلماتها الاخيرة تعبى كله ، ونظرت اليها بعينين
محملقتين ، وقلت وكأنى لا أصدق نفسى :

- كتيبة ايه ؟

وردت الفتاة فى هدوء :

- هو هيقولك كل حاجة ..

وقلت أستحشها على الكلام

- هو مين ؟

- حسين ..

- بيشتغل ايه ؟

- ظابط فى الجيش ..

- وهو فين دلوقت ..

- عند أبو سلطان ..

وسحبت البنث من يدها ، وغادرنا الفندق على عجل ، وركبنا
أول سيارة الى أبو سلطان . وخلال الطريق الى أبو سلطان ظلت
البنث صامته لاتتكلم وراحت تنظر من نافذة العربة ساهمه
تحديق فى الأفق البعيد ، وكانت سيارات الجيش الانجليزى
تلتقى بنا على الطريق وهى تجرى بسرعة الطيارة فتنظر نحوها
ثم تتابعها بعينيهاتى تختفى عنا فى الطريق المضاد . واذراحت
سيارتنا نتهادى على شاطئ بحيرة التمساح وقرية أبو سلطان
أصبحت على مرمى البصر ، سألتها فى اهتمام :

- انت م الاسماعيليه ؟

واكتفت بالنظر نحوى ، ثم هزت رأسها بالايجاب ، وقالت
بعد فترة صمت طويلة :

- فى المدرسة الثانوية ..

ثم لاذت بالصمت مرة أخرى ، وراحت تحديق من خلال النافذة
الى الفضاء البعيد وعندما دخلنا « أبو سلطان » أشارت للسائق
بالوقوف عند بيت على الطريق وبعد أن نقدت السائق أجره ، عاد

من حيث، أتى ، بعد أن غمز بعينه ، متمنيا لى يوما جميلا مع
البنات الصغيرة . فقد أدرك من المناقشة التى دارت بينى وبينها
أثناء الطريق ، اننا التقينا لأول مرة ، وائنى غريب عن المدينة ،
أهبل ، لأدرى الى أين تقودنى هذه البنات المفجوعة ، ولعل هذا
هو السبب الذى دعاه الى أن يطلب منى ضعف الاجر الذى اعتاد
أن يتقاضاه فى مسافة مثل هذه بالضبط !

وعندما حاولت دخول البيت الذى توقفت العربة أمامه ،
منعتنى الفتاة من الدخول ، ثم قادتنى عبر القرية الى بيت آخر
يقف على ربوة ، مطلا على الصحراء الممتدة أمامه الى مالانهاية ،
متدرجا مع الربوة من القمة الى السفح حتى شاطئ البحيرة ،
يلتف حوله سور من الصخر يرتفع قليلا عن قمة رجل وتحيط
به حديقة مترامية الاطراف من شجر البرتقال ، يتخللها بعض
أشجار النخيل ، ولكنها كانت قصيرة كأشجار البرتقال ، رشيقة
بالرغم من ذلك ، وكان السور الصخرى يفصل بين البيت
والبحيرة ، وثمة باب واسع فى منتصف السور مفتوح على
مصراعيه ، والبحيرة تبدو من خلاله ، رائعة كالعهد بها دائما ،
هادئة كأنها ميدان فسيح مرصوف بأسفلت أزرق اللون ، وكانت
الفيللا التى تقوم وسط الحديقة صغيرة تهدم بعض جوانبها ،
تحطم زجاج نوافذها ، والبقية الباقية منه فقدت خصائص الزجاج
واستحال لونها الى أخضر قاتم ، وقد نبتت عليه الطحالب ، ونمت
حوله أعشاب غريبة كريهة الرائحة وكان كل شئ يبدو مهجورا
ولا أثر لأحد ، واستمهلتنى الفتاة لحظة ثم صعدت الى الفيللا ،
وعادت بعد قليل يتقدمها شاب بالبنطلون والقميص يمضغ بين
فكيه بقايا طعام .

وقال وهو يمد يده نحوى وبصوت غير واضح :

— أهلا ، أنا حسين .

كان يبدو فى الخامسة والثلاثين ، زحف الشيب على فوديه ،
وزحف الصلع على مقدمة رأسه ، وفى وجهه العريض ندبة

غائرة من أثر جرح قديم ، وقال وهو يدعوني الى تناول طعام الغداء :

- تأكل لقمة معنا ..

وعندما اعتذرت له لعدم استطاعتي لاجهادى الشديد ، قال فى بساطة ..

- طيب تحب تقعد هنا والا نطلع فوق ؟

وعندما اقترحت عليه أن نجلس مكاننا التفت نحو الفتاة التى كانت تقف على مقربة منا ، وقال وهو يبتسم فى حنان .
- هاتلنا كراسى هنا يا فوزية .

وتركنا فوزية وغابت داخل الفيلا لحظات ، ثم عادت ومعها مقعدان ، ثم همست فى أذن حسين بكلام لم أتبينه ، وهز حسين رأسه موافقا ، وعندئذ انصرفت فوزية خارجة من الفيلا سالكة نفس الطريق الذى جئنا منه ..

وكان حسين الذى راح يهبط الربوة الى نهايتها صاحب مقعده ، تاركا لى مهمة سحب المقعد الآخر ، قد اختار مكانا جلستنا تحت أشجار البرتقال المحملة بالثمار ، وعندما أقيمت بنفسى على المقعد أدركت أننا لانجلس فى هذه البقعة بالذات من باب المصادفة ، فقد كان المكان الذى اختاره حسين يسمح لنا برؤية الطريق ، والبحيرة ، والفيلا ، وكل شبر فى الحديقة ، واذا أصبحت أنا وحسين وجها لوجه لا يفصل بيننا الا شبر من الارض وبعض أغصان شجر البرتقال التى تدلت أكثر من اللازم ، راح حسين يحكى وأنا ساهم وبصرى مشدود نحو الارض ، ولم يكن حسين فى حاجة الى مقدمات ، فقد تعارفنا منذ اللحظة الاولى ولم يكن يبدو عليه أدنى أثر للاضطراب وكانت نبرات صوته عميقة وهادئة ، وكان من هؤلاء الرجال الموهوبين الذين تحسن نحوهم بألفة شديدة منذ أول لقاء ، وتناول حسين فى حديثه كل شيء ، عدد الهجمات التى شنّها على المعسكرات ، عدد القتلى الانجليز الذين ذبحهم رجاله .. انتصاره الباهر فى معركة أول أمس .

مشاريعه فى المستقبل ، وعندما انتهى من سرد كل الحقائق ،
سألنى وابتهامة عذبة ترتسم على محياه ..

- تعرف كام راجل معايا على كده ؟

- كام ؟

- خمسين ..

- كلهم رجاله ..

- لأ .. بس الستات ما بيعاربوش معانا لسه ما هماش قد

الحكاية دى ..

ثم ضحك ضحكة عريضة قبل أن يستأنف حديثه قائلا :

- بكره يحاربو ، دول أجدع م الرجاله ..

ثم روى باختصار مهمة النساء فى الكتيبة ، والاعمال التى
قمن بها ، ثم لوى عنقه وأشار نحو الخارج ، وقال وعيناه
تلمعان :

- فوزية دى بقالها يومين مادقتش الاكل ..

ثم عاد الى هدوئه ، سارحا ببصره الى أسفل الربوة ، خلال
انباب المفتوح على البحيرة ، يرقب ببصره الثاقب بعض المراكب
الصغيرة تجوب شواطئ البحيرة على مهل . وعندما انبعثت من
داخل البحيرة ضجة مفاجئة ، هب واقفا ، ومد رأسه الى الامام
وقد أفسح له مكانا بين الاغصان المتشابكة ، وأثارنى اهتمامه ،
فلوبت عنقى نحو البحيرة ، وأدركت أن الضجة التى انبعثت منذ
لحظة مصدرها لنش يتحرك بسرعة على صفحة الماء فى طريقه الى
قلب البحيرة . ولم يكن على ظهره أحد من الرجال ، وليس على
جوانبه علامة تميزه ، ولم يعد حسين الى مقعده الا بعد أن اختفى
النش عن الانظار . وعندئذ قلت لحسين أسأله فى اهتمام :

- فيه حاجة ؟

وهز رأسه بالنفى ، وقال فى بساطة :

- دا لنش غريب بقاله كام يوم بيلف حوالينا ..

- تفتكر فيه حاجة ؟

— دا لننش انجليزى ومسلح ..
وقلت مندهمشا :

— مسلح ازاي ؟ دا مافيش عليه حاجة ..
وضحك حسين ضحكة خفيفة وقال :

— الحاجات دى ماتبانس ، أنا كنت فى الجيش وعندى خبرة
فى المسائل دى !

وأثارت انتباهى عبارة « كنت فى الجيش وعندى خبرة فى
المسائل دى .. الآن ، وأردت أن أحسم الامر فسألته :

— انت مش فى الجيش دلوقت ..

— لا ، أنا فى الاستيداع ، أنا الى طلبت عشان أحارب هنا ..
ثم تعرض لموقف الجيش فى المعركة . ووقفه على الحياد بين
الشعب والانجليز ، وقال حسين فى حدة لم تكن أبدا طابع
حديثه :

— الناس بتشتتم الجيش فى كل حنة دلوقت . والناس
معذورين ، بس كان لازم يفهموا الحقيقة الاول ، الجيش الى
واقف يتفرج دا مش الجيش الحقيقى ، دا جيش الملك واللواءات
الكبار ، انما الجيش الحقيقى بيغلى ..

ونظرت نحو حسين وقد بدا على وجهى عدم الاقتناع ، وقلت
وفى لهجتى نبرة ساخرة :

— وفين الغليان ده ؟ الناس مش شايفين حاجة .
وقال حسين وهو يعرض على شفتيه :

— الجيش الحقيقى مافيش فى ايده حاجة ..
ولاذ بالصمت لحظات قبل أن يقول ..
— انما

ثم كف عن الكلام فجأة .. ورفع يده فى الهواء وخطبني
بها على فخذى ، وقال وهو ينهض واقفا :

— معلش ، بكره تتعدل ..

وسار حسين امامى هابطا الربوة نحو البحيرة ، ممهدا نفسه

طريقا بين غابة البرتقال والنخيل ، مصدرا أوامره لى بين الحين والحين بأن أتجنب حفرة فى الطريق ، أو بئر ماء أخفته الاعشاب البرية المتوحشة عن العيون ، واجتاز حسين الباب المفتوح على البحيرة واتجه نحو الشاطئ . ووقفت أطلع اليه وهو ينظر نحو سور الحديقة الذى يقف بعيدا عن الماء بـ متر واحد ، ولم يكن ثمة حراسة ولا حراس ، وعندما أبديت له هذه الملاحظة ، ضحك بصفا وقال فى تهكم :

— احنا مش منتظرين هجوم بحرى علينا ، انت فاهم احنايه ، قاعدة عسكرية ؟ داخنا ناس على باب الله .

وتذكرت عش حمودة على الشاطئ الآخر من البحيرة ، ورجال حرسه الفولاذى ، ومدافعه المنصوبة حول العش ومصوبة نحو حلقة السمك لصده هجوم الانجليز !؟

وقال حسين وهو يعبث بإبهام يده اليسرى فى صدره النافش الغزير :

— ان قوتنا فى اختفائنا ، نضرب ونجرى ولو الانجليز عرفوا مكان البيت ده ، نسيبه على طول . احنا مش زى حمودة .

ثم ابتسم ابتسامة عريضة ، وقال وشبح الابتسامة لايزال مرتسما على شفتيه :

— حالته شكلها ايه ؟

قلت :

— سيئة . .

وقال حسين فى صدق :

— ربنا يشفيه . .

وحتى هذه اللحظة كان ثمة وهم يسيطر على عقلى أن حسين استدعانى الى عشه ليستعرض أمامى كتييته ويستعرض قوته ، ثم يطلب منى أن أكتب عنها فى الجريدة أقدمها الى القراء . وأكد هذا الوهم عندى غمزته التى وردت فى حديثه « احنا مش زى حمودة » فهو منافس على أية حال ، وهى منافسة لم تكن شريفة

أبدا ، فحمودة لم يطلق رصاصة ولم يدخل معركة • ومع ذلك حصل على الشهرة كلها ، وفاز بالمجد كله ، وكل الأعمال التي تمت كانت باسم حمودة ولحسابه الخاص • •
وقلت أسأله لأحصل على نتيجة تتفق مع الخاطر الذي في نفسي •

— اسم الكتيبة بتاعتكو ايه ؟
وضحك ضحكة عالية اهتز لها كيانه كله ، وقال بعد أن هدأت عاصفة الضحك التي اجتاحتها فترة طويلة :
— اسمها الأسد المرعب • •
ثم استأنف حديثه ساخرا :
— الكتياب مالهاش أسماء يا أستاذ • • هيه ايه ؟ فرق كوره !
احنا مالناش اسم • •

ثم سكت حسين وقد تبدلت أساريره كلها ، وسحنته انقلبت ، ولون وجهه استحال الى سواد ، وعينه ازدادت لمعانا وازدادتا بريقا • وازدادتا بروزا حتى خلت أنهما من زجاج ، وقال والاسى يعصر قلبه :

— اذا كنت عاوز اسم لازم تسميها كتيبة ابراهيم • •
وقبل أن أسأله عن يكون ابراهيم هذا تطوع هو بالاجابة :
— دا الوحيد من رجالتنا اللي استشهد في معركة أول امبارح •
ثم هز رأسه آسفا وقال :
— سميها كتيبة ابراهيم ، الله يرحمه •
قلت وأنا أحاول أن أصل الى النتيجة التي أتوق الى الوصول اليها :

— أنا كنت عايزك تقوللى شوية معلومات عشان أكتبها • •
ونظر نحوى فى حدة ، وقال فى حزم :
— لا أرجوك ، أنا طلبتك النهارده عشان كده ، احنا مش عاوزينك تجيب سيرتنا ، واحنا يهنا تكتب عن حمودة ، وكتيبته
يا أحسن • • مفهوم ؟

وقلت على الفور :

- متس فاهم حاجة خالص

- لازم تكتب عن حمودة ..

- افرض حمودة مات ..

- يبقى لازم تشوف حد تانى تكتب عنه ، ايه رأيك فى
هتجى بدير ؟

- جدع غلبان ..

- أنا مايهمنيش غلبه ، ايه رأيك فيه ، جاسوس ؟

- لا ، دا جدع طيب وشريف ، بس مايقدرش يعمل عمل

كبير ..

- مايقدرش يمثل دور قائد كتينة بعد حمودة ؟

- ماقدرش أعرف ..

- لو قدر ، يبقى ده فى حد ذاته عمل كبير للغاية

ثم قال وهو يستدير عائدا نحو الأفيلا :

- تعالى أعرفك بالناس اللى معانا .

وعندما اقترب من المبنى أطلق صغيرا صغيرا وقيعا من فمه ،
وعلى الفور بدأ الناس يتوافدون علينا ، وكانوا جميعا بالنطلون ،
والقميص رغم البرد الشديد ، بعضهم شبان فى مقتبل الحياة ،
وبعضهم تخطى مرحلة الشباب الى منتصف العمر ، وصافحونى
ببساطة ، ووقفوا حولنا فى هدوء لا تعظيم سلام ، ولا حركات
عسكرية ولو لم أكن أعرف حقيقة أمرهم ، لظننتهم مجموعة من
الطلبة فى رحلة مدرسية . ثم اختار حسين مكانا على الحشيش ،
وقال وهو ينحسبها جيدا بيده .

- تقعد هنا ..

وجلسنا فى حلقة ، وجال حسين ببصره فى الحاضرين .. ثم
قال متسائلا :

- أمال البنات فى ؟

ورد أحدهم

- بيطيخوا ..

وقال حسين وهو يتشمم فى الجو أى اثر لرائحة طعام .
- كده ، عال ، بيطيخوا ايه ؟

- بطاطس ..

وقال حسين وهو ينظر نحوى ..

- حظك بمب ، تاكل معنا بقى .

وعندما حاولت الكلام معتذرا رفع يده الى أعلى يحذرني من
الكلام ، وقال وهو يعتدل فى جلسته :

- دا أمر ..

وضحك واحد من المجالسين ، وقال لحسين :

- انت مش هتبطل أوامر بقى ..

وقال حسين وهو يضحك :

- لما الحرب تبطل ..

وعلق واحد آخر صغير السن ضاحك الوجه دائما :

- ياخرايى . يبقى انت مش هتبطل الاوامر أبدا ..

وضحك الجميع ، ثم تمددوا على العشب ، وجلست أحكى لهم
بالتفاصيل كل الذى دار بينى وبين حمودة ليلة الامس ، منذ أن
خرجنا من قصر حمزة بك الى هزار حمودة البايخ مع عساكر
الانجليز ، الى افتراقنا عند باب الفندق ، ثم عودته آخر الليل ،
مُثخنا بالجراح ، مغمى عليه لكثرة ما نزف من الدماء . ورويت لهم
قصتنا مع الطبيب البيطرى العجوز ، وكيف أكله الرعب عندما
طرقت عليه الباب امرأة شقراء كالحليب ، لتجره الى حجرة
يكتشف أن بها جثة تنزف دما ، وحكايته مع ابنه الذى هرب
من القاهرة ليحارب الانجليز فى القناة ، وكنت أضحك خلال
الحديث ، فتجاوبنى الضحكات من الموجودين ، ولكن عندما
وصلت الى هذه النقطة من الحديث لم يستجب أحد لضحكاتى ،
وعندما نظرت نحو حسين ، اكتشفت انه يطيل النظر نحو شاب
جلس فى الحلقة ورأسه يتدل على صدره وأصابع يده تنكش فى

طين الارض • وأدركت أنه المهندس ابن الطبيب ، وعندما غمزت
لحسين بعيني عما يدور فى خاطرى ، هز رأسه بالايجاب • وعندئذ
لزمت الصمت لحظة ، ثم انحرفت بالحديث الى موضوع آخر
بعيد ••

ولم تطل جلستنا بعد ذلك ، أمر حسين رجاله بالتأهب
للتدريب ، فتفرقوا فى لحظة ، وبقيت أنا وحسين صامتين لحظات
حتى جاءت فوزية مرة أخرى تحمل صينية وكوب شاي واحد
قدمته لى ، واستأذن حسين فى الانصراف ليشرف على التدريب ،
وقال وهو يجرى نحو المكان الذى تجمع فيه الرجال :

– خللى بالك منه يا فوزية ، أحسن يكتب عنك حاجة •

وردت فوزية فى جراءة لم ألمسها خلال الطريق :

– لا ماتخافش ، مش هيقدر يكتب حاجة ••

نظرت نحوى وقالت :

– أنا قرئت لك كل حاجة كتبتها عن المعركة ••

ثم ضحكت ضحكة جميلة ، أجمل ضحكة سمعتها فى حياتى ،
وقالت :

– مش عيب تكتب حاجات بكش ••

قلت محتجا وبطريقة حاولت أن أبدو بها أكبر سنا مما أنا :

– بكش ازاي ؟

– كل الى كتبته عن حمودة بكش ، دنا أعرف حمودة وأنا

قد كده ••

كانت تتكلم بسداجة وبصراحة شديدة ولكنها كانت دائما
جميلة ، وجمالها من النوع الذى لا يمكن أن يوصف ، فهو ليس
فى تقاطيعها ، ولا فى حجمها ، وانت لاتستطيع أن تحدد أمكنة
الجمال فيها ، ولكنه موجود ، أين ؟ لاتستطيع أن تحدد مكانه ،
مهما حدثت فيها ••

ويبدو أن البنات كلهن حلوين ، ليست هناك بنت قبيحة ،
وبنت جميلة ، يجوز هناك سيدة جميلة ، وسيدة متوسطة ،

وسيدة دميمة ، ولكن الحال يختلف مع البنات كل بنات السادسة عشرة والسابعة عشرة وحتى العشرين ، كلهن أجمل من السيدة ريتا هيوارث ، وأطعم من السيدة جريتا جاربو ، ورحت أدق النظر فى وجه الخلوة فوزية ، وكانت أصوات الرجال تملأ الجو حولنا ، والليل بدأ يزحف على الكون ، والسحاب الاسود الثقيل راح يسرع بطرد النهار اذ حجب بقسوة الشعاع الخافت لضوء الشمس . . وهاجت مياه البحيرة تحت تأثير الرياح الشديدة التى هبت فجأة تندفع معها أطنان من رمال سينا وراحت أشجار البرتقال الرقيقة تهتز بشدة وتتمايل ، فتلطم جذوع النخيل الثابتة كأنها أعمدة من حديد مدكوك فى باطن الارض .

ولا أدري لماذا أحسست بالتعب فجأة . . كل حوادث الامس وأول الامس واليوم تضافرت كلها ، واتحدت كلها وركبت فوق ظهري وكبست على نفسى . وأطبقت على عنقى وحنقتنى ، وخيل الى أن الرجال الذين يتدربون يعملون بشدة ، وأن طلقات مدافع ضخمة تدك قلعة بالقرب منى ، ووجه فوزية الذى كنت أحقق فيه . لم يعد متسقا ، ملامحها كبرت واختلفت ، وشعرها الاسود الناعم المعقود فى صغيرتين على كتفها يشبه دم حمودة الذى سال على أرض الحجرة ليلة الامس وأحسست بنار تأكل جلد يدي ، ولم أدرك أن كوب الشاي قد سقط من بين أصابعى ، وأحسست أن جدارا يسقط فوق رأسى ، وانى أسقط على الارض ، ولم أعد أدرك شيئا من حولى ، فقد أغمى على .

الفصل الثاني عشر

عندما أفقت من غيبوبة الطويلة فى الصباح أحسست بصداع حاد كأن حزاما من الصلب يلتف حول رأسى ويكاد يفتت عظامى . ولم أكن فى حجرتى بالفندق وإنما فى حجرة أخرى عارية من الأثاث ، ليس فيها الا سرير صغير يكاد لفرط ضآلته لا يتسع لجسمى النحيل ، والجدران كانت كالحة فقدت لونها الاصلى لكثرة ما علاها من تراب ، وثمة نغبشة على الحيطان عندما دقت النظر فيها أدهشتى انها على شكل حيوانات وطيور . . . وأمامى مباشرة كانت النافذة المفتوحة تسمح لى برؤية البحيرة الممتدة فى سكون وجلال الى ما لانهاية ، وعشرات من القوارب الصغيرة تتهاذى على صفحة الماء فى دلال . .

وعندما رأيت وجه فوزية الهادى الجميل تذكرت كل شىء . منذ أن جئت معها الى هذا المكان بالامس ، حتى سقطت على الارض فاقتدا الوعى وكانت فوزية تجلس على الارض تنظر نحوى فى هدوء وأصابها تعب بعمل بانتظام وبلا توقف ، وكرة ضخمة من

الحيط تنام فى حجرها ، بينما مشروع « بلوفر » يتبدل من نهاية
الحيط .. وعندما التقت عينانا رسمت على شفقتها ابتسامة
جميلة .. وهتفت تسألنى فى همس مسموع :

— كويس ؟

وهزئت رأسى فى اعياء ، وتشاءبت فى صوت مسموع ،
وأخذت أنظر إليها فى اعجاب شديد . وعندما هبت خارجة
من الحجرة لتسقينى ، رحت أتتبعها وهى تخطر فى قميص نومها
الاصفر .. وقد عقدت شعرها فى صغيرة واحدة طويلة تدلت
من قفاها وراحت تتأرجح على عنقها العارى الجميل . وقفزت
جالسا فى فراشى انتظر عودة فوزية . هذه البنت الحلوة الصغيرة
كقطعة السكر لماذا كانت تنظر نحوى هكذا فى شغف . انها
تلميذة صغيرة ولعلها لم تصادف رجلا فى حياتها القصيرة ، ولا بد
أنها تشعر نحوى الآن باحساس غريب جعلها تنظر نحوى
ساهمة ، ولا بد أن قلبها الصغير كان يخفق وقتئذ بالحب !!

ولكن متى وأين وكيف نشأ هذا الحب فى قلب فوزية ؟ اننى
لم أرها الا بالامس ..

ولم أنفرد بها الا للحظات ، ولم يكن بيننا الا حديث الحرب
والضرب . فهل هذه المقدمات تكفى لتقع فوزية فى الحب ؟

ولكن من قال أن الحب يحتاج الى مقدمات ، انه ليس نظرية
فى الجبر تحتاج الى مقدمات لكى تنتهى الى نتيجة ، انه احساس
يشب فجأة بين الجوانح ويضطرم فجأة فى الفؤاد ، لا يعترف
بمنطق ولا يحتاج الى وقت ..

وهذه البنت الصغيرة التى تحيا هنا فى مغامرة مثيرة لا بد
وأنها رسمت فى خيالها فصول هذه المغامرة على النحو الذى
تشتيه ، ولا بد أنها اشتهدت مع المغامرة الحربية مغامرة عاطفية ،

وليس هنا من ترشحه الظروف لان يلعب هذا الدور مثلي أنا .
فأنا عابر سبيل التقت به فى ظروف غامضة . كأننا نلعب
دورا فى رواية مرسومة ، ولعل ذلك هو الذى حفزها الى التعلق
بى ، والا فلماذا اهتمت بتمريض أثناء غيبوبتى ؟ ولماذا انفقت
الليل ساهرة الى جوار فراشى ؟ ولماذا كانت تنظر نحوى فى
شغف عندما أفقت من نومي هذا الصباح ؟
واذن أقنعت نفسى بأن فوزية قد وقعت فعلا فى حبى ، فقد
قفزت من فراشى لالقى نظرة فى زجاج النافذة لأطمئن على
شكلى ، وهالنى أن شعرى كان منكوشا على نحو فطيع ، ووجهى
شديد الشحوب ورحت أبحث عن مشط أرتب به شعرى دون
جدوى ، ولم يكن هناك مفر من استعمال أصابعى الخمسة لانجاز
هذه المهمة . .

وعندما أصبح كل شئ على ما يرام بالقدر المستطاع ، عدت
الى الفراش وجلست أنتظر فوزية . ولم تمض لحظة حتى ارتفع
وقع أقدامها وهى تخطو نحو الحجرة ، وعندئذ أرسلت بصرى
عبر النافذة الى البحيرة لابدو فى هيئة المستغرق فى تفكير
عميق ، وقد خطر فى ذهنى أن منظرا من هذا النوع قد يثير
انتباهها ، وقد يدفعها الى سؤالى عن سبب شرودى ، وعندئذ
أستطيع انتهاز الفرصة السانحة لغزو قلبها الصغير .
وعندما دخلت الحجرة كان ظهرى لها ووجهى نحو البحيرة .
ومضت لحظات دون أن تتكلم ، فتأكد لى أنها تتأمل منظرى
الذى تعمدت أن أبدو فيه ، وخطر لى أن أضيف الى الدور بعض
الترتوش لكى يبرز على الوجه الاكمل فتنهدت بعمق ورحت أزفر
بشدة . وعندئذ ارتفع من خلفى صوت غليظ يسألنى فى سخريه
مرة :

— ايه ، مالك ؟

وسقط قلبى فى ركبتى ، فقد كان صوت حسين ، وعندما
استدردت نحوه ، مد يده بكوب الماء الذى كان يحمله ، وقال
وهو يقفز بجوارى على الفراش :

— دا انت كنت زى الميت ، انت ايه ؟ مانمتش بقالك سنة ؟
وقذفت بكوب الماء فى حلقى باضطراب ، وعندما سألنى عن
سر تنهدى خيل الى أنه يعرف سرى ، ولم أجبه على سؤاله . . .
اكتفيت فقط بشكره على رعايته لى . واستأذنته فى الذهاب الى
الاسماعيلية ، وعندما سألنى عن سر اسراعى فى العودة ، أجبت
بأن مشاكل فى الدرجة الاولى من الاهمية تنتظر عودتى فى
المدينة . . . وعندما انتهيت من حديثى ضحك بصوت مدو وقال
وهو يهزنى من كنفى :

— ايه ، الحبايب وحشوك قوى ؟
وتجاهلت اشارته الى « الحبايب » ، وقلت فى لهجة جادة :
— عاوز أشوف حمودة عمل ايه . . .

وفال حسين وهو يقفز من الفراش الى الارض . . .
— العملية نجحت ، بس هو لسه حالته تعبانة . . .
— عرفت مين ؟ . . .

وقال وهو يضع كوب الماء على حافة النافذة :
— هيه حالة حمودة سر حربى ؟ البلد كلها عندها خبر . . .
وسادت بيننا فترة صمت كدت خلالها أسأل حسين عن فوزية
. . . ولكن الكلمات ماتت على شفتى . . . ترى أين ذهبت ؟ . . .
ولماذا جاء حسين بكوب الماء ولم تأت هى ؟ واذا كانت تحبنى
حقا فلماذا لم تنتهز الفرصة وتنفرد بى ؟ وهل ما تخيلته كان
صحيحا أم مجرد أوهام وخيالات ليس لها ظل فى الحقيقة . . .
وهل أنا هايف الى هذا الحد ، أم ساذج ؟ أم محروم ؟ وهل أنا
فى معركة أم فى مغامرة عاطفية ؟
ونظر حسين نحوى وقد راعه صمتى واطراقى نحو الارض
وقال يسألنى :

— انت مالك مش على بعضك ؟
— أبدا ، بس داينخ شوية . . .

— دانت نايم نوم ، قوم اغسل وشك وانت تفوق . ونهضت
فعلا من فراشى ، واغتسلت ، ثم ارتديت ملابسى ونزلت مع

حسين الى الحديقة • وكان الجميع قد سبقونا الى هناك وأترشوا الارض فى حلقة وطعام الافطار ينتظر امامهم حتى نحضر فنبدأ جميعا فى الاكل • وكانت فوزية تجلس فى مواجهة اثنى عشر الطعام ، ولكنى تحاشيت النظر اليها أو الحديث معها • وعندما كانت ضحكات الجميع تجلجل فى الجو ، كنت أكتفى أنا بالنظر نحو الارض •• ولكن عندما راحت تتبادل الحديث والنكات مع شاب صغير كان يجلس الى جوارها رمقتها بنظرة نارية قاسية ، جعلتها تقطع الحديث فجأة ، ثم راحت تختلس النظر نحوى بين الحين والحين •• وقد أدهشها مسلكى الغريب نحوها ••

وعندما انتهينا من الطعام نهض الجميع الى ركن بعيد فى الحديقة يستمعون الى أحدهم يشرح لهم طريقة استخدام قنبلة يدوية ، بينما بقيت أنا وحسين معا نرتشف أكواب الشاي وعيوننا متعلقة بالأفق المنطبق على ماء البحيرة • وقال حسين وقد انتهى من شرب الشاي :

- حتمل ايه مع فتحى ؟
- قلت وأنا سارج فى فوزية ••
- فتحى مين ؟
- فتحى بدير ••
- ماله ••

- انت نسيت الى قلناه امبارح ، عاوزين واحد يحل محل حمودة ••

- قلت وقد ازددت انتباها لحسين ••
- ليه دا كله ؟

- لا بد من واحد يلعب الدور ده ، من مصلحتنا الانجليز مايعرفوش فى القوة الحقيقية ••
- طيب وفتحى هيعمل ايه ؟
- ولا حاجة ، يبقى قائد كتيبة وحوش الجبال ••

— طيب وهيه الكتيبة هتعمل ايه ؟

— البركة فيك انت ..

— مش فاهم ..

— احنا نعمل ، والجرايد تنشر صورة فتحي وبطولة كتيبته .

— وحدجت حسين بنظرة طويلة ، وقلت فى غيظ ..

— انت بتهزر ..

ورد فى انفعال :

— لأ ، أنا بقولك الى لازم يتعمل ..

— طيب والسلاح والفلوس ، فتحي يجيب مين ..

وقال حسين على الفور .

— مدام ريتا وحمزة بك ، يتصرف زى حمودة ..

وبهت عندما ورد اسم مدام ريتا وحمزة بك فى الحديث ؟

هل يعرف العلاقة بينهما وبين حمودة ؟ هل يعرف حسين مدام

ريتا وحمزة بك ؟ هل يعرف العلاقة بينى وبين مدام ريتا ؟

وأحبست بكراهية نحو حسين ، انه يعرف أكثر مما ينبغى ،

بينما لا أعلم عنه شيئا ، وهو يتكلم بهدوء وببساطة ، وبلا انفعال

بينما هو يملئ شروطه ويلقى أوامره . وأحسست بالضيق

لان حسين يعاملنى كما لو كنت جنديا فى كتيبته ..

فقلت فى ضجر شديد :

— وأنا هاعمل ايه لفتحي ..

وقال حسين فى بساطته المعهودة :

— تقنعه ..

— واذا ماقتنعش ؟ ..

— تحاول

ولزمت الصمت لحظة قبل أن أقول :

— أنا هاحاول ، بس أنا ما عنديش أمل ..

ورد حسين فى نفس اللهجة التى تثير غيظي :

— لازم فتحي ياخذ مكان حمودة ..

وقبل أن ينتهى من حديثه كان قد نهض من مكانه واتجه

الى حيث كان الجميع يجلسون على الارض يستمعون الى الرجل
الذى انهمك في الشرح واذ خلوت لنفسى رحت أفكر فى
حسين ، الغامض كالكون ، العميق كالبهر ، الهادى • كشجرة
جميز عجوزة فى يوم صيف قائظ ..

وشعرت بالاختناق وأنا جالس أهدق فى البهيرة ، وتمنيت
لو استطعت الهروب من هذا المكان الكئيب لادفن نفسى فى
أحضان مدام ريتا ، وأفقد وعيى على مائدة حمزة بك ..

وتذكرت تلك الايام الحالية عندما كنت أدخل عش حمودة
فى الليالى المقمرة فيهب الجميع وقوا فى احترام شديد ، ثم
تنهال الأوامر من حمودة ، ويتحرك الجميع يمينا وشمالا ، ثم
نقضى الليل فى ثرثرة لذينة قبل أن أغادر العش فى طريقى الى
الفندق ، وحمودة يزحف الى جوارى لا يستطيع أن يرى أبعد من
مواطئ قدميه لشدة الانسجام ، وحرسه الحديدى شاهر مدافعه
كاننا موكب الخليفة يتفقد أمور الرعية فى الليل ولكن لشدة
ماتغيت الامور فى المنطقة ، حمودة ينام فاقد الوعي فى المستشفى
الاميرى ، وفتحن لايدرى أين هو الآن ، لعله سارح مع رتيبة فى
مكان ما ، وحمزة بك اختفى هو الآخر ، ومام ريتا لعلها تبحث
عنى الآن ، وأنا هنا ضائع فى قصر مهجور على شاطئ البهيرة
فى قرية أبو سلطان !

وانتبهت على صوت يرتفع من خلفى :

— قاعد لوحدك ليه ؟

وعندما نظرت خلفى رأيت فوزية تبتسم ، ووجهها شديد
الجمال ، شديد الصفاء ، وقالت وهى تجلس الى جوارى :

— بتفكر فى ايه ؟

ولم أرد عليها ، اكتفيت بالنظر نحوها فترة طويلة ، وشعرت
بالخجل من نظراتى فحولت بصرها عنى ، والت وهى تنظر نحو
الأرض :

— انت راجع الاسماعيلية النهارده ؟

وقلت وأنا أنظر اليها كما يفعل البطل فى السينما مع
البطلة :

- الحكاية دى تهيك قوى ..

ويبدو انها لم تفهم ماأعنيه ، فنظرت نحوى فى سداجة
ارتسمت بوضوح على معالم وجهها الصغير ، وانكسفت من نفسى
فقلت محاولا تصحيح الموقف ..

- قصدى عاوزه حاجة م الاسماعيلية أعملها لك ..
وهزت رأسها الصغير البديع التكوين وقالت :
- متشكرة خالص ..

وجلست صامتة تنكش فى الارض بغصن مكسور من أغصان
شجر البرتقال فبدت كأنها طفلة صغيرة تلهو على أرمال الشاطئ ..
واحترت ماذا أقول لها . واهتديت أخيرا الى شئ يصلح للحديث
بينى وبينها . قلت أسألها فجأة :
- ايه رأيك فى حسين ؟

وكان السؤال مفاجأة شديدة لها ، وراحت تنظر نحوى فى
دهشة ، ثم قالت فى سداجة :
- راجل كويس خالص .

قلت وأنا أضحك :
- مانى عارف انه راجل كويس ، أنا بأسألك رأيك فيه ايه ؟
وقالت تستفسرنى عما أقصد :

- قصدك ايه ؟
- يعنى متواضع ، متكبر ، بخيل ، كريم ، شجاع ، جبان ،
ايه رأيك فيه يعنى ..

وصممت فوزية قليلا ثم قالت فى صوت حلو :
- راجل كويس خالص ..
وانفلتت منى ضحكة عريضة ، وتمنيت لو احتضنت فوزية
بين ذراعى وقبلتها قبله طويلة .

وعندما رفعت بصرى نحوها اكتشفت انها تنظر نحوى فى
غيظ شديد ، وقالت وهى تتفرسنى :
- بتضحك ليه ؟

قلت فى هدوء :

- أبدا ، أصلك ماجاوبتيش على سؤالى

وقالت ونظراتها تلفح وجهى كأنها أنفاس حارة

- عاوزنى أقولك ايه ؟

- ولا حاجة ..

ثم رحت أنظر مرة أخرى نحو البحيرة والمراكب التى تتهادى
على صفحاتها ، والشمس وقد أخذت تزحف من وراء الأفق سالكة
طريقها الأبدى فى جلال مهيب ، وشعرت بالاضطراب اذ خيل
الى أن فوزية غضبت لأسئلتى وضحكاتى المجلجلة . وشعرت
بالحزن لأنى لم أتعلم قبل سفرى الى هنا كيف أتعامل مع امرأة ،
.. لقد نشأت فى بيت كله من الرجال ، ولم يكن فى طفولتى غير
أبى وثلاثة من الصبيان هم أخوتى . ولقد فقدت أمى قبل أن
أعى الحياة ، وفقدت أختى الوحيدة بعد ذلك بشهور ، ولم أتعامل
قط مع امرأة الا كخادمة ، أو كأنثى ألتقى بها فى الظلام . ولهذا
السبب لم ألتق بامرأة الا وشعرت نحوها بأنها مجرد أنثى ، لم
تكن المرأة فى حياتى صديقة ولا زميلة على الإطلاق ، ولا أظن أن
الأنتى يمكنها أن تكون فى هذه الصورة على الإطلاق ، اننى لا أكاد
أتصور أن هذه البنت الصغيرة التى تجلس صامتة الى جوارى
قد جاءت الى هنا لتتشارك فى المعركة . انها هنا لسبب آخر ،
لابد انها على علاقة بحسين أو بأحد غيره من الرجال ، وهكذا كانت
رتيبة فى عش حمودة ، هكذا أيضا مدام ريتا فى فندق بالاس ،
والا فلماذا غضبت فوزية عندما سألتها عن حسين ؟
هل كشفت سرها بهذا السؤال العابر ؟ ولكن مالى أنا وفوزية

مادمت مجرد عابرسبيل لن أقيم هنا ، ولن نلتقي في مستقبل
الايام . .

ورحت أبحث عن طريقة لاسترضائها ، ولكنها أنقذتني من
هذه الورطة عندما سألتني فجأة :
- انت زعلت ؟

- أبدا ، أزعل من ايه . .

- عشان ماجاوبتش ع السؤال . .

- أبدا ، أنا أصلي عاوز أكتب موضوع عن حسين .
وابتهجت فوزية كثيرا عندما عرفت السبب ، وقالت في حماس
شديد :

- هوه راجل كويس خالص . .

وضحكت رغما عني ، وأدركت هي انها قالت نفس الشيء
الدى أضحكنتي من قبل . فضحكت هي الاخرى ضحكة طويلة ،
وقالت وهي تحاول أن تكتم الضحك :
- أصلي أنا مش عارفه أتكلم . .
- ومش عارفة تتكلمي ليه ؟

وقبل أن تجيبني ، انطلق صوت من خلفنا ينادي عليها ،
وعندما التفت نحو مصدر الصوت رأيت نفس الشاب الصغير
الذى كان بجوارها أثناء تناول الطعام ، والذي كان يبادلها
الحديث والنكات ، والذي من أجله رمقتها بنظراتي النارية فسكتت
على الفور . ونهضت فوزية تجرى نحوه ، وأخذها من ذراعها
وانتحي بها ركنا خلف أشجار البرتقال . واذا اختفت فوزية
والشاب عن عيني ، ألقيت بنفسي على الارض ، شاخصا ببصرى
الى السماء ، وابتسامة باهتة ارتسمت على شفتي ، مصدرها
رضائي الشديد عن نفسي . واعجاب لا حد له بفراستي التي
لاتخطيء على الاطلاق . وها هي الظروف تؤكد صدق نظرتي الى
الاشياء . فوزية هنا اذن من أجل هذا الشاب . ونحن هكذا في

الحياة ، نخلع على رغباتنا الشخصية صفات كبيرة وضخمة
لاتتناسب أبدا مع حقارة هذه الرغبات .
وغابت فوزية مع الشاب دقائق طويلة قبل أن تظهر مرة أخرى .
تجربى نحوى فى نفس النشاط والحماس ، واذا اقتربت منى قالت .
وهى تهم بالجلوس :

– الليلة دى فيه عملية كبيرة قوى ..
وكان من الطبيعى أن تقول فوزية هذا الكلام لتبرر موقفها
أمامى ، واذا لم تأت فوزية بخبر يهز أعصابى كهذا الخبر ، فأى
سبب دعاها اذن الى الاختلاء بالشاب خلف شجر البرتقال ؟
وأومات برأسى نحو الشاب ، وقلت فى نبرة ساخرة ..
– هو الى قالك ؟ ..
وأجابت على الفور :
– نعم ..

– وهو هيستنى هنا ، والا هيروح معاهم ؟
وقالت فى استنكار بالغ :

– يستنى هنا ازاى ، دا هو الدليل بتاع الكتيبة ..
– انت تعرفيه كويس ؟ ..
وقالت فوزية وهى تضحك ..
– دا أخويا ..

وقفزت جالسا على الارض ، وقد أحسست بكيانى يتضاءل .
وبحجمى ينكمش ، حتى صرت أصغر من حصاة ملقاة فى حديقة .
القصر المهجور . ولم أقو على النظر فى وجه فوزية ، ولم أرفع
بصرى من الارض حتى عندما قالت فوزية ..

– دا كان موظف فى الجيش الانجليزى اسمه سعد ..
ودون أن أستأذن من فوزية قمت واقفا متجها الى الشاطيء ،
فى خطوات عصبية .
وعندما بلغت شاطيء البحيرة رحت أقذف فى الماء الذى يلطم

وجه الشاطئ في رفق شديد بحفنة من الزلط كبشتها من الارض
عندما كنت نائما أنتظر فوزية . ورحلت أتمشى على الشاطئ بجيئة
وذهابا كأني نمر محبوس في قفص . وعندما نظرت الى حيث
كانت تجلس فوزية لم أجد أثرا لها هناك ، والحديقة بدت مهجورة
كأن أحدا لا يسكنها على الاطلاق ، وثمة ريح خفيفة راحت تحرك
أشجار البرتقال المثقلة بالثمار ، والسماء التي كانت شديدة
الزرقة من قبل ، اختفت خلف طبقة كثيفة من السحاب ، وأسراب
الطيور المهاجرة نحو الشرق تعبر البحيرة في صخب شديد .
وعندما انحنيت أغسل يدي في ماء البحيرة ، هتف حسين خلفي
فجأة :

- فتحي بدير هنا . . .

الفصل الثالث عشر

كانت مهمتى سهلة مع فتحى بدير ، وعندما حان موعد الغداء كنا قد وصلنا الى قرار ، ووافق فتحى وقلبه ينبض بالنشوة على أن يحل مكان حمودة . ولم يطلب شيئاً الا عدة بنادق ومدفع رشاش ، وعندما أجيب الى طلبه قال وهو ينظر نحوى :
- أنا هاعمل تطهير فى الكتيبة ! ..
ثم راح يشرح لنا هدفه من وراء هذا التطهير .

وأكد ضرورة هذا الاجراء لكى تتمكن الكتيبة من خوض المعركة على الفور ، وراح يعدد أخطاء سلفه حمودة ، وكيف كانت الكتيبة وسيلة الى حياة مترفة وثراء عريض ، وعندما نهضنا الى الغداء قال ووجهه شديد التجهم :

- بس افرض حمودة طلع م المستشفى يبقى العمل ايه ؟
وقال حسين فى هدوء :

- حمودة بديرى عليه لسه ، قدامه شهرين ع الاقل .
وكأن هذه الاجابة لم تطمئن فتحى بما فيه الكفاية ، فصمت قبل أن يقول فى اضطراب :

- كده ، طيب ..

وعندما انتهينا من الغداء ودعنا فتحى وداعا حارا ، ثم قال وهو يعانق حسين .

- أنا هابدأ المعركة من بكره ..

وكان فتحى قد جاء فى الصباح الى قرية أبو سلطان مع الدكتور العجوز الذى استنجدنا به فى فندق بالاس لانقاذ حمودة .

واذ التقى الرجل بابنه الوحيد عانقه طويلا وبكى بحرقة ، ثم سحبه الى ركن فى الحديقة وجلسا معا يتهامسان . غير أن صوت الرجل العجوز كان أحيانا يعلو . وعندئذ كان ينهض واقفا وهو فى عنفوان غضبه ملوحا بيده المعروقة ، ثم لا يلبث أنه يهدأ ويعود الى الجلوس تحت شجر البرتقال ..

واذ انتهى الحديث الطويل بين الرجل وابنه ، نهضا معا واتجها نحو حسين الذى كان يجلس الى جوارى شاخصا ببصره نحو الأفق ، وقد امتدت البحيرة أمامنا الى مدى البصر ، وعندما اقتربا منا هب حسين واقفا مصافحا الدكتور العجوز فى حرارة ، وعندما مد يده ليصافحنى تذكرنى على الفور، وقال وهو يهز يدي بشدة :

- عمل ايه حمودة :

- الحمد لله كويس

- الله يكون فى عونك ، دا جمل الى استحمل دا كله ..

ثم خلع الطبيب نظارته وراح يدعك زجاجها بمنديل نظيف ، واقترب من حسين وقال وهو ينظر نحوى يريد اشراكى فى الحديث :

- أنا ليه طلب بسيط ، وأرجو انك ماترقضش طلبى .

وقال حسين فى ود حقيقى :

- أى خدمة ..

وهز الطبيب رأسه ، وأعاد نظارته الى عينيه ، واحتضن ابنه بيده ، وقال فى صوت متهدج :

— أنا حاولت آخذه منكم ماعرفتش ، مافيش فايده ، قلت
أقعد أنا معاه ، عاوز أقعد معاكم يابنى ، أنا أقدر أقوم بأى عمل ،
أنا دكتور بهائم صحيح ، انما فى الزنقة بانفع ، واللازى بعضه ،
أكنس ، أحرس ، أى حاجة ، أى حاجة •
وقال حسين وهو يضحك :

— انت طبيب الفرقه من اللحظة دى ومسئول عن صحة
أفرادها • •

وتهلل وجه الطبيب العجوز فرحا ، وهجم على حسين وعانقه
بشدة • ثم احتضننى أنا الآخر ، ولسانه يردد بلا انقطاع • •
— ربنا يحميكم ، ربنا يحميكم • •

وبعد أن شكر حسين طويلا ، استدار مع ولده عائدا الى داخل
الفيللا ، وقال حسين وهو يومئ برأسه نحو الرجل
— دكتور مبط علينا م السما ، مين كان يحلم !
وقبل أن يهض واقفاتاركا الشاطئء لينام ، قال وهو يرمقنى
بنظرة حادة :

— تفتكر فتحى يسد ؟ • •
وعندما أجبتة فى لهجة ساخرة :
— ربنا يستر • •
هز رأسه • • ومضى • •

وعندما استيقظت فى الصباح كان الهواء جافا وباردا فى الوقت
نفسه ، وشمس ديسمبر الواهنة تبعث بأشعتها ، والسما رائقة
وعميقة ، وأشجار البرتقال زاهية الاخضرار على نحو رائع كأن
أوراقها مغسولة ، وثمة شئ يتحرك بين الاغصان الدانية ولايين
منه شئ ، وخفق قلبى بشدة وتمنيت أن يكون ذلك الشئ فوزية
ورحت أتتبع آثاره بين الغصون المهتزة ، وعندما انحرف ناحية
الشاطئء تأكد لى انه ليس فوزية • فقد كان يرتدى حذاء ضخما
وبنطلون كاكى ، وعندما انفرجت الاغصان عن الرجل الذى كنت

أتبعه اكتشفت أنه الطبيب العجوز . كان يرتدى قميصاً شفافاً مفتوح الصدر ، وعازى الرأس ، وخطواته السريعة النشطة تحكى مدى سعادته . وعندما رفع بصره نحو نافذتي ، لوح لي بيده ثم وثب كالطفل نحو الشاطئ ، ثم راح يصعد الرتبة من جديد ، ولم يلبث أن اختفى بين أشجار البرتقال . .

لشد ما تغير الطبيب العجوز ، فهذا الطبيب الذى يجرى هذا الصباح فى الحديقة ، ويقفز عند الشاطئ ، ويلوح لي بيده كأنه طالب فى مستقبل العمر ، لا يمكن أن تكون له صلة ما بالطبيب الآخر الذى التقيت به مرة أخرى بالأمس ، وهو فى بذلته الكاملة ورباط عنقه الضخم ، ويده المعروقة المرتعشة حين يصفحك . .

ولكن أين فوزية ؟ اننى لم أرها بالأمس ، ولم تحضر هذا الصباح لتوقظنى من نومي كما توقعت . هل غادرت هذا المكان فى مهمة ؟ أم تعتمد الاختفاء لازداد اشتعالا ؟ ! وهل هى خبيرة إلى هذا الحد كمدام ريتا ؟ أم الذى حدث تم بطريق الصدفة ؟

وماذا أريد أنا من فوزية ؟ مغامرة جديدة كتلك التى تمت مع مدام ريتا ، أم حب حقيقى ؟ وما هو الحب ؟ اننى لا أطيق الجلوس مع امرأة على شاطئ بحر مثلاً أحرق فى وجهها وأشم عبير شعرها ، ثم أحرق فى القمر ، ثم أهمس لها فى حنان « ما أروع هذه الليلة » !

مثل هذه المناظر يمكن أن تتم فى السينما ، ولكن لا أظن أنها تحدث فى الحياة ، والذين يصنعون مثل هذه المواقف فى الحياة ، لابد وانهم متأثرون على نحو ما بالسينما وروايات الحب !!

اذن ماذا أريد من فوزية ؟ ولماذا أتلهف على رؤيتها الى هذا الحد ؟ ومدام ريتا ؟ هل نسيتها ؟ الواقع اننى لا أحب مدام ريتا الا عندما أراها . وعندما ألتقى بها أحبها حباً صادقاً نابعا من القلب . ولكن هذا الحب يتلاشى تماماً عندما أدير ظهرى لها . .

كانت الحديقة تبدو خالية ولا أثر للطبيب العجوز ، والبحيرة
الممتدة الى مدى البصر تبدو موحشة كثيبة هي الاخرى . والسما
العميقة عمقا لانها ياليس بها أثر لشيء ، لا سحابة ولا طير شارد ،
ولا نجم باهت ، وحتى لونها الازرق المعتاد لم يكن لها تلك اللحظة
وتركت مكانى فى النافذة وعدت الى داخل الحجرة وارثديت
ملابسى على مهل ، ثم غادرت الحجرة ونزلت الى الحديقة ، وألقيت
بنفسى على مقعد بالقرب من الشاطيء ، وثمة احساس غامض
يملا جوانحى ، احساس بالقلق والوحدة والضياع .

ومضى اليوم هادئا ولا جديد ، وعندما صعدت الى غرفتى
لأنام ، جاء حسين وجلس على المقعد الوحيد فى الحجرة وقال وهو
يدق الارض دقات رتيبة بحذائه :

- بكره فيه أخبار زى الرز .

وتمدت على الفراش وقلت فى غير حماس :

- اياك فتحى راح يهجم بكره .

وضحك حسين ضحكة عالية وقال وهو يغمز لى بعينه .

- فتحى قاعد منسجم دلوقت فى عش النسر .

وهتفت مندهشا :

- خلاص .

وقال حسين فى هدوء :

- من امبارح ، لما تنزل الاسماعيلية ابقى روح شوفه .

- أمال أخبار ايه الى زى الرز ؟

- هتنسف ميناء أبو سلطان ؟

ووثبت من فراشى وقد هزنى الخبر هذا ، وقلت أسأل حسين

ويدي على كتفه :

- ازاي ، دا المينا جوه البحيرة .

وقال حسين فى هدوء :

- احنا رتبنا كل حاجة .

- ايه ؟ هتعموموا فى المية .

- لا ، لقينا رفاص ..

- ومين هيسوقه ..

- واحد قبطان ..

وخيل الى أن حسين يمزح معي ، فرفعت يدي من فوق كتفه ،
وعدت الى فراشي مرة أخرى ، وقال حسين وهو ينظر نحوي
بدهشة :

- انت مش مصدقني والا ايه ؟

قلت وأنا أغمض عيني :

- انت بتهزر ..

وقال حسين وهو يغادر مكانه :

- القبطان تحت اذا كنت عاوز تشوفه ..

واندفع حسين خارجا من الحجرة ، وهرعت خلفه حافي القدمين.
وبالبيجاما . وفي الحديقة الساكنة المظلمة رأيت على البعد رجلا
أشيب عجوزا يجلس على مقعد بينما وقف أمامه شبح لم أتبينه ،
وعندما اقتربت منهما اكتشفت انها فوزية . ودق قلبي بعنف
وأنا أقرب منهما ، ومددت يدي أصافح القبطان العجوز ، وراعتني
بنيانه المتين ، وأكتافه العريضة . وقوته الحارقة رغم الشيخوخة
والشيب ، وعندما التقت يدي بيد فوزية حاولت أن أبقى يدها
بين أصابعي فترة طويلة ، ولكنها سحبت يدها في رفق واستأذنت
على الفور وأسرعت نحو الفيللا .

وقال القبطان الذي كان يغالب النعاس ويدخن بشراهة ،
ويخبط بيده على فخذه عندما ينهمك في الحديث :

- كل شيء السطة ..

وقال حسين وهو يفحص القبطان في اهتمام :

- انت عرفت المهمة بالظبط ..

وضحك القبطان ضحكة مدوية قبل أن يقول :

- خليك مع الله ، الست قالتلى على كل حاجة . مايكونش

عندك أى فكر ، مش راح تضربوا لغمين فى المينا ؟

وعندما هز حسين رأسه بالايجاب ، قال القبطان :
- ألسطة كل شيء ، جهاز رجالتك وبعد ساعة نتوكل
على الله ..

واذ هم حسين بالقيام ، قال القبطان وهو يشده من
ملابسه :

- الست قالت لك ع المبلغ ؟ أنا عاوز ميت ورقة قبل ما نتحرك .
وابتسم حسين ابتسامة صافية ، وقال فى ود :
- انت تستاهل ألف ورقة مش فيه بس ، ولو معانا مليون
كنا ادينائك ..

وتهللت أسارير القبطان ، وقال وهو يقذف بعقب السيجارة
الى بعيد :
- الله يكرمك ، أنا عاوز فيه بس ..

ورد حسين والابتسامة لاتزال مكانها على شفثيه ..
- حاضر ، المبلغ هيوصلك قبل ما نتحرك ..

وقال القبطان فى ارتياح :
- ألسطة ، كل شيء ألسطة ..

واذ أصبحنا وحدنا أنا والقبطان خبط يده على فخذه وقال
يسألنى فى اهتمام :

- لفندى رايع معانا ..
وعندما أجبته بالنفى ، هز رأسه فى سرور وقال وهو يمد
يده نحوى بسيجارة :

- عفارم عليك ، عين العقل ..
ثم جال ببصره فى أنحاء المكان ، وقال منتشيا :
- الجو حلو قوى ..

ثم سحب من جيبيه الخلفى زجاجة ويسكى صغيرة ، وقال وهو
يصب منها فى جوفه :

— شبان أفندية متعلمين ولهم مستقبل ويرموا أنفسهم في
المصايب ليه ؟ مايسيبيوا الكون ينظمه صاحبه . .
ثم مسح شفتيه بيده الغليظة ، وأحكم اغلاق الزجاجاة ، وقال
وهو يتفرسنى :
— والا ايه ؟

ولما أجبته بالصمت ، قال مستأنفا الحديث :
— دا الدنيا حلوه يافندى قوى . أنا بقالى خمسين سنة فى
البحر ، اشتغلت مع الانجليز سنين ، ماحدش جاب السكافيه
للبلد دى غيرهم ، انما هنعمل ايه ، هم حكام العالم . .
ثم أعاد فتح الزجاجاة مرة أخرى وعب منها بشراة . وكان
الجو بديعا والسكون يشمل كل شىء ، والقبطان العجوز انجلي
بشمة ، فقال وقد اقترب منى أكثر :

— هيعملوا ايه الافندية دول ؟ هيحاربوا الانجليز ؟ دا الانجليز
عندها ذخيرة مش ممكن تنفذ أبدا ، دول أجدع دولة من غير
مؤاخذة ، ثم مايش بعد كده ! أجدع ورش عندهم ، كل شىء
انجليزى محترم . ابر بواجير الجاز من عندهم ، الرفاص بتاعى
انجليزى ، بقى له عشر سنين ماشى زى الساعة ، عاوز تحارب
الانجليز اعمل رفاص من غير مؤاخذة

واذ أنى القبطان العجوز على ماتبقى فى الزجاجاة ألقى بها فى
عصبية بالغة ، وقال وهو يزمجر كالاسد :

— مافيش كلام ، عاوز تحارب الانجليز ، اعمل ورش ، أجدع
ورش عند الانجليز .

ثم صمت فجأة ، وضرب فخذه بيده ضربة شديدة . وقال
وهو يهز رأسه أسفا :

— بس مافيش أخلاق عند الانجليز من غير مؤاخذة . .
ثم استأذن منى فجأة ، وجرى نحو الشاطئ ، وعاد بعد أن
التى نظرة على شىء داخل البحيرة فى الظلام ، وعندما اطمأن الى
ان كل شىء على مايرام ، عاد نحوى سريعا وقال قبل أن يجلس :

— عندى رفاص زى الوحش • اسمه الوحش • •
ثم غمغم فى أسى وقال :

— بس الحال واقف اليومين دول ، أيام الحرب كنت بأجره
للانجليز بتلتميت جنيه فى الشهر ، فين احنا وأيام الحرب فين •
راحت بقى • ولما الست قالتلى ع الشغلانة دى ، قلت زى بعضه ،
ميت جنيه مش وحشين ، وافقت على طول •

ثم غمز بعينيه وأشار نحو الفيللا وقال يسألنى :

— هيه الست معاكو ، بتحارب رخره ؟ • •

ولما أجبته بالايجاب ، قال فى استنكار :

— انتو انجليز والا ايه ، احنا اسلام يافندى • الست
ماتحاربش ، الست فى البيت بس • أنا كان عندى واحدة ست ،
عاشت معايا ، أربعين سنة ماشفتش الشارع أبدا ، آمال الاسلام
عاوز كده • •

ثم ضرب يده فى جيبه فجأة وانتزع زجاجة ويسكى أخرى ،
نزع سداداتها بعنف ، وأفرغ نصفها فى جوفه ثم هب واقفا
وأزاح المقعد بقدمه وتمدد على الارض ، وقال وهو يشرب من
الزجاجة :

— مافيش أحسن من النوم على الارض ، الارض أمنا ، البنى آدم
مخلوق م الارض يافندى • •

ثم ضحك ضحكة غريبة ، وقال وهو يضرب فخذه بيده :

— الجماعة فين عاوزين نفرق الغمين ونرجع • •

وعندما عاد حسين كان القبطان قد انتهى من الزجاجة الثانية
ولكنه رفض أن يبرح مكانه قبل أن يحصل على المبلغ المتفق عليه ،
وعندما ناوله حسين المائة جنيه ، فحصها بعناية ، ثم وضعها فى
حزام عريض يلتف حول وسطه ، وبدا عندما نهض واقفا كأنه
لم يذق نقطة واحدة من الخمر فى حياته • وصافحنى بحرارة ،
وقال لحسين وهو يتجه نحو البحيرة • •

— أنا هاسبق وانتو الحقونى بالقوارب هاستناكو بالرفاص
على بعد نص كيلو م الشاطيء • ثم راح يغنى بصوت مرتفع وهو

يخطو فى ثبات نحو البحيرة ، ولم يلبث أن ابتلعه الظلام .
وكان الرجال الستة الذين وقع اختيار حسين عليهم قد
استعدوا للرحلة الطويلة ووقفوا فى صف واحد يستمعون الى
التعليمات ، وعندما انتهى حسين من تعليماته ، تفرق الرجال
بسرعة ، ثم عادوا بعد قليل ، وقد تعاونوا فى حمل الالغام الى
القوارب ، وكان حسين يجرى كالتحفة من الشاطئ الى الفيللا
ليطمئن الى أن كل شىء على مايرام ، وعندما أصبح كل شىء مهياً
للرحيل ، تقدم منى فصافحنى على عجل ، وقال وهو يستعد
للانصراف :

- خليك صاحى ، أقعد ع الشاطئ مع فوزية لحد ماينجى ،
إذا مارجعناش بعد ساعتين يبقى حصل حاجة ..
ولوحت له بيدى والقارب يبتعد به الى حيث وقف الرفاص
الوحش فى انتظاره . وبعد دقائق انبعث ضجة هائلة من قلب
البحيرة ، ثم ابتعدت الضجة حتى تلاشت وان كان «الوحش» قد
ظلم يلوح فى الافق كنقطة شديدة السواد فى ظلام البحيرة
الباهت ..

ولا أدرى لماذا شعرت بالقلق تجاه هذه الرحلة الغريبة ، لعل
القبطان العجوز كان هو مبعث قلقى ، فأى تردد أو أى خطأ فى
التقدير أثناء دخول الميناء معناها نفس الرفاص ، وأحسست
بالندم لانى لم أخبر حسين قبل اتمام الصفقة بأن القبطان العجوز
قد شرب حتى ارتوى ، وانه بالكاد يستطيع أن يميز طريقه .
وانتابتنى الدهشة لمنظر الرجال الستة الذين وقفوا منذدقائق
على الشاطئ فى صف واحد يستمعون الى التعليمات من حسين ،
وجوههم التى كانت جامدة لاتعبر عن شىء . رغم ثقته الشديدة
بأنهم على أبواب رحلة موت !!

أى نوع من الصوفية يجعل الرجال يقبلون على الموت دون
اهتمام ! وهل البشر صنف واحد أم عدة أصناف ! وهل الذى
يخاف ركوب الطائرة فى نزهة خوفاً من أن تتحطم به ويموت
صنف غير الذى يذهب الى مهمة يعلم أن الموت فيها أرجح من
الحياة ؟

ولماذا يموت الناس والرضا يفيض من قلوبهم ؟ ومن أجل أى
شئ ؟ الوطن ؟ !

وما هو الوطن اذا لم أكن فيه ؟ أى شئ يعنى الوطن وأنا جنة
هامدة ؟ وما هو الوطن ؟ هل هو الاحجار والحقول والمنازل ،
والبحيرات والنمواطى الممتدة ؟ وأى معنى لهذا كله اذا لم أكن
أنا على قيد الحياة ؟ لا أدري لماذا لأستطيع أن أهضم شيئاً من هذا
كله ؟ لو اثنى واحد من الستة الذين وقفوا منذ دقائق يتأهبون

لرحلة الموت ، لأطلقت ساقى للريح ، لفرت من هذا المكان الى
أقصى مكان أستطيع ، سيقولون جبان ! وماذا يهم ؟ مادمت
مستمتعا بالحياة ، وأى معنى للشجاع الذى يرقد مدفوناً تحت
التراب !!

وأحسست بالرغبة فى الشراب ، تمنيت لو أشرب مثل
القبطان حتى أفقد الوعي . إن فقدان الوعي أحياناً هو العلاج ،
ومن يدري ؟ لعل القبطان أراد أن يشرب حتى يفقد الوعي ، ربما
تعمد الشراب حتى لا يدع لنفسه فرصة التفكير فى الامر ، وأى
أمر أخطر من لقاء الموت ؟ وانتزعنى من أفكارى وقع أقدام مقبلة
نحوى ، وعندما استدرت خلفى رأيت فوزية فى ثوبها البسيط ،
وابتسامتها الحلوة .

وقالت وهى تجلس الى جوارى :

— فات نص ساعة ..

ونظرت اليها فى هدوء ، وسألتها فى هدوء أشد :

— كنتى فى طول النهار ..

وأجابتنى فى سداجة :

— كنت باتفق مع القبطان ، دوخنى ، كان عاوز مية وخمسين

جنيه ، وبالعافيه وافق على ميه ..

— انت تعرفيه من زمان ؟

— أيوه .. بيته جنبنا ، بس هو ما يعرفنيش ..

وضحكت فوزية فى دلال ، وقالت وهى لاتزال تضحك :

- أول ما كلمته خاف ..
 - خاف ازاي ؟
 - أفكرني واحدة سنت ..
 - ماهو انت واحدة ست ..
 وضحكك فوزية ضحكة مجلجلة ، وقالت وهي تدير عينيها
 عنى : -
 - كان فاكركني واحدة ست وحشة .
 وقلت مازجا :
 - مش معقول ، هوما عندوش نظروانت واحدة ست زى القمر
 وقالت فى عصبية :
 - لأ مش كده ، قصدى أقول كان فاكركني واحدة ست وحشة ،
 يعنى بطالة ، بتاعت شوارع ..
 ثم راحت تضحك كأنها طفلة يداعبها أحد ، وعندما انتهت من
 نوبة الضحك الحادة التى انتابتها ، قلت وأنا أقرب منها :
 - تعرفى طول النهار وانا متضايق
 - ليه ؟
 - عشان كنتى غايبة ..
 وقالت فوزية فى سذاجة :
 - وايه يعنى ..
 قلت وأنا أظاهر بتنظيف شعرها من قشة علقت به
 - وايه يعنى ازاي ، أنا لازم أشوفك كل لحظة ..
 وتوقعت فوزية شرا فزحفت الى الخلف قليلا ، وقلت محاولا
 أن أهدي روعها :
 - انت خايفه منى ..
 ولم تتكلم ، اكتفت بالنظر نحوى فى ذعر هائل كأنها أرنب
 تحاول الافلات من شخص يهاجمه ، وكان احساسى بالقلق
 والضياع قد استبد بى ، واحساسى الغامض نحو فوزية يتأجج
 بين جوانحي ، وثمة غرور وقبح يسيطر على نفسى بأن فوزية
 تحببني ، ولكنها تنتظر منى أن أخطو نحوها الخطوة الاولى فقلت
 على طريقة أبطال الروايات :

— فوزية ، أنا عاوز أبوسك ..

وارتاحت فوزية لسماعها هذه الكلمات واتسعت حدقتها بشدة ، وبرقت عيناها بلمعان مخيف ، وسرت حمرة شديدة في وجنتيها ، وازدادت تبعا لذلك بهاء وجمالا ، وازددت أنا الآخر رغبة وانفعالا ، فزحفت نحوها ، ولكنها زحفت الى الخلف في حركة سريعة . ولم أكن أستطيع التراجع وكل ماحولى يغرينى بالتقدم . واندفعت نحوها فى حركة هستيرية ، وضممتها نحوى فى عنف ، وحاولت تقبيلها دون جدوى ، كانت تدفعنى بقوة وتدفن رأسها فى صدرى ، وتزوغ عبثا من أن تلتقى شفتها بشفتى ولكنها لم تصمد طويلا ، سرعان ما انهارت قواها بين ذراعى القويتين . . وعندما أطبقت على شفتيها بأسناني كانت تبكى . ولكنى لم أهتم ، رحت أعبت فى شعرها ، وأضمها نحوى فى قسوة شديدة وعندما أفلحت فى أن تبعد شفتيها عن شفتى ، أطلقت على الفور صرخة رهيبية ، ولم تكن صرخة مبعثها النشوة ، ولكنها كانت صرخة استغاثة . وخشيت عاقبة الامر ، فكتمت أنفاسها بيدي ، ولكن انفجارا رهيبا دوى فى الافق فجأة ، ثم تبعه انفجار آخر أشد هولا ، وارتفعت ألسنة اللهب فى الفضاء فأضاءت البحيرة التى كان الظلام يحتويها منذ لحظات ، ورفعت بصرى أحدق فى الفضاء البعيد وقد راعنى منظر النار التى تشتعل وسط البحيرة ، هل هو «الوحش» الذى انفجر أم شيء آخر .

ورحت أصيخ السمع الى طلقات النار التى تتجاوب صداها فى الأفق ، ولم يكن قد مضى منذ بدء الرحلة أكثر من ساعة عندما ساد الهدوء مرة أخرى ، ولكن النار لم تهدأ أبدا ، وكان صوتها المزمجر يعلو أحيانا فتملا الجو حولنا بالضجيج . . . وعندما التفت نحو فوزية — وكنت قد نسيتها تماما اكتشفت انها ليست مكانها بالقرب منى ، اختفت تماما ، وبدأ كل شيء حولى ساكنا ، البيت والحديقة والشاطئ والبحيرة حتى النار التى امتدت ألسنتها فى الفضاء البعيد راحت ترعى فى هدوء .

الفصل الرابع عشر

منذ شرع الرفاص يتحرك الى قلب البحيرة ، والقبطان العجوز لم يكف لحظة عن الغناء وراح يدندن بلغة غير مفهومة وهو قابع خلف عجلة القيادة يحركها بأصابعه الغليظة ورجاله السبعة يجلسون فى صمت وعيونهم متعلقة بالانوار التى راحت تشع داخل ميناء « أبر سلطان » .

ويبدو أن الصمت الذى ران على ركاب الرفاص السبعة قد لفت انتباه القبطان العجوز الذى كان صوته الحشن العريض يلعلع بالغناء ، فالتفت فجأة نحو الرجال السبعة وضحك ضحكته المدوية وقال وهو يشير بأصبعه نحو حسين :

— ايه الحكاية انتوا رايعين تدفنوا ميت ؟

وقال حسين وهو يبتسم للقبطان ابتسامة لامعنى لها ..

— لا مفيش حاجة ..

ثم عاد ينظر مرة أخرى الى النور الباهت على رصيف الميناء وأدار القبطان ظهره الى حسين ورجاله وقال وهو يقبض بـكـلـتا يديه على العجلة :

— ولا فيه ..

وكان الهدوء يخيم على كل شيء . والظلام يحتوى البحيرة
والسماء صافية على غير العادة ، والجو رائع وبديع ، وله رائحة
نفاذة تثير فى نفس الانسان ذكريات الماضى الجميلة ..
ولما كانت الرحلة بالنسبة للرجال السبعة هى رحلة موت
فى النهاية ، فقد راح كل منهم يسرح بعقله مع ماضيه البعيد
ربما تذكر أحدهم أمه ، ربما تذكر أخاه ، ربما توقف عقله
عند ليلة جميلة ، ربما سرح فى أكلة شهية ، ومن عجب الحياة
أن أمورها الهائلة البسيطة تصبح ذات قيمة كبرى عندما
يدرك المرء أن الحياة تسير نحو النهاية .

ولا يستطيع أن يتذوق هذه اللحظات الا من واجه الموت
مرة ، عندئذ يفتش المرء فى زوايا قلبه المترع بالاسى عن
اللحظات السعيدة وحتى أتعب الناس لا يعدم لحظات سعيدة
ينبش عنها فى أعماق نفسه ليجترها فى لحظاته الاخيرة ، ومن
عجب الحياة انه حتى الاشياء الكثيبة والبغيضة والكريهة
الى النفس التى كان الانسان يشكو منها تصبح عندئذ جميلة .
فلقد كانت على أية حال حياته ، والحياة مهما كانت مرارتها
ومهما كانت تعاستها خير ألف مرة من الموت ولو فى مهمة
عظيمة !!

كان الكل مطرقا نحو الارض عندما هب القبطان العجوز
يصيح فى ضجر شديد ويسب الدين والدنيا ويلعن سنسفيل
البخت المايل الذى رماه آخر العمر فى مهمة كثيبة مثل هذه ،
ثم انتفض واقفا وقد ترك مكانه خلف عجلة القيادة واتجه
نحو الرجال السبعة وجلس على الارض تحت أقدامهم بينما
راح الرفاص العجوز كصاحبه يشق طريقه وسط البحيرة ،
كانه يعرف الطريق نحو الهدف ..

وقال القبطان وقد أمسك حسين من كتفه وراح يهزه

بعنف ..

- انت حزين ليه ؟ مدام مش قد الشغلانة دي ماترجع ..
وقال حسين وهو يحدق فى عين القبطان العجوز
- انا، مش حزين ولا حاجة انا بس بفكر .
واتكأ القبطان على حديد الرفاص ومد رجليه على الارض
وقال وهو يضرب يده فى عبه وينتزع زجاجة خمر :
- ولا تفكر ولا حاجة .. انتوا يعنى رايعين تفتحوا عكادول
لغمين رايعين تفرقعوهم .

ثم دس عنق الزجاجة فى حلقه وراح يشرب منها كأنه
عطشان لم يذق طعم الماء منذ الصباح ، وعندما رفع الزجاجة
من فمه كان نصفها قد طار ، وخيط رفيع أحمر اللون يسيل
من جانب فمه على ذقنه وينحدر الى رقبته ، وبدا الابتهاج
الشديد على وجه القبطان العجوز وهو ينظر نحو حسين
والزجاجة بين أصابعه ، وعندما استغرق فى الضحك بدا
وجهه الملتطخ ببقايا الشراب الاحمر اللون كأنه وحش انتهى
من لحظات من التهام فريسة ، ثم مد يده نحو حسين بالزجاجة
وقال ورأسه يترنخ :
- اشرب .. اشرب ..

واعتذر حسين برفق ، فقذف القبطان بالزجاجة تحت أقدام
حسين وقال وهو يمسح فمه بظهر يده :
- يا أخى اشرب ، يعنى حنبلى ؟
وابتسم حسين فى ود وقال وهو يقيم الزجاجة التى انبطخت
على الارض وسال الشراب منها فى قناة طويلة رفيعة حمراء
اللون كالدم ..

- بعدين حاشرب يا كابتن .
وضحك القبطان ضحكة استهزاء وقال وهو يلعب شفطيه
بلسانه ..

- بعدين امتى .. انت ناوى تاخذ راندفو معايا .
ثم مد يده فخطفت الزجاجة ورفعها الى فمه وراح يعب منها
بشراهة ، وعندما انتهى من الشرب لم يكن قد تبقى بهنا .

ألا رشقات قليلة ، وعندئذ هب واقفا وسط الرجال السبعة .
والزجاجة فى يده يلوح بها فى وجوه الجميع وقال وهو
يترنح ..

— محدش عاوز يطفح ؟

ولما أجيب بالصمت قذف بالزجاجة الى الماء وبصق على
الارض واتجه نحو عجلة القيادة وقال وهو يدير العجلة
بشدة :

— ليله سودة باين عليها ..

كان الرفاص قد توغل فى داخل البحيرة ولم يعد يفصل
بينه وبين الميناء الا رمى رصاصة ، وعندئذ خفف القبطان
من سرعة الرفاص ونفخ بقوة فاطفأ الشمعة الوحيدة التى
كانت تشتعل داخل مصباح صغير فى سقف الرفاص ، ولم
يلبث القبطان أن صاح فى هدوء :

— وصلنا حلق الميناء ..

وعندئذ نهض حسين ووثب الى جوار القبطان وراح يحدق
داخل الميناء يحدد الامكنة التى ينبغى عليه أن يفجر فيها
الالغام .. ثم أشار نحو رصيف يمتد من الشاطئ الى قلب
البحيرة وقال :

— أدخل هناك ..

وقال القبطان وهو ينظر نحوه بدهشة ..

— أدخل فىن ؟

— على الرصيف ده ..

وافترجت شفتا القبطان عن ضحكة صفراء وقال وهو يرتب
على ظهره حسين :

— رصيف ايه الى هندخل عليه . ذا احنا لو دخلنا خمسة

متر كمان ، الرفاص هيبقى ميت حته ..

وعندما استفسر حسين عما يعنيه القبطان هز الاخير رأسه
ثم أشار نحو رصيف آخر وقال فى اهتمام بالغ :

- شاييف المدافع الى هناك ، الرفاص مش ممكن يتحرك
أكثر من كده .

وقال حسين فى همس :

- والعمل .

- خد الرجالة والالغام ؛ وعوموا فى الميه ..

- وانت ؟

- أنا جستنى هنا لحد ما تيجوا ..

واستدار القبطان ومد يده فأوقف آلات الرفاص فلم يعد
يتحرك الى ابعد من ذلك ، ونام على ظهره فوق دكة خشبية
متخذاً يده وسادة لرأسه وراح يصفر لحنا اجنيا واطمأن
ساقا على ساق مغمضاً عينيه فى نشوة شديدة ، ولما أصبح
التفاهم مستحيلا مع القبطان العجوز عاد حسين الى رجاله
الستة وهمس لهم بما وصل اليه الامر مع القبطان وعندئذ
هبوا جميعا وراحوا يخلعون ملابسهم ، ولم تمض لحظات حتى
كان الجميع فى الماء والالغام معهم وحسين فى المقدمة يشق
لنفسه طريقا الى قلب الميناء فى هدوء شديد حتى لا يشير
انتباه احد من الجنود الذين وقفوا على الشاطئ للحراسة ،
وعندما وصل الى الرصيف كان جندي الموريشان يدق الرصيف
بحذائه الضخم فى خطوات عسكرية منتظمة قاطعا المسافة بين
كشك الحراسة وحافة الرصيف جيئة وذهابا ، وعيناه مغلقتان
ورأسه مائل على صدره ، ولم تستطع الضججة التى انبعثت
أسفل الرصيف ان تجذب جندي الموريشان من أحلامه الوردية
وكان لا بد من الانتهاء بأسرع ما يمكن من بث الالغام بسين
الصنادل والقوارب وأسفل الونشات الضخمة . فى ربع ساعة
سوف تنفجر هذه الالغام لتدك الميناء دكا ، ويصبح بعدها
ميناء أبو سلطان كأن لم يكن فى يوم من الايام . وبقدر ما كانت
العملية خطيرة بقدر ما كانت مثيرة للاعصاب وبينما كان حمدي
- أصغر الستة سنا - يغطس تحت الماء اذا بنصل حاد

كالسيف يشق جلد ظهره ، وصرخ حمدي صرخة عالية ،
أثارت انتباه الجندي الموريشاني ، فانطلق يصرخ كالمجنون
يسأل عمن هناك ، ثم رفع بندقيته في الهواء وافرغ ما فيها
وعندئذ انطلقت المدافع الرشاشة من كل اتجاه وفي كل اتجاه
وأصبح الرصيف ميدان قتال ، وعشرات المصابيح الكاشفة
راحت تلمس وجه البحيرة كأنها كلاب صيد مدربة على اقتناص
الفريسة ، واستحال الليل الى نهار ، وعلى آخر المدى كان
رفاص القبطان يتأرجح على وجه البحيرة ويبدو في الضوء
الباهت وكأنه حيوان بحري غريب .

ولم يكن النصل الحاد الذي شق جلد حمدي واحد هذه
الضجة كلها الا « هلب » اختفى تحت الماء ، ظنه حمدي
- لفرط الاضطراب - جنديا يطعنه من الخلف . وأيا كانت
الاسباب التي أدت الى هذه النتيجة . فقد وقع الذي يخشاه
حسين ، وانطلق الرصاص يعربد في أجسام الرجال وسقط
حمدي أولا وسقط أحمد ، وانطلق الباقيون كالقذائف الموجهة
يضربون في الماء بأذرعهم القوية يشقون لانفسهم طريقا وسط
النيران الى خارج الميناء .

ولكن الرصاص المنهمر كالسيل الذي راح يعوى فوق
رءوسهم كالكلاب المسعورة عاقهم عن التقدم خطوة واحدة وبدا
لهم في هذه اللحظة الحرجة أن الافلات من المصير ضرب من
المستحيل وان النهاية قد دنت ، واستقر رأى حسين في هذه
اللحظة على أن يراوغ الانجليز دقائق اخرى حتى لا يفتن أحد
الى الالغام المبتوثة ، وفعلأ أصدر الامر الى الرجال الباقيين
بالتفرق على أن يحاول كل منهم أن يشق طريقه بمفرده خارج
الميناء اذا استطاع ، ولما لم يكن هناك وقت للوداع ، فقد
اختفى حسين بأن لوح لهم بيده ثم غطس وأختفى تحت الماء .
ولم يكن قد اشترك في المعركة حتى الآن الا الجنود الذين
انتشروا على ارصفت الميناء ، لم تكن الزوارق الحربية قد نزلت

بعد الى الميدان ولم يكن أحد على الشاطئ قد أدرك بعد حقيقة ما حدث ، ولذلك كف الرصاص ، عندما ابصر الذين على الشاطئ رفاصا يقتحم الميناء فى سرعة متجها نحو الرصيف بادئ الامر ثم لم يلبث أن انحرف ناحية اليمين ومد رجل عملاق يده وانتشل جسما آخر وجسما ثالثا وجسما رابعا . وعندئذ أدرك الذين على الشاطئ حقيقة الامر فأطلقوا نيرانهم نحو الرفاص .

وكان رجل آخر من الرجال الخمسة لا يزال يبحث لنفسه عن طريق للخروج من المازق ، وكان القبطان العجوز يود لو طالبت فترة الهدنة قليلا ليتسنى له انقاذه غير أن الرصاص المنهمر أجبره على الفرار ، ومن خلفه انطلقت زوارق حربية تطلق النار الى ابعد مدى وتصيب . ولم يكن (الوحش) العجوز بقادر على الافلات من قبضة مطارديه ، ولم يكن مع ركاب الوحش ما يستطيعون به الدفاع عن أنفسهم ، وخلا الجو للجنود الذين أهدقوا بالوحش من كل الجهات .

وعندما ارتفع صوت الجنود من الزوارق يأمرون ركاب الوحش بالاستسلام لم يجبههم الا الصدى ، وعندئذ افرغوا رصاص مدافعهم فى الوحش ، وندت صرخة عن أحد الرجال الخمسة وسقط جسم فى داخل الرفاص ، وقبل أن يتبين أحد حقيقة ما حدث انقلب الرفاص نفسه وغاص فى الماء وانقلبت الزوارق الثلاثة واستحال الميناء كله الى جحيم فقد انفجرت الالغام دفعة واحدة واهتز قاع البحيرة كأنما انشقت الارض عن زلزال عثيف . وعندما افاق القبطان العجوز من هول الصدمة كان يسبح وحده وقد قذف به الانفجار بعيدا خارج الميناء ، وعلى بعد يسير كان رجل يصرخ مستغيثا ، وعندما اقترب منه القبطان اكتشف انه حسين وجرح غائر فى كتفه ينزف دما بغزارة وطوقه القبطان بيديه الفولاذية وراح يسبح معه فى اتجاه الشاطئ . . .

كان الفجر يلوح من خلف الافق والقبطان العجوز يقف داخل الماء على مقربة من الشاطئ وقد فقد قواه تماما واحس رغبة ملحة فى أن ينام وبالرغم من ذلك لم تفرج قبضته الفولاذية عن عنق حسين الذى كان قد فقد الوعي منذ وقت طويل ، واحس القبطان العجوز بضعف شديد يستولى عليه وركبته تتخاذلان فى الماء . كان مخمورا وكان متعبا وكان فى حاجة شديدة الى النوم وكان البرد قد جمدا اطرافه غير انه احس بشئ ساخن يسيل على صدره ، ومليده يتحسس عظام صدره ويعبث فى شعره الغزير وعندما سحب يده كانت ملطخة بالدم ، وغسل القبطان يده فى ماء البحيرة وظن أنه دم حسين الذى كان لا يزال ينزف من الجرح الغائر فى كتفه ولكن احساسه بالشئ الساخن الذى ينزل على صدره لم ينقطع فمد يده مرة أخرى وعند ذلك ادرك أن فى صدره جرحا وانه ينزف دما ، واذا أدرك القبطان هذه الحقيقة سحب حسين بشدة نحو الشاطئ ثم حمله على كتفه وراح يعدو به الى حيث كنت اقف على الشاطئ انتظر عودتهم منذ أن بدأوا رحلتهم فى منتصف الليل .

وعندما وصل القبطان كنت لا أزال مكاني ساهما احقد فى البحيرة وما جرى بينى وبين فوزية يقلقنى بشدة .

فلو أن فوزية أخبرت حسين بما حدث بينى وبينها لكانت النتيجة سيئة للغاية ، وأنا احيانا انسى نفسى فأرتكب حماقات شديدة ، وكلما خطر فى نفسى حب تحولت الى ثور بليد بلا احساس . وكم مرة وقعت فى هذا الخطأ ثم استيقظت بعد ذلك وندمت اشد الندم ، ثم أقسمت بأغلظ الايمان الا أعود الى هذا ابدا ثم لا البث كلما ساقى الصدفة فى طريقى بأننى أن اندفع فى نفس الخطأ واركب نفس الحماقة وأعود الى نفس الندم ، وهاهو حسين قد عاد جريحا مغمى عليه وليس معه أحد

من الرجال السبعة والقبطان الكبير بلا وحش وستضيع
الحماقة التي ارتكبتها مع فوزية فى ضجة الاحداث ، ولا
ادرى كيف استيقظ الذين كانوا فى البيت تلك اللحظة ،
ولا أدرى كيف امتلأت الحديقة بالناس ولا أعرف كيف امتلأ
الطبيب العجوز بالنشاط فراح يأمر الواقفين حوله بتسخين
ماء واعداد فطن وشحن مشارط وتعقيم آلات بينما انحنى على
حسين وراح يعمل بهمة فى انتزاع الرصاصة .

وكان القبطان العجوز اثناء ذلك يفترش الارض بالقرب من
الطبيب مسندا ظهره الى جذع شجرة متأملا فى غير مبالاة ما
يدور حوله متحسسا بأنامله بين الحين والحين جرحه الغائر
فى صدره ، وكان القبطان العجوز يشعر بالبرد ولهذا السبب
طلب خمرا ولما لم يكن هناك خمر على الاطلاق فقد مط شفتيه
فى ازدراء وقطب جبهته فى غضب وقال فى صوت متحشرج :

— الحمرة دوا .. انتوا ايه ما عندكوش اسلام ..

وضحك واحد من الواقفين ضحكة خاطفة وحده القبطان
بنظرة قاسية ، وأشار نحوه بأصبعه وقال يسأله فى نفس
الصوت المتحشرج وقد ضعف قليلا عن ذى قبل ..

— انت يالى بتضحك ماتعرفش واحد بتاع خنرة ؟

عندما هز رأسه بالنفى قال القبطان فى استنكار بالغ :

— بس شاطر تضحك ..

ثم نهض من فوق الارض واتجه الى الشاطئ فى خطوات
متزنحة وقد عقد يديه خلف رقبتة ووقف يتطلع الى نقطة
بعيدة وسط البحيرة وقال وهو يبصق فى البحيرة :
— الوحش كان مليون قزايز .. الله يخرب بيوتهم الانجليز
غرقوه • عكنوا علينا اليلادى •

وانطلقت ضحكة من خلف القبطان ، من احدنا ، ربما كان
سببها النكتة التى اطلقها القبطان منذ لحظة ، فهو لا يعنيه أن

الوحش قد غاص ، والذي يعنيه أن زجاجات الحمر قد غرقت ،
وان الانجليز لم يحتلوا مصر ابدا ، ولم يطلقوا الرصاص
علينا ، ولم يقتلوا ستة رجال كانوا مع القبطان منذ ساعات
ولكنهم فقط « عكنتوا الليلة علينا » ولم يكن القبطان يقصد
الا نفسه .

ولكن القبطان لم يكن يعتقد ان الكلام الذى نطق به نكتة
أو شبه نكتة لقد كان جادا فى كل حرف ، كان مؤمنا بما
يقول ، ولهذا السبب غاظه كثيرا ان يطلق احدا ضحكة ،
فنظر الى الخلف كذئب جريح ، واتجه نحونا فى خطوات بطيئة
كأنما ينتزع اقدامه من الطين . كانت نظراته تتصلق بالشرر
وسحنته مقلوبة وانيا به بارزة كأنه وحش يتأهب للقتال ،
وتوقعنا شرا من القبطان .

كان الفجر رطبا والرياح تنشط فجأة وماء البحيرة الذى كان
ساكنا منذ لحظة راح يضرب وجه الشاطئ بقسوة ويجرى على
الارض ويزحف تحت اقدامنا وفجأة ، قبل أن يصل القبطان الى
حيث كنا سقط على وجهه راسما بجسمه رقم ٧ قاعدتها رأسه
وطرفاها رجلاه بينما اختفت كلتا يديه تحت صدره ، واتجهنا
نحوه نحاول رفعه من فوق الارض ولكننا فشلنا فلقد كان برغم
الشيخوخة متين البنيان منتفخ العضلات . وكان مغمى عليه وبدا
فى غيبوبته انه متشبث بالارض التى لم تحن عليه أبدا . وكان
الطبيب العجوز لا يزال منهمكا فى تضييد جرح حسين ولكن
حسين الذى كان قد أفاق من غيبوبته اقترح على الطبيب أن
يسعف القبطان بالعلاج ، وعندئذ تركه الطبيب مكانه وانحنى
على القبطان الملقى على الارض وشهق الطبيب العجوز من الذعر
وقال وهو يتحسس صدره :

— ده الرصاص خرق صدره . . ده بينزف من زمان .
وعينا حاول الطبيب ان يصنع شيئا للقبطان . لم يكن
ثمة فائدة فى علاجه وكانت الرصاصة قد احترقت صدره

واستقرت في الرثة اليسرى ٠٠ وكان القبطان العجوز ينزف في الداخل ، وكان واضحا على وجه الطبيب أن نهاية القبطان قد حانت وانه قطعاً سيموت ، وعندما أدرك حسين الحقيقة قال للرجال الذين التفوا حوله :

— مين يقدر يجيب ازازة خمرة دلوقت ٠٠

وتطوع أكثر من واحد ووقع الاختيار على فوزية وقال حسين وهو يشير نحوى •

— روح معاها يا حلمى

ولكن فوزية اعترضت بشدة وقالت فى غضب بالغ

— لا ٠٠ أنا خاروج لوحدى ٠٠

وتسمرت فى مكانى ولم أنظر نحوها ، وانحنيت عسى القبطان ، اساعد الطبيب ٠٠ وعندما أفاق القبطان العجوز كانت الشمس ترقد على حافة الصحراء ويختفى نصفها فى بئر مجهولة ، والجو أصبح أكثر دفئا ، واسراب طيور هاربة من الصقيع الى حيث الدفء والشمس فى الجنوب وقوارب الصيد أخذت تعود قاطعة البحيرة من الشرق الى الغرب فى اتجاه حلقة السمك ، ولم يكن أحد فى الحديقة سوى الطبيب العجوز وأنا والقبطان العجوز الذى ينام على ظهره مفتوح العينين يتأملنا فى صمت • وكان حسين ورجاله قد انتقلوا الى داخل البيت عندما عادت فوزية تلهث وفى يدها زجاجة خمر رخيص ، وناولتنى الزجاجة ثم استدارت عائدة الى البيت • وابتسم القبطان ابتسامة رضى وشاعت البهجة على وجهه وفتحت الزجاجة باسنانى وناولتها له ورفعها الى فمه فى نشوة طاغية وشرب حتى ارتوى ثم راح ينظر اليها فى شغف كأنه عاشق يتغزل فى حسناء وقال وهو يهز رأسه :

— دى نعمة يا فندى من نعم الله •

ثم راح يشرب من الزجاجاة دون توقف حتى اتى عليها
وعندئذ رفعها بين اصابعه الى اعلى ونظر اليها فى اشمئزاز
وقذف بها بعيدا وقال وهو يشير الى حلقة :

- دى ناز جهنم .. الويسكى صحيح هوہ النعمة .. أنا
كنت عايز ويسكى .. أنا معايا فلوس . فى جيبى ميت جنيه .
ومد يدا مرتعشة يتحسس الحزام العريض الذى يلتف
حول وسطه ، والذى أودع فيه كنزه الثمين عندما تسلمه
من حسين فى الليلة الماضية ، وهب القبطان من رقدته رغم
الالم الذى يعانيه فلم يكن الحزام العريض مكانه حول وسطه
كما اعتاد أن يجده منذ عشرات السنين ، فتشت حولنا فى
الحديقة وبالقرب من الشاطئ وعندما ابدت استعدادى فى
البحث عن الحزام المفقود على طول الطريق الذى سلكه القبطان
اشار الى بالا أفعل ، واستلقى على ظهره من جديد ثم اغمض
عينيه وضحك فى سخرية شديدة وقال وقد فتح عينيه وراح
يحقق فى وجهى :

- راحت الميت جنيه .. طظ .. ده الوحش راح راخر .. والعمر
راح راخر .
وعندما طمأنته بأن الحياة لا تزال ممتدة أمامه . مطشفتيه
وقال فى غير مبالاة :

- لا يا أبو البلديات .. مابقاش فاضل كثير
ثم رقد صامتا وقد شحب وجهه ونظر يحقق عند نقطة
فى الافق البعيد لعلها النقطة التى استقر عندها الوحش فى
أعماق البحيرة . وكانت السفن الضخمة التى تعبر القناة
فى تلك اللحظة قد أخذت تتهاذى فى قلب البحيرة متجهة من
الاسماعيلية الى السويس ، وكانت تبدو كنقط مختلفة الألوان
فى الافق البعيد ولكن صغيرها كان يصل إلينا وأصاخ
القبطان العجوز السمع ثم قال وابتسامة ترتسم على شفثيه
والرضى يغمره :

- المركب دى هولندى ..
وعندما انطلق صغير آخر قال :

- ودى تركى ..

ثم راح كلما انطلق صغير فى الجو يحدد الجنسية التى
تنتمى اليها الباخرة صاحبة الصغير .. وقال وهو يبدو
فخورا بنفسه .

- أنا أعرف المركب من صفارتها .. اصلل المراكب زى
الناس معادن .. اجدع مراكب من غير مؤاخذه التركى ..
دولة بتشحت ومراكبها بتلمع زى فص الالماز .. حكمة ربنا
.. وأوسخ مراكب الجريجى .. المراكب الانجليزى متينة
بس نضافة لا .

ثم عض على شفته السفلى وقال وهو يتنهد بعنف :

- خمسين سنة وأنا فى البحر ..

ثم قال فى أسى :

- جميع دول العالم فايئين علينا .. ميت مركب كل يوم
داخله الكنال مافيش مركب واحدة رافعة البونديرة بتاعتنا .
ولما استفسرت منه عن كلمة « بونديرة » قال وهو يضحك
- العلم يا أفندى ..

وعندما حاول الكلام مرة أخرى لم يستطع ، قطع حديثه
الطبيب العجوز الذى اندفع نحونا يصرخ فى أسى شديد وقد
استولى الذعر عليه ، وخيل الى عندما رأيته أن حسين قد
مات ، وعندما اقترب منا اكتشفت حقيقة الامر لقد وقف
الطبيب فوق رأس القبطان يسأله عن الرجال الستة الذين
كانوا مع حسين لحظة اقتحام الميناء . وعندما قال القبطان
ببساطة :

- غرقوا ..

نظم الطبيب العجوز على خدوده وراح يصرخ صرخات مؤلمة
كأنه غراب قتلوا وحيدته ، وأطلق يجرى فى الحديقة الى غيرهدف
ثم عاد الى البحيرة وغاص فيها بقدميه ، وراح يجرى بحذاء الشاطئ
حتى اختفى عن الانظار ، وعندئذ سألنى القبطان العجوز • وقد
وهن صوته •

— ماله الدكتور ؟

— ابنه مع الناس الى غرقوا ••
واتسمعت حدقتاه ، ونظر نحوى ولم يتكلم ، وكان وجهه
قد أصبح فى لون الزبد الذى يطفو على سطح البحيرة وقد
لمع عن ذى قبل وازدادت حدة البريق فى عينيه ، وعندما
رفع يده الى أعلى كانت أصابعه ترتعش بشدة ، وعندما هم
بالكلام كانت شفته السفلى تختلج ، ولعل الوقت الذى قضاه
صامتا كان يحاول الكلام دون جدوى • وأخيرا انفجرت
شفته وراح يتمتم فى ضعف شديد •

— ياما كان نفسى أعيش سنة كمان والا اتنين •• كنت
بابنى بيت فى الاسماعيلية لسهما كملشى •• ألف خسارة ••
ومصمص شفتيه فى أسى شديد ، وقال وصوته لا يكاد
يصل الى أذنى :

— أمر ربنا ••

ثم سكت وقد أصبح لون وجهه باهتا •• ومات البسريق
الذى فى عينيه ، وسكنت ذراعاه الى جانبه ولم يعد فى القبطان
العجوز شئ يختلج • وعندما انحنيت فوقه أفحصته كان
القبطان العجوز قد مات ••

الفصل الخامس عشر

لشد ما تغيرت الاحوال فى المنطقة خلال الاسبوع الذى أعقب نسف ميناء « أبو سلطان » حتى الطبيعة نفسها تغيرت مع حلول يناير البارد ، وهطلت الامطار الغزيرة بصورة مفاجئة ٠٠ وكانما جن الانجليز لهذا الذى حدث فاحتلوا الاسماعيلية كلها ، وحولوا فندق بالاس الى مركز للقيادة ونصبوا مدافعهم على السطوح ، وأقاموا على الباب متاريسهم وحفروا خنادقهم ، وبرزت فوهات رشاشاتهم من خلال النوافذ والابواب ٠٠

وذات صباح شديد البرودة غزير الامطار وقفت سيارة سوداء صغيرة عند باب المبنى الذى كان يحتله حسين ورجاله ونزل منها شاب فى مقتبل العمر يبدو عليه الاضطراب ، ودخل الحديقة وطلب مقابلة حسين لامر هام ٠٠ وعندما التقى الشاب الغريب بحسين شد على يده بحرارة وهناه فى كلمات قصيرة على نجاحه الباهر فى نسف الميناء ٠

وقال وهو يضغط بأصابعه على أصابع حسين :

— دى ضربة معلم ٠٠

وسكت حسين ولم يتكلم كأنه لم يسمع حرفا مما قيل ،

وأدرك الشاب الغريب أن حسين يرتاب في أمره ، فابتسم
ابتسامة صغيرة وقال وهو يسحب يده من يد حسين :

– أنا على جبران ضابط مباحث الاسماعيلية ..

وقال حسين وقد ازداد ارتياها في مهمة على

– أهلا وسهلا ، أى خدمة ..

وتشاغل الضابط عن الإجابة بالتلفت حوله كمن يبحث
عن مقعد يجلس عليه وقال وهو يمسح عن رأسه قطرات من
الماء بللت شعره ..

– ما فيش حاجة نقعد عليها ، أنا أصلى عاوزك فى حاجه

مهمه ..

وعندئذ تقدمنا حسين ودخل المبنى ، وصعد السلالم ،
وبعد لحظة كان ثلاثتنا فى حجرتى ، الضابط على المقعد الوحيد
فى الحجرة ، وأنا أجلس على حافة الفراش ، وحسين ظل
واقفا مسندا ظهره الى الحائط ، ينظر فى ريبة وقلق الى
ضابط مباحث الاسماعيلية ..

والحق أن كلمات الضابط الاخيرة كانت تبعث على القلق
والخوف ، فأى شئ مهم يمكن أن يأتى من أجله ضابط مباحث
ليجتمع بقائد كتيبة فى هذه الظروف ؟

وقال حسين ، وهو يتفرس الضابط باهتمام :

– أيوه ، اتفضل ..

وصوب الضابط نحوى نظرة بليغة كأنها لسان ينطق
ويقول ان هذا الشخص الجالس على حافة الفراش غير مرغوب
فيه أثناء الحديث وفهم حسين معنى النظرة ، فقال وهو يشير
نحوى ..

– الاستاذ حلمى ، صحفى وأخونا وزميلنا فى الكتيبة ..

وقال الضابط وقد بدت الدهشة عليه :

– حضرتك الاستاذ حلمى

وعندما هزرت رأسى بالايجاب قال فى صوت خفيض
- أهلا وسهلا •

ثم فرك يديه فى هدوء وقال وهو يعبث بيده فى شاربه
- قائد البوليس عاوز يقابلك ••

وقال حسين مستفسرا

- قائد البوليس مين ؟••

- اللواء زكى مراد ••

وهتفت أنا على الفور •

- اللواء زكى ؟ ازى حاله •

وقال الضابط دون أن يلتفت نحوى

- كويس

وقال حسين فى اهتمام ••

- وعاوزنى ليه ؟

- والله ماعرف ••

هكذا رد الضابط ثم نهض واقفا واتجه نحو النافذة وألقى
نظرة على الحديقة والى البحيرة ، ثم تتطلع الى السماء •
وقال وهو يعود الى المقعد :

- الدنيا لسه بتمطر ، حاجة غريبة

وتبادلنا النظرات أنا وحسين فى ارتياب ، وسادت فترة

صمت قبل أن يقول حسين للضابط :

- طيب أشوفه بكره ان شاء الله ، هوه مكتبه فين ؟

ورد الضابط :

- فى المحافظة ، وهوه عاوزك النهارده

وصاح حسين مشدوها :

- النهارده !!

وقال الضابط فى حزم :

- دلوقت ••

ثم واصل حديثه ولكن فى رقة

— لو سمحت

واربد وجه حسين ، وبدا غاضبا كاسد جائع ، ولم أكن قد رايت حسين غاضبا من قبل ، لم أره الا سعيدا ومبتسما وراضيا غايه الرضا حتى فى اللحظات الخرجه حتى وهو يضع قدمه فى الرفاص فى صريفه الى رحله الموت كان شديد السعادة ، شديد البهجة كأنه فى طريقه الى رحلة صيد !! وقال حسين وهو يضع اصبعه فى فمه .

— يعنى أنا مقبوض عليه ؟

ونظر الضابط فى دهشة الى حسين وأطلق ضحكة عالية .

وقال فى رقة متدهية ..

— مقبوض عليك ليه ياسيد حسين ؟ دا احنا زيك بنحارب

الانجليز ..

وقال حسين وهو لا يزال يقضم جلد ابهامه بأسنانه :

— ولو مارحتش النهارده ؟

— على كيفك ، بس الراجل منتظرك فى مكتبه ، وعلى كل

حال دى حاجه تهملك انت ..

وأطرق حسين نحو الارض قليلا ، ثم استأذن من الضابط

وغاب عنا قليلا ثم عاد وقد ارتدى ملابسه كاملة ، وقال بلهجة

سريعة كأنه يصدر اليها أمرا :

— ياللا بينا ..

وبعد قليل كانت سيارة على جبران تنهب بنا الطريق

المحاذى للبحيرة الى الاسماعيلية ، وعند أبواب المدينة اعترضتنا

دبابات انجليزية ضخمة تسد الطريق ، وقال جندى انجليزى

مدعور ومدفعه المصوب نحونا يرتعش فى يده :

— انزلوا ..

ونزلنا وأيدينا مرفوعة الى رؤوسنا وبعد أن فتشونا بدقة

سمحوا لنا بالمرور ، ودخلنا الاسماعيلية والوقت بعد الظهر

بقليل ، والجنود الانجليز يسدون الطريق ، ويحتلون الميادين
ويحفرون الخنادق على طول شاطئ ترعة الاسماعيليتية وكانت
المحافظة عندما وصلنا اليها غارقة في الصمت ، والاسلاك
الشائكة تحيط بها من كل جانب ، وجنود البوليس يتجمعون
في الفناء ببنادقهم القديمة ، وخوذاتهم الصفائح تلمع بفعل
الامطار الغزيرة التي غسلتها طول النهار ، وبعضهم وقف
يرتعش من البرد يدخن في شراهة ويختلس النظر من خلال
الاسلاك الى الشارع الرئيسى حيث راحت دبابات الانجليز
تتمخطر وقد تغطت بشباك خضراء فى لون الحقول ، وصفراء
فى لون الرمال ، وحمراء كالدم ، كأنها حسناوات فى عرض
هائل للازياء :

وعندما دخلنا مكتب اللواء زكى مراد كان الدفء يشيع
فى جو المكتب ، وزكى مراد يتأرجح على مقعده الهزاز فى
تكاسل لذيد ، ورحب بنا الرجل فيما يشبه الاحتفال ، وبعد
أن انتهينا من شرب الشاي ، صوب اللواء نحوى نظرة ناطقة
كتلك التى صوبها نحوى على جبران ضابط المباحث عندما
تأهب للحديث فى « الحاجة المله » مع حسين .

وعندما أصر حسين على أن يكون الحديث - ومهما كانت
اهميته - فى حضوري ، راح اللواء يتحدث عن المعركة
وظروفها ، وقوات البوليس وسلاحها وقوات الانجليز
واستعداداتهم ، وعدد القتلى من جانبنا ، والحرب والدمار
الذى شمل المنطقة بعد الغاء المعاهدة ثم جنون الانجليز بعد
حادث نسف الميناء وتهديداتهم المستمرة بالزحف على القاهرة
واحتلالها ، ثم عرج بالحديث الى السياسة ، وأفاض فى شرح
الغاء المعاهدة ، وقال فى ثقة شديدة وتهكم لاذع :

- الناس فاهمة اننا لغينا المعاهدة عشان نحارب الابغينز
ده مش معقول احنا لغيناها احتجاج بس ، يعنى احتجاج بس
عشان الجرايد بره تكتب ، والعالم يعرف أن احنامش نسوان ..

ثم ضحك ضحكة عالية • ضحكة من هذا النوع الذى لا ينطلق
الا من قلب صاف لا يحمل هما ، وتعجبت كيف تنطلق هذه
الضحكة الشديدة الصفاء من قلب اللواء العجوز زكى مراد
وهو المسئول عن المدينة فى هذه الفترة الحرجة ، والرجل
الذى ألقى الاقدار على عاتقه شرف مواجهة قوات الانجليز فى
المنطقة وضربهم اذا استطاع ، وقال زكى وقد انتهت ضحكته
الصافية •

— والحمد لله آدى احنا احتجينا ، والعالم كله عرف حكايتنا
لازم بأه نسايس المسائل مافيش أحسن م العقل ••
واللايه •

ثم صمت برهة ينتظر جوابا ، ولكن أحدا منا لم يرد ،
الذى رد كان ضابط المباحث ولم تكن المرة الاولى التى يرد
عليه خلال الحديث ، مرة بهز الرأس ، ومرة بالصوت ،
ومرة بإشارات اليدين ، وبالموافقة على طول الخط ، وقد
ارتسمت السعادة على وجهه كلما نظر اليه اللواء زكى مراد
كانما مجرد أن ينظر اللواء نحوه شرف لو تعلمون عظيم •
وعزم علينا اللواء زكى مراد بعلبة سجائر ، وأصر على أن
ندخن قائلا أن التدخين يهدئ الأعصاب عندما يواجه الانسان
أزمة بالغة الخطورة ••

ثم قال وهو يتسم ابتسامة باهتة :
— وما أظنش فيه أزمة زى الى احنا فيها دى ، معاياتسين
عسكرى درجة تانية مسلحين بالشوم ••
ثم مط شفثيه فى امتعاض ، وواصل حديثه فى صوت
خفيض :

— حتى الشوم انكسر ، والناس فاهمه هنطلع الانجليز
بالعساكر دى ، دول مايقدروش يطلعوا مظاهرة ••
وسكت اللواء زكى مراد ، وراح ينقر بأصابعه على
غلاف علبة السجائر ، ولا أعرف لماذا دقت النظر فى العلبة

كانت حمراء فاقعة اللون ، وفى ركن منها صورة لقط أسود صغير وعليها حروف بارزة بالانجليزية ، وفى جانب منها بقايا شريط يحمل علامة الجيش البريطانى (النافى) ، وكان هذا النوع من السجاير يباع فى الشوارع قبل أن تنشب معركة القتال ولكنها اختفت تماما بعد ذلك ، ولم أرها خلال المعركة الا فى بيت حمزة بك فى نفس الليلة التى طعن الانجليز فيها حمودة ومزقوا جنبه وكادوا يقضون عليه لكن من أين حصل اللواء زكى مراد على علب السجاير الفاخرة ، لابد انها من حمزة بك ، ولا أدري لماذا تحرك لسانى فجأة يسأل اللواء زكى مراد عن حمزة بك .. وقال اللواء فى غير اهتمام :

— موجود .

ولم يزد حرفا ، ثم نظر نحو حسين وقال فى لهجة جادة :

— معاك كام راجل ؟

— ميه

— ومعاكو سلاح أد ايه ؟

وصمت حسين قليلا كأنما يفكر ، ثم قال فى هدوء :

— والله ما عرف ، أهو معانا رشاشات وبنادق وشوية

ذخيرة .

وقال اللواء زكى مراد وهو يدون على ورقة أمامه بعض

البيانات :

— عظيم ، ايه رأيك بأه لو تتعاون معانا .

— بكل سرور ، بس نتعاون ازاي ؟

ورد اللواء وهو يزيح القلم والورقة جانبا :

— يعنى تضع نفسك ورجالك تحت أمر القيادة العامة فى

الاسماعيلية ..

وقال حسين مندهشا :

— وفين هى القيادة العامة دى ؟

وقال اللواء زكى وهو يبتسم :

- أنا ..

وتساءل حسين

- وبعد كده ؟

وقال زكى مراد وهو يبتسم ابتسامته التى لا معنى لها .

- خير باذن الله

ومد حسين يده الى علبة سجائر اللواء وسحب لنفسه نفافة ، وعندما هم باشعالها لاحظت أن يده ترتعش ثم راح يجذب منها أنفاسا عميقة متلاحقة ، ثم ألقى بها فجأة تحت قدميه وأحمد أنفاسها بحذائه ، وقد غاظت هذه الحركة اللواء زكى مراد فنهض من مقعده مذعورا وألقى نظرة على السيجارة الفاخرة ، وشعر حسين بالحرج فانحنى على الارض والتقط بقايا السيجارة وألقى بها فى المنفضة ثم هب واقفا وقال وهو ينحنى على المكتب ويستند عليه بكوعه :

- أنا عاوز أكون صريح شويه معاك .

ورد اللواء زكى مراد فى سعادة مصطنعة :

- اتفضل .. خد راحتك .

- يعنى فيه خطة لحرب الانجليز ؟

- لحد النهارده لا .. الاوامر اللى عندنا اننا ندافع عن

نفسنا اذا الانجليز هاجمونا .

- لكن احنا بنهاجم الانجليز ..

- أهوه ده ممنوع ..

ثم أشار اللواء زكى مراد لحسين بالجلوس ، وجلس حسين وقد بدا القلق على وجهه ، وقال اللواء وهو يتفرس فى حسين مليا :

- انت عارف نسف الميناء عمل ايه ؟

ولما لم يكن ينتظر جوابا من حسين على سؤاله ، فقد مضى

فى حديثه قائلا :

- دبابات الانجليز وصلت لحد العباسية ، يعنى لولا حكمة

جلالة الملك كانت البلد راحت في داهية ..
فقال حسين ونبرات صوته تقطر دهشة وسخرية ..
- وعشان كده نبطل حرب وضرب وأى حاجة
وقال اللواء :

- ياسيدى مش حنبطل ، بس مؤقت كده ، يعنى كويس
لما الانجليز يخشوا مصر ؟ ..
وقال حسين :

- ماهم في مصر ياسعادة البيك
فقال اللواء مفزوعا :
- دخلوا امتى ؟

ورد حسين فى هدوء
من سبعين سنة

فقال اللواء وقد بدا عليه الحجل :
- ايه ، آه ، أى صحيح ، بس قاعدين فى القنال ..
وقال حسين وهو ينظر نحو زكى مراد ، واللواء يتحاشى
أن تلتقى نظراته بنظرات حسين :
- وايه الفرق ، فى القنال زى شارع قصر النيل

وقال اللواء ..
- لا لا لا ، دى حاجة ودى حاجة
قال حسين وهو يغوص فى مقعده الوثير :

- ايه الفرق يعنى
- يا سلام فى شارع قصر النيل يعنى همه اللى بيحكموا
انما دلوقتى عندنا الملك وعندنا وزارة ، عندنا جيش وعندنا
بوليس وعندنا عربيات وكل حاجة ..
وفجأة دخل ضابط بوليس شاب برتبة ملازم وضرب سلاما
وقال فى لهجة عسكرية ناشفة :
- القائد الانجليزى والسبت بتاعته جاينين يقابلوا سعادتك
بعد نص ساعة ..

الفصل السادس عشر

كان اللواء زكى مراد اثناء الاسئلة والاجوبة التي راح يتبادلها مع حسين كطلقات الرصاص يبدو مضطرباً غاية الاضطراب ، وحبات العرق راحت تلمع على جبهته العالية الحمراء ، وراح يهتز في مقعده كأنه جالس على زمبلك ، وأصابع يده المرتعشة تفك أزرار سترته الضيقة ، ثم وضع كلتا يديه على المكتب كأنه تلميذ خائب يتأهب لتلقى العقاب وقال في صوت يختلف تماما عن صوته العادى ، صوت باهت أجوف أجرب كأنما ينبع من قفاه :

- ياه ، ده انت صعب قوى ، انت أصبك لسه صغير ماشفتش حاجه ، ماشفتش أيام الحماية ولا أيام الامتيازات .. احنا كنا بقر .. حتى السلطان بتاعنا كان بقرة .. احنا كنا فين وبقينا فين .. كتر خير الدنيا .. وأدى احنا بقينا نضرب الانجليز بالنار .

ثم جفف عرقه الذى راح يشرب ، وقال بنفس الصوت الاجوف الباهت .

- انت فاهم حتطلع الانجليز لوحذك .. احنا كفاية نضرب فيهم شوية كده .. نهوشهم .. وبعدين نتفاوض .. نقوم ناخذ حاجة زيادة .. وحاجة فى حاجة كل شىء يبقى تمام ثم أطلق ضحكة قرعاء كصوته ، وقال وقد تبدل احساسه

الاول وطفى عليه شعور آخر بأنه أصبح سيد الموقف .
 - انت فاهم احنا خافين على نفسنا .. طيب اسأل الاستاذ
 وأشار نحوى وهزرت رأسى بالموافقة دون أن أدري على أى شىء
 سوف يسألنى ، ثم قال دون أن يسألنى أحد :
 - أنا نهار ماكنت جى فى القطر رفضت أقف .. تحديد
 الظابط الانجليزى .. كنت مستعد أموت عشان أدافع عن كرامتى
 .. لأن كرامتى من كرامة البلد .. مش حصل يا أستاذ ؟
 وقلت على الفور :
 - حصل .

وعندئذ ألقى اللواء زكى مراد بنفسه الى الحلف ، وكأنما هذه
 النتيجة الحسنة التى وصل اليها قد أرخت عضلاته المشدودة
 ولتقط سيجارة أشعلها وراح ينفث دخانها فى لذة وعلى مهل .
 ولقد كانت من وفرة الاحداث فى المنطقة واشتباكها والتحامها
 واضطر بها وهى تدور حول نفسها كالدوامة ، اننى لم أعد أذكر
 شيئاً مما حدث بالأمس ، كل أمس ، كان كل يوم يأتى بجديد
 ومع كل جديد أحداث وتفاصيل لا يستطيع العقل أن يستوعبها
 كلها ، أو يتذكر بعضها ثم لا يلبث أن ينساها تماماً اذا أطل يوم
 جديد ولكن لأدري ما الذى حدث لذاكرتى فجأة وجعلنى أتذكر
 حديثاً جرى بينى وبين حمزة بك عبد المقصود ونحن فى قصره
 نشرب زجاجات الويسكى وندخن سجائر الانجليز ، لقد قال
 ليلىئذ نفس الكلمات التى نطق بها الآن زكى مراد ، لعله نطقها
 بنفس الحروف ، لعله نطقها بنفس اللهجة ، بل أستطيع أن أتذكر
 الآن انه نطقها بنفس الصوت ، الصوت الاجرب الباهت الاجوف
 الذى يبدو كأنه صادر من قفاه .

فلسفة غريبة ، نطلق النار على الانجليز لتهويشهم، ثم نتفاوض
 ونحصل على شىء زيادة ، وكل عشر سنوات تقوم هبة ضد
 الانجليز تهويشة ونحصل على شىء وبعد مائة عام نستطيع أن
 نحقق كل شىء .. فلسفة زكى مراد وفلسفة حمزة عبد المقصود .

ولكن أين أنا ؟ هل أنا مع حمزة عبدالمقصود ؟ هل أنا مع حسين ؟

هل أنا مع حمودة وفتحى بدير ؟ فى الواقع لست أدرى ، لعل سر الراحة الكبيرة والطمأنينة البالغة التى يعيش فيها حسين ، وزكى مراد وحمزة عبد المقصود وحمودة وفتحى بدير انهم جميعا يعرفون أين هم ، ومع من وضد من ، وأنا لا أدرى .

أنا شديد القلق كقطار يجرى على غير قضبان ، شديد الخوف كأرنب أخلق به انصياد فى أرض عراء ، شديد التهور كرصاصات طائشة . متأرجح كبن دول ساعة ، وهذه المعركة بالنسبة لى مجرد مغامرة لا يهمنى الى أى نتيجة تنتهى فالمهم أن تستمر ، ومادامت مستمرة فالمغامرة مستمرة ، اذن أنا مع المغامرة ، ولكن المغامرة ليست هدفاً . . . المغامرة ليست نتيجة ، المغامرة . . .

وقطع حبل أفكارى حسين وقد انتفض واقفا فجأة ، ومد يده الى زكى مراد يسلم عليه ، وظلت يده معلقة فى الفضاء فقد أبقى زكى مراد يده الى جواره وقال حسين ويده لإتزال ممدودة وكفه مفتوح على آخره :

— أنا حاسناذن .

قال زكى مراد :

— بس ما اتفقناش .

— أنا آسف . . . مش هاتفق

وهب زكى مراد واقفا ونظر الى حسين فى غضب وقال وهو ينقر بأصبعه على حافة المكتب :

— فى الحالة دى حانفذ الاوامر

وقال حسين :

— أمر سعادتك

وقال اللواء زكى مراد وصوته يحمل نبرة تحذير

— عارف الاوامر ايه .

وعندما هز حسين رأسه بالنفى ، قال اللواء وهو يضغط على

أسنانه :

- هنضربكوا بالنار ..

وقال حسين وقد سحب يده المعلقة فى الفضاء

- واحنا كمان حن دفاع عن نفسنا ،

وبدا حسين يغادر المكتب وأنا خلفه وضابط المباحث خلفي ،
وقبل أن يصل موكبنا الى الباب صاح زكى مراد فى لهجة أمره

- حسين ..

فتوقفنا دفعة واحدة ، كأننا طابور عساكر صدر اليه أمر
بالتوقف والتفت ثلاثتنا نحو زكى مراد ، كان قد غادر مكانه ،
وجلس على حافة المكتب ناحية اليمين ، وفى يده شئ لامع كأنه
سيف صغير ، وبعد أن نظر طويلا نحونا قال وهو لا يزال يعبث
بالسيف الصغير ويطعن به خشب المكتب الفاخر :

- حسين .. أنا ماشفتكش .. ربنا معاك

ونظر حسين نحوزكى مراد ونظر نحونا وتهللت أسارير وجهه
بالفرح وانفرجت شفته عن كلمات غير مسموعة ثم وقف مكانه
مضطربا لا يدرى الى أين يتجه ، ولكن زكى مراد حسم الموقف
عندما نهض من مكانه على حافة المكتب واتجه الى مقعده وعندئذ
استدار ثلاثتنا نحو الباب ولم نكد نصل اليه حتى انفتح الباب
فجأة ودخل أحد الصولات مهرولا وضرب سلاما ثم أعلن عن
وصل القائد الانجليزى ولم يكن وحده ، كانت معه امرأة
صارخة الفتنه شقراء كالحليب شعرها أحمر فى لون الشاى ،
وعندما اقتربت منى شهقت فزعا .. لم تكن سوى مدام ريتا ،
وهممت بالاقتراب منها ، ولكنى تسمرت فى مكانى ، حاولت
الزعيق أنادى عليهما ولكن الكلمات ماتت على شفتى ، ما الذى
جاء بها الى هنا ومع القائد الانجليزى ! ولم تطل وقفتنا فى ركن
الحجرة اندفعنا الى الخارج ، الى فناء المحافظة ، الى الشارع ، الى
سيارة على جيران ضابط المباحث ، وركب حسين السيارة وركب
الضابط ووقفت أنا خارج السيارة ويدي ممدودة داخل النافذة

أصافح حسين ٠٠ استأذنت من حسين على أن نلتقى بعد ذلك ،
متى وأين ؟ لم يسأل أحدهما الآخر ٠ وتصافحنا فى ود وفى
هدوء ٠ وانطلقت بهما السيارة الى « أبو سلطان » وانطلقت أنا
نحو بحيرة التمساح ، الى عش النسر ، الى حيث فتحي بدير
ورجاله ، فلکم تآقت نفسى الى الليالى الساحرة الغابرة التى
قضيتها مع حمودة ، والدخان ذو العطر النفاذ يزكم الانوف ،
والسّمك يتقلب على النار وطلقات الرصاص حولنا يتجاوب
صداها فى الافق البعيد ٠٠

وصلت عش النسر ساعة عصارى والدنيا برد والسماء التى
كفت عن المطر تبدو فى لون الارض ، ولم يكن أحد هناك حول
العش والبحيرة هى الاخرى كانت مهجورة الا من قارب فى لون
الحمر راح يهتز مع الموج بالقرب من الشاطئ وقد امتد جبل
غليظ من قلبه الى قلب العش ، واقتحمت باب العش الذى كان
مواردا ، ولكن لم أكد أخطو خطوة داخل الساحة التى طالما
شهدت سهراتنا الممتعة أيام حمودة حتى استوقفنى صوت جهر
يأمرنى فى حزم :

— قف من انت ٠٠

وتسمرت فى مكانى ورفعت بصرى الى مصدر الصوت ،
واكتشفت أن الصوت لثلاثة رجال فى زى كزى رجال الاسعاف
وعلى أذرعهم شارات خضراء تحمل حروفا ضخمة ومدافعهم فى
أيديهم ٠٠

ووقفت لحظة أفكر فى الأمر ، ثم قلت فى غير مبالاة :

— فتحي هنا ؟

— فتحي مين ؟

هكذا سألنى أحد الرجال الثلاثة وهو يرقينى بنظرة تحد
ومدفعه الرشاش يقترب منى ، وقلت فى لهجة تعمدت أن تكون
أرق من لهجتى فى بداية الحديث :

— فتحي بدير ٠٠

وقال الرجل بمنتهى الازدراء :

- مين عاوزه ..

وبلعت ريقى وأنا أنطق فى صعوبة ..

- أنا ..

ورمقنى الرجل بنظرة قاسية من خصلة شعرى التى كانت تهتز مع الريح الى حدائى الذى كان يحمل معه أرتالا من الطين وقال فى هدوء :

- وهو يعرفك ..

وعندما أجبتة بالإيجاب قال وهو ينظر نحوى نظرة احتقار بالغة :

- ما فيش حد عندنا هنا اسمه فتحى ، الى عندنا اسمه الصاغ فتحى .. -

صاغ !! لابد أنه ليس فتحى بدير الذى أعنيه ، لابد أنه فتحى آخر .. ففتحى الذى أعرفه ليس صاغا ، ولم يكن صاغا فى يوم من الايام ، وقلت للرجل وأنا أخفى دهشتى :

- هوه حضرة الصاغ اسمه فتحى بدير ..

ورد الرجل فى دهشة أكبر :

أمال بتقول تعرفه ازاي ؟

نم نظر الى أحد الرجلين وأمره فى لهجة عسكرية بأن يذهب ليخبر .. حضرة الصاغ .. بأن شخصا يريد ..

وغاب الرجل الذى ذهب ليخبر فتحى طويلا ، ونهش الغيظ

قلبى وأنا أقف فى البرد وسط الساحة محاطا بالشاويش وبعض الجنود . وفكرت فى العودة من حيث جئت ، لولا خوفى من الشاويش الذى قد يرتاب فى أمرى اذا أنا أقدمت على تنفيذ هذه الخطوة ..

وبعد نصف ساعة مرهقة قضيتها واقفا على أعصابى عساد الرجل ومعه ، اذن لى بمقابلة حضرة الصاغ فتحى ، وقد نطق هذه العبارة الأخيرة بطريقة انتزعت منى الضحك رغما عني

« حصاغ » ثم تقدمنى ومدفعه فى يده الى غرفة جانبية فى نهاية الساحة لم يكن لها وجود فى عهد حمودة ، وصدمتنى لافتته نحاسية لامعة معلقة على الباب تحمل ثلاث كلمات بحروف بارزة « الصاغ فتحنى بدير ! » ..

وعندما دخلت على فتحنى مكتبه الانيق لم يكن يعلم حتى لحظة لقائنا اننى أنا الشخص الذى يريده ، وعندما رآنى اضطرب قليلا ثم نهض من مقعده وتلقانى بين ذراعيه فى ترحيب شديد ووقفت أنظر نحو فتحنى وقد تملكنى العجب لمتظره ، كان يرتدى بنطلونا من الصوف المقلّم ، نفس البنطلون الذى كان عليه سالف الايام ، ولكنه كان يرتدى قميصا عسكريا من القماش الكاكي ، وعلى كتفه النحيل يتأرجح .. تاج فى لون الذهب وفوق صدره وسام ملون ، وقال فتحنى وقد بدا الحجل عليه :
— هنعمل ايه ، الحرب عاوزة كده !

كانت الحجرة التى استقبلنى فيها فتحنى أنيقة بشكل ملحوظ ، المكتب الذى يتوسطها فاخر ومن خشب الارو ، وأمام المكتب كنية تفوص فيها اذا لامستها ، وثلاثة مقاعد من نفس نوع الكنية ، وعلى الارض سجادة فاخرة ، وفوق رأس فتحنى صورة ضخمة لفتحنى وهو فى الملابس العسكرية وعلى يساره فى منتصف الجدار صورة أخرى لفتحنى وهو ينظر من خلال منظار معظم الى البحيرة ، وقد بدا الاهتمام على وجهه الشديد الغضون !!

وطول الليل وفتحنى بدير يحكى لى عن أمجاده ، والفرق الهائل الرهيب بين كتيبة وحوش الجبال فى عهد حمودة ، ونفس الكتيبة فى عهد فتحنى .. عن النظام العسكرى الصارم الذى يتبعه عن الاوامر الناشفة ، عن نجاحه الباهر فى تنظيم صفوف رجاله ، ثم فجأة ، وكان منتصف الليل قد حل ، صرخ فتحنى على أحد رجاله ، وعندما جاء الرجل مهرولا ، اتخذ فتحنى هيئة القادة العظام ، وقال ووجهه جامد كالصخر :

- وضب لنا قعدة بسرعة

ونفض فتحي فخلع لباسه العسكري وارتدى جلبابا أبيض اللون وطاقيه ٠٠ ولم تمض خمس دقائق حتى عاد الرجل الذي عهد اليه بتوضيب القعدة ، ووقف عند الباب زنهارا ، وضرب تعظيم سلام وقال ويده ترتعش عند جبهته :

- خلاص يافندم ٠٠

كانت القعدة ظريفة للغاية ، على شاطئ البحيرة ، ولكن داخل حجرة من البوص مفتوحة على الماء ، ومفروشة من الداخل بسجادة فاخرة وعشرات الشلت الناعمة الملونة ٠٠ والجوزة في وسط الغرفة والنار تشتعل في الفحم عند الباب ، ولم يكن معنا أحد ، بينما أحاط بالعشة من الخارج عشرة رجال بمدافع رشاشة وقال فتحي وقد بدأ الانسجام :

- أنا مش زى حمودة ، أنا ماحبش أشرب مع العساكر ،

لو أشرب معاهم ماقدرش أحكمهم ٠٠

ثم قال وهو في منتهى السعادة :

- انت شفت لما أمرت بتوضيب القعدة اتوضبت في خمس

دقائق ، مفيش كلام ، عسكرية ناشفة !!

ثم قال بعد أن شفط نفسا عميقا ٠٠

- تعرف لو حمودة ، كان قعد ساعتين عشان يوضب قعدة

زى دى ٠٠

ولما سأله عن الاحوال في الكتيبة قال بفخر شديد

- الحمد لله ، الأحوال عال والأشياء معدن ، وأدى احنا الى

بنكسبه يادوب بيقضينا ٠٠

ثم راح يحكى لى بالتفصيل موارد الكتيبة ومصروفاتها ، وعندما

انتهى من سرد كل شيء ، طبع قبلة حارة على ظهر يده ، ثم أدار

يده وطبع قبلة أخرى ثم هتف في سرور :

- الحمد لله على كل حال .

وكان المزاج والانس قد استبدا بنا فهتف فتحي ولكن

فى لهجة ناعمة :

- شوف الست يا عسكرى ..

وجرى العسكرى الى الداخل وغاب دقائق ثم عاد ومعه المرأة
البدينة رتيبة تلك التى جاء بها حمودة ذات مساء بعيد ، ثم
هربت مع فتحى بدير بعد ذلك ، وجاءت رتيبة فى أبهى زينة
المنديل الترتير الأحمر يكاد يلتهم قطعة من رأسها ، وقميص نوم
أحمر كالمنديل ، وقد بدت أكثر رشاقة وأكثر جمالا عن ذى
قبل ، وسلمت علينا فى دلال ، ثم جلست الى جوار فتحى ،
وكلما نطق فتحى بكلمة ضحكك رتيبة من الأعماق ، وخبطت
على صدرها بيدها ، أو خبطت على صدر فتحى ، وفتحى يضحك
كطفل حتى يستلقى على قفاه ، ويضرب رتيبة ، ولكن ضربا
خفيفا لطيفا غاية فى الانسجام !

وقال فتحى وهو ينظر نحوى ويده على كتف رتيبة :

- أنا عسكرى ناشف فى كل حاجة الا مع رتيبة ..

وقالت رتيبة وهى تتقصع ويرتعش حاجبها فى دلال :

- انت ناشف !! والنبي بلاش وكسة ..

وقال فتحى وشبح ابتسامة يرتسم على شفثيه :

- ايه يا رتيبة ؟ طيب عيني فى عينك ..

وسددت المرأة نظرات ثابتة نحو فتحى وكان الأمر جدا غاية

الجلد ، ولم تمض لحظة حتى ضحك فتحى ، وهو يبعد عينيه عن

نظرات رتيبة الوقحة وقال وهو يضحك ولكن فى مرارة :

- طيب يا رتيبة ..

وقالت رتيبة وقد تحشرج صوتها ..

- طيب ايه .. ماتقول ، لفندى مش غريب ..

ولكن فتحى تجاهل ثورة رتيبة وسألنى فى اهتمام :

- حسين ازى حاله ؟

- كويس ..

وقال فتحى وهو يهز رأسه

- جدع ابن حلال ، بس ماينفعش فى الحرب
وعندما سألته عن الاسباب التى بنى عليها هذا رأى ،
أجاب فى هدوء :

- أصل الحرب مش عاوزه الطيب ، وحسين طيب قوى ..
ثم شفت نفسا آخر ، وقال وقد اكتسى وجهه قناعا من الجد
والصلابة ..

- الحرب عاوزه الناشف من غير مؤاخذه وحسين طرى ..
كانت رتيبة حتى هذه اللحظة تجلس صامته ، وأصابها
تنكش فى السجادة الناعمة ، ولكن عندما وصل الحديث الى هذا
الحد ، التفتت نحو فتحى وقالت فى سخرية شديدة :

- يعنى انت الى ماشاء الله قوى ..
وعندئذ ثار فتحى ثورة شديدة وقال وهو يلوح لها بيده :
- جرا ايه يا بنت المركوب ..
ولكن رتيبة لم تتراجع ، وقالت وهى تنظر نحوه بازدرء :
- والنبي تنوكس ، دى وكستك مش على حد ..

وكانما طاش صواب فتحى فجأة فانهال بظهر يده على وجه
المرأة فى شدة شديدة وردت رتيبة على لطمات فتحى بالبكاء ،
ولم يكن بكاء عاديا ، كان بكاء غريبا ، بكاء تستطيع ان تشم فيه
رائحة الانثى ، انثى مكسورة الحاطر ، محرومة ، تجد فى البكاء
لذة ، وتعويضا عن متعة الفراش ، وكانت رتيبة خلال البكاء
تشهق بطريقة غريبة ، وكانت تبكى بطريقة موسيقية ، وصوتها
يعلو من انقرار الى جوب الجواب وجسمها الطرى السمين
يهتز كله اهتزازات ملتناعة جائعة ، ثم راحت تندب حظها فى
صوت يقطر أسى ومرارة ، وبكلمات لا يمكن أن تكون هى
المناسبة فى مثل هذا المقام !!

وقال فتحى الذى بدا عليه الاضطراب ..
- أنا الى غلطان يا بنت المركوب ..
ثم صرخ على العسكرى الواقف أمام العشة ، وأمره بعسكرية.

ناشفة أن يعيد «الست» الى حجرتها ..

وسادت بيننا فترة صمت بعد أن غادرت رتيبة العشة ، وبدأ
على كل منا اننا قد سئمنا شد الانفاس ، وقلت لفتحى أسأله
فى حذر :

- مالها رتيبة ..

ولكن فتحى الذى كان غير راغب فى الحديث عن رتيبة ، اكتفى
بقرض أسنانه ثم قال فى غير اهتمام :

- بنت كلب ..

ثم قال بعد فترة صمت ، وكأنه يحدث نفسه :

- أنا غلطان الى اتجوزتها ..

واذ هدأ فتحى راح يسألنى عن حقيقة ما حدث فى ميناء أبو
سلطان وحكىته له القصة كلها وهو يستمع فى اهتمام ، ثم
لقاؤنا مع اللواء زكى مراد ، ثم المفاجأة التى أدهشتنى بدخول
القائد الانجليزى اكسهام مع مدام ريتا ..

وقلت وأنا أتمدد على السجادة الى جوار فتحى :

- يظهر فيه مشاكل بينها وبين الانجليز ..

وقال فتحى وهو ينظر نحوى بعينيه المحمرتين :

- انت ماعرفتش ؟

- عرفت ايه ..

- ريتا اتجوزت اكسهام من أسبوع ..

الفصل السابع عشر

ومضى أسبوع كامل وأنا لا أفيق ، طول النهار وأنا أتمدد على العشب أو داخل العشة أشفط أنفاس الحشيش وأراقب فتحى بدير وهو يقلب جمرات النار بأصابع مرتعشة ، وفى الفجر كنت أتسلل وحدى الى مكتب فتحى لأنام ولم أكن أنام كما ينام الناس عادة ٠٠ كنت لأنام الا اذا سقطت من شدة الاعياء ، وأصبحت عاجزا تماما عن الحركة أو تبين حقيقة الاشياء أو الكلام ٠٠ وخلال الساعات القليلة التى كنت أنامها كنت أدخل معارك واقتحم مخاطر وأعانى أهوالا ، وأستيقظ فجأة منهارا متعبا ورأسى منفوخة كأنها مفتوحة من الجانبين ، وكأنى مضروب علقه ، كنت كالتائه خلال هذا الاسبوع ، والسبب مدام ريتا ،

وأنا لم أكن أحب ريتا حبا كهذا الذى وصفه الشعراء ، بل كنت أنساها كلما أدرت لها ظهري ولا يخفق قلبى بحبها الا عندما يضمنى معها فراش واحد ، ولكن نبأ زواجهما من القائد الانجليزى مزق قلبى تماما وأفقدنى برجا من عقلى ٠٠

اذن هذه الصغيرة كالحمامة ، الحلوة كالمهلبية ، ذات الشعر الاحمر فى لون الشاى لم تكن تعجب شخصى الضعيف كما كنت

أتوهم لقد منحتنى جسمها لاسكت ، منحتنى ليالى حبها ثمننا
للسكوت ، أنا كنت سلعة اشترتنى مدام ريتا بأثمن ماتملك
وعندما أصبح ثمن سكوتى لايساوى شيئاً ، تزوجت
من القائد البريطانى ٠٠ اذن لقد كنت مغفلاً ، لم أكن ذلك
الولد الفتك كما توهمت بعض الوقت ، لم أكن ذلك
الفارس الذى تركع أجمل النساء تحت أقدامه ، أنا مجرد جردل
ولا أزيد !!

وفى ضباب الجوزة استطعت أن أنسى ٠٠ وكان كلانا ، أنا
وفتحى نجلس صامتين كأننا فى مأتم ، ولم يكن يصدع دماغى بأخبار
المركة كما كان يفعل معى حسين ، كان يجلس مطرقاً يشفط
أنفاس الجوزة فى هدوء مزيف يخفى قلقاً غير مفهوم يهز رأسه
اعجاباً ثم يتمتم فى انبساط :
- الحمد لله ٠٠ الحمد لله ٠٠

وأحياناً أخرى كان يقبل يده ظهراً وبطناً ، ثم يردد بينه
وبين نفسه عدة كلمات ، ثم يعود الى صمته ٠٠
وذات ليلة ونحن جلوس صامتين كالعادة ، سألنى فتحى
فجأة وهو ٠٠ يحك فى عينيه :
- هوه الى فى الدرجة الثالثة بياخذ كام ؟ ٠٠
- أربعين جنيه ٠٠

وسرح فتحى قليلاً بعد أن سمع الرقم ، ثم قال وعلى وجهه
علامات الدهشة :
- بس !! ثم أطرق صامتاً من جديد ٠٠

وفجأة انفتح فى الكلام كأنه حنفية انقطعت جلدتها :
- الدنيا دى حظوظ ، أبويا الله يرحمه كان عاوزنى أطلع
مدرس ، كان نفسه يعمى وأطلع مدرس ٠٠ وأنا بصراحة ماكانش
ليه مزاج فى الدراسة أنا مش بتاع تعليم بينى وبينك ، أنا أكبر
من كده ، أنا فى الحرب الى فانت كنت باكسب ميت جنيه
كل يوم ، والنهاردة الحمد لله برضه ، أقل شهر بتاع ميتين

جنيه ، مدير الطبط في المحافظة كان زميلي ، كان أبويا /بيضرب
بيه المثل ، النهارده درجة تالته ، يعنى ، بأربعين جنيه ، احنا
شاربين حشيش الاسبوع ده بأربعين جنيه !!

وضحك فتحى بدير ضحكة ساخرة وقال وهو يقلب جمرات
النار- بأصابعه السميكه المرتعشة ..
- حظوظ !!

ثم استطرد بعد فترة صمت قصيرة ..
- بس برضه جدعنه ، الحظ لوحده مش كفاية .. ماخنا
كان معنا الواد اسماعيل العجلاتى ، النهارده مش لاقى يحلق
أصله نحس بعيد عنك !!

وذات مساء سألتى فتحى فى اهتمام :

- الحرب دى آخرتها ايه ؟ ..

وعندما قلت ببساطة ..

- بكرة يصطلحوا ..

هتف فتحى فى غيظ وكان مصيبة كبرى على وشك
الوقوع :

- دى تبقى مصيبة ، يصطلحوا ازاى ؟

- الانجليز تتنازل عن شوية حاجات والحكومة تتنازل عن
حاجات ، ويصطلحوا ..

وقذف فتحى بالجوزة بعيدا وقال والدهشة ترتسم على
وجهه ..

- مش معقول .. دى خيانة ، الى يصطلح يبقى خاين ،
طيبو والرجالة الى بتحارب دى ، مصيرها ايه ؟

ونظرت نحو فتحى فى غيظ ، فأين هي الرجالة التى تحارب ؟
رجالته ؟ الواقفون حولنا يحرسون قائدهم وهويدخن الحشيش ؟ أم
هو نفسه ، حضرة القائد الذى تفرغ تماما لرتيبة ولقعدات
الحشيش !!

وتركت فتحى بدير يصلح من شأن الجوزة التى انخلعت ،

وغبت داخل نفسى المهزومة ألعق جراح قلبى فى غيظ !!
ولكن قلبى لم يكن مجروحاً ، لم يكن به أدنى خدش ، قلبى
كان سليماً معافى . . دقاته ترتفع بانتظام وبقوة كقلب عداء دولى
أو سباح يجيد عبور المانش ، الجرح كان فى كسرامتى ، أنا
مجروح الكرامة كرجل ، حكاية مدام ريتا هزت أعماقى بقسوة ،
وفزعنت عن نفسى قناعاً كنت سعيداً به غاية السعادة لقد توهمت
لحظة ارتماء مدام ريتا فى أحضانى أننى رجل مرغوب ومحبوب .
واننى ذكر تشتهيهِ الأنثى وتفضله عن سائر الذكور ، وأى شيء
يملاً نفس الرجل غرورا وزهوا أكثر من أن ترفع امرأة تحفة ،
فى جمال ريتا تحت أقدامه تتأوه والدمع يلوح من خلف عينيها ،
والضعف يكسو وجهها تتوسل فى دلال أنثوى جميل :

— حلمى ، عشان خاطرى . .

— طيب وعشان خاطرى أنا . .

— عشان خاطرك انت ، ارمى نفسى فى البحر . .

هل يمكن أن يكذب الانسان الى هذا الحد ؟ هل يمكن تزييف
العواطف البشرية الى هذه الدرجة ، هل يمكن أن يتقاتل الناس
بتبادل الابتسامات بدل تبادل الطلقات ، كم كنت ساذجاً اذ
صدقت مدام ريتا ، اذ خيل الى أنها فعلاً تحبنى ، لم تكن تحبنى
اذن ، كانت ترهبنى ، كانت تخشانى ، كانت تنافقنى ، وكل
قبلة وكل لمسة كانت مجرد رشوة من المدام . .

• اشرب ، أجدع تعميرة . .

• كله زفت . .

• ياسلام ع الحظ يا جدعان . .

• بقى درجة تالته بأربعين جنيه . .

• الله يرحمك يا بابا . .

كان فتحى بدير يتحدث الى نفسه بين الحين والحين ، لم يعد
يعنى بسؤالى ولا بالنظر نحوى ، وكان يبدو شديد الانبساط
أحياناً ، وشديد القلق أحياناً أخرى ، وفجأة سألتنى وهو يزفر

بشدة :

- افرض الحرب خلصت ، مش الناس الفدائيين يروحوا
الجيش ؟ ..

كان السؤال ساذجا فلم أهتم بالرد عليه ، اكتفيت بهز
رأسى موافقا ليطمئن قلبه ..

وعندئذ نظر ساهما ناحية البحيرة وقال وبصره معلق فى
الافق البعيد ..

- هوه الصاغ يياخذ كام فى الجيش ؟

- أربعين جنيه ..

- بس !!

وعندما هزرت رأسى بالايجاب ، قال وهو يشفط أنفاسا
عميقة متلاحقة :

- يبقى الفدائيين أحسن ..

ولم يكن يزعجنى شيء فى عش فتحتى .. الا شجاره المتكرر
مع رتيبة ، لم تكن رتيبة مجرد .. شيء .. فى حياة فتحتى كما
كانت مع حمودة .. لقد كانت زوجة فتحتى ..

وكانت المعارك العنيفة تنشب بين فتحتى ورتيبة فى الصباح
الباكر عندما يدخل فتحتى الى حجرته لينام .. عندئذ كان يتصاعد
صوت رتيبة بكلام كثير ثم تنفجر بعد ذلك فى البكاء ، وعندئذ
كان صوت فتحتى يرتفع للجو ..

- انت فاهمة نفسك ايه ، انت متجوزة أجـدع راجل فى
خط الكنال .. أنا صارف عليكى دم قلبى ، انت جايبه هدوم فى
الشتا بأربعين جنيه ، ماهية واحد درجة تالته ، وكم ان بتزعقبلى ،
انت فاهمانى بتاع سمك ، أنا راجل قائد ومشهور وعندى
عساكر ، طيب ودينى أضربك بالرصاص ، فاهمة أضربك
بالرصاص يعنى ايه ..

وكان فتحتى يهددها دائما بضرب الرصاص ، وكان يعيرها
بمجدده ومركزه والمبالغ التى انفقها عليها ، ولم تكن رتيبة ترد ،
كانت تكتفى بالبكاء !!

وكان فتحى عقب كل خناقة حامية بينه وبين رتيبة يفر هاربا من العش الى غرزة داخل المدينة يدفن فيها أحزانه ، وكانت رتيبة عندئذ تغلق على نفسها الباب وتبكي فى مرارة ، ثم تكف فجأة عن البكاء .. وتنام !!

وذات صباح عدت الى عش النسر والغيظ يأكل قلبى ، فقد ظلمت أدور ساعات حول فندق بالاس أحملق فى النافذة التى طالما شهدت أيامى السعيدة مع مدام ريتا ، ولم يكن باستطاعتى أن أقترب من الفندق ، وقد تحول الى مركز قيادة للانجليز فى المدينة ، ودخلت مجلا قريبا من الفندق وطلبت مدام ريتا فى التليفون ، وردجندى انجليزى يتكلم بصوت مسرع كأنه عرسـة تصرخ فى الليل :

● القيادة العامة ، من تريد ؟

● مدام ريتا ..

● من ؟

● مدام ريتا

● لا يوجد أحد بهذا الاسم ..

● مدام اكسهام ..

● من الذى يطلب مدام اكسهام ؟

● أنا .. أنا حلمى

● هيلمان .. ؟!

● حلمى ..

● انتظر لحظة

وانتظرت لحظات ، ولاحظت أن التليفون يرتعش فى يدى ، وقلبى راح يدق بعنف ، وصدرى يعلو ويهبط ، وقطرات عرق باردة تنبع من جبينى ، هل ترد مدام ريتا ؟ هل ياترى لائزال نذكر هذا الاسم ؟

● حلمى ؟ من هو حلمى هذا يا كوبرال ؟

● لا أعرف ياسيدتى .. كل ما أعرفه ان اسمه حلمى ، وانه

يريد محادثة مدام اكسهام ..

• أنا لا أذكر أحدا بهذا الاسم .. حلمى ، اسم غريبه
ياكوبرال ؟

• سأصرف يامدام ..
تصورت الحديث بين ريتا والجندى الانجليزى على هذا النحو ،
فليس من المعقول ان ترد المدام على شخصى الضعيف وتعتذر عن
.. ظروفها السيئة .. التى جعلتها تتزوج من قائد الانجليزتم
تضرب لى موعدا فى الحلاء بعيدا عن العيون !!
وارتفع صوت الجندى الانجليزى فى التليفون ..
• هالو مستر حلمى ..

• هالو ..
• من أى مكان تتصل بنا فى التليفون ؟
• من مكان بعيد ..
• من أى مكان بالضبط ؟
• ولكن لماذا تسأل ياكوبرال ..
• أذكر رقم تليفونك الذى تتحدث منه .. وانتظر دقائق ..
• ستتصل بك المدام

• هه ، رقم تليفونى عشرين ..
• نعم ، عشرين ، ماذا ، ماذا ، ماذا
واغلقت سماعة التليفون ، وصوت الجندى يردد فى جنون ،

• نعم ، ماذا ، ماذا ، ماذا .. مستر حلمى ، مستر حلمى ..
ورحت أجرى بعيدا عن المحل ، ان مدام ريتا لا تريد ان تتصل بى
انها تريد ان تقبض على ، تريد ان تنتقم من لحظات الضعف التى
بدت فيها أمامى .. تريد ان تسترد الثمن الذى دفعته لى فى الايام
الحوالى .. ورحت اعدو بسرعة الى عش النسر والغيسظ يأكل
قلبى ، وشئ يجثم على صدرى ويكتم انفاسى ..

لقد زال الآن آخر خاطر كان يداعب نفسى فى انه ربما احببتنى
مدام ريتا وربما اشتهتنى كرجل ولم يعد ثمة شك فى الحقيقة
البشعة الرهيبة وهى اننى اصبحت .. حبيب .. مدام ريتا عن
طريق الارهاب ، لقد هددت بنشر اخبارها فأحببتنى .. يالهامن

وكسة عريضة ، لم اكن اذن خيرا من حمزة بك عبد المقصود ولا احمد بك العيسوى ولا طاقم البكوات الذين كانوا يلتفون حولها كل مساء ، لقد دفعوا ثمن ريتنا من اموالهم ، ودفعت الثمن أنا الاخر ولكن بوسيلة بدائية ، لقد تمت الصفقة عن طريق المقايضة انا اشتريت جمالها ، وهى اشترت قلبى !

وعندما اقتربت من عش النسر راغنى ماحدث حول العش من تغير ، كان العساكر فى ملابس الميدان يحفرون الحنادق ويقيمون المتاريس ، وينصبون المدافع الرشاشة فى كل اتجاه ، ودخل العش كانت صناديق الذخيرة مكدسة فى الاركان ، وفتحى بملابس الصاغ يشرف على كل شىء ، وهو جالس على مقعد وظهره الى البحيرة ، وعيناه الصغيرتان الغشاشتان تتحركان فى قلق بالغ ولا تستقران على أى اتجاه !

وعندما جلست بجانب فتحى لم ينظر نحوى ولم يتكلم ، كانه لم يرنى ولم يحس بوجودى على الاطلاق ، وعندما سألته عن سر هذه الاستعدادات قال دون أن ينظر نحوى :

– الحرب عاوزة كده ..

وصحيح ان الحرب عاوزة كده ولكن لماذا الآن بالذات ؟ والحرب قائمة فى القناة منذ أكثر من ثلاثة شهور ؟ وقال فتحى بدير وكأنه يرد على خواطرى ..

– حمودة خرج م المستشفى ، عاوز ياخذ الكتيبة ، بعدما نظمتها ودربتها . ويقالها موارد ثابتة عاوز ياكلها ع البسارد ، أنا أو حمودة فى القنال .

– مين الى قالك ..

– حمزة بك ..

– وايه رأى حمزة بك

– حمزة بك مش موافق على حمودة .. حمودة جاهل مش على مستوى المعركة . المعركة عاوزة منع كبير ..

– وناوى تعمل ايه ؟

– احارب ..

- تخارب مين ؟
- الى يهوب ناحيتي ، انا قاعد كافي خيرى شرى ، لا بجارب
حد ولا عاوز حد يحاربني ، انما اى حد يهوب ناحيتي يبقى نهاره
أزرق .

والحق أن خبر خروج حمودة من المستشفى قد وقع على
قلب فتحى كالصاعقة ، فها هو الآن وبعد أن استقر وأصبح
يربح كل شهر عشرة أضعاف الدرجة الثالثة ، يخرج له حمودة
بطالب بحقه ، وحمودة ليس من طراز فتحى ، انه يعنى كل حرف
ينطق به ، خصوصا إذا كانت المسائل المتنازع عليها تتعلق
بالمعاش .

ولهذا السبب فزع فتحى بدير الذى لم يعرف الشجاعة قط
وعلى الفور قام بتطهير الكتيبة ممن أسماهم .. الطابور الخامس
.. والذين يشك فتحى فى انهم على صلة ما بحمودة ، وكان على
رأس هؤلاء ، رتيبة زوجته !

وكان حمودة الذى هرب من المستشفى رغم تحذير الاطباء قد
لجأ الى منزل فى قلب المدينة وقام باتصالات سريعة مع حمزة بك
عبد المقصود ، ثم أرسل الى فتحى يطلب اليه الحضور للتفاهم
ولكن فتحى رفض العرض ، وأصدر الامر لرجاله بالاستعداد
للقتال ، وعندما علم حمودة بالامر ، ذهب ليقابل حمزة بك ،
واستقبله حمزة وهو يتأهب للنوم وبعد أن استمع الى قضيته فى
برود ناو له عشرة جنيهات معتذرا لعدم وجود مبالغ أخرى معه
فى الوقت الحاضر وقال حمودة وهو يتناول المبلغ من حمزة بك :

- أنا عاوز سلاح . أنا مش ممكن أسكت ..
ووعده حمزة بك خيرا ، وعندما أصر حمودة على استلام
السلاح فى أقرب وقت ممكن ، قال له حمزة بك وهو يودعه عند
الباب ..

- يوم الخميس انشاء الله ..
وكل مادار بين حمزة بك وحمودة نقله حمزة بك بعد ساعات
الى فتحى بدير ، وطلب اليه أن يستعد لمواجهة حمودة ، وهو

الذى ردد على مسامعه أن حمودة لا يصلح للمعركة لانه جاهل
وأن المعركة فى حاجة الى مخ كبير ، نفس الكلمات التى رددتها
فتحى كاللبغاء وهو جالس معى على شاطئ البحيرة يشرف على
حفر الخنادق واقامة الاستحكامات لمواجهة حمودة ..
وقال فتحى وقد اعتدل فى جلسته فأصبح فى مواجهتى
تماما :

- حمودة مش بتاع حرب ، حمودة بتاع نسوان ، العش ده كان
مليان نسوان طول الليل ، أنا حاجة تانية غير حمودة أنا راجل
بتاع شغل !

وقلت لفتحى مازحا :

- مش بتاع نسوان ازاي ، آمال رتيبة ..
وكأننى بهذه الكلمات التى لا أقصد من وراءها شيئا قد طعنت
قلب فتحى بنصل حاد ، فراح يتكلم بعصبية وجسمه كله
يرتجس ، ثم انفجر فجأة فى البكاء ..

- أنا مش بتاع حاجات زى دى يا حلمى ، الحمد لله جت من
عند ربنا .. أنا أنفجر تحت زجلى لغم فى سيدى برانى ، كنت
باشغل مع الجيش الانجليزى ، اللغم ضيعنى ، ضيعنى عارف
ضييعنى يعنى ايه ..
وخفض فتحى عينيه بأصابعه النحيلة وراح يبكى فى إحرقه
شديدة ..

وتركت فتحى يبكى كما يحلو له البكاء ، كانت مأساته أكبر
من كلمات المجاملة الجوفاء التى تقال فى مثل هذا المقام ، وكان
يبدل مجهودا شديد العنف كى لا يرتفع بكأؤه ، فقد كان
رغم كل شيء يحاول دائما أن يحتفظ بمظهر القائد أمام
الرجال ..

وعندما كف فتحى عن البكاء وساد الصمت ، دخل أحد
الرجال علينا وتوقف أمامى ، وضرب تعظيم سلام وقال موجه
الحديث لى :

- فيه واحدة ست بره عاوزاك اسمها فوزية ..

الفصل الثامن عشر

حين دخلت فوزية علينا عش النسر كان منظرها رهيبا يدعو الى الدهشة ، والفستان الذى رأيتها فيه أول مرة يبدو متمسحا مكرمشا ، كأنها لم تخلعه منذ أيام ، ولونه الذى كان أزرق استحال الى أصفر باهت فى أكثر المواضع وعيناها كانتا وارمتين محمرتين كأنها قضت الاسبوع الذى فات تبكى بلا انقطاع ، وعندما أصبحت أمامنا نظرت إلينا ساهمة ثم جلست فى صمت وعندما سألتها عن الاحوال لم ترد ، وعندما سألتها عما بها لاذت بالصمت وآثرت أن أتركها بعض الوقت حتى تهدأ ، وحاولت أن أطلب لها شيئا تأكله فرفضت ، وعندما جلسنا ثلاثتنا صامتين ووجوهنا نحو البحيرة والصمت الثقيل يخيم علينا لا يعكر صفوه الا وقع أقدام العساكر الذين يقطعون الفناء حولنا ، مال على فتحي بدير وهمس فى أذنى وهو يغمز بعينه غمزة ذات معنى ويومئ بحركة سريعة نحو فوزية ..

- الجو ذه بتاعك ..

وعندما نظرت اليه باحتقار شديد قال وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة باهتة :

— تحب أسيبكو أنا وأمشى ..
ولم أعن حتى بالرد عليه ، وجلست صامتة أنظر نحو فوزية
بقلق بالغ .. ما الذى جرى لها هذه البنت الحلوة ، والتى كانت
يوم أن التقيت بها أول مرة تشبه زهرة يانعة متفتحة للحياة ،
ما الذى حدث لها فكسر خاطرها على هذا النحو وامتص رحيق
الحياة منها فأصبحت كمصاصة قصب لم تجف بعد ؟ .. أى
شئ يمكن أن يحدث لها فيعتصر شبابها بهذا الشكل الرهيب ،
ويحولها الى حطام يكاد لا يقوى على الحركة ولا يقوى على
السكون ؟ أية مصيبة كبرى وقعت لها جعلت نظراتها تتبدد
على هذا النحو كأنها نظرات أبله لا يرغب ولا يقلق ولا يتمنى
ولا يحلم بشئ ..

كان المساء قد حل بصورة كثيفة والبحيرة الواسعة الممتدة لم
يعد يبين منها شئ ، والحشرات النشيطة على شاطئ البحيرة
راحت تصرخ فى فزع مخيف ، وصرخاتها تتجاوب وتتشابك
وتتصاعد حولنا فى ايقاع رتيب ، ونظرت نحو فوزية وكان
رأسها قد مال على صدرها وقلت أسألها دون أن أقصد من
وراء سؤالى شيئاً الا أن أدفعها دفعا الى الكلام .. أى كلام :
— ازى حسين ؟

وعندئذ انفجرت فوزية بالبكاء ، وبكت فوزية بحرقة وهى
تتشنج وأنفاسها تتحسرج وأصابع يدها تتقلص فى حركات
هستيرية كأنها تبكى على رأس ميت عزيز ، وضاعت كل
محاولاتى ومحاولات فتحى بدير فى تهدئه فوزية ومنعها من
البكاء ، وجاءت رتيبة مسرعة على بكاء فوزية ، ووقفت حائرة
أول الامر لا تدري ماذا تفعل ثم انحنت عليها وضممتها نحوها
وراحت تغريها بالسكوت بكلمات معسولة ساذجة ، وعندما
فشلت هى الأخرى فى مهمتها قامت تنصحن ..

— خلو البنية تعيط على كيفها .. العياط ده شفا بينصف
القلب .. يمكن الراجل بتاعها مغلبها .. مسود عيشتها ..
ثم راحت تربت على ظهر فوزية فى حنان بالغ وتقول فى
صوت يشبه الغناء :

- عيطى يا أختى عيطى ٠٠٠ اغسلى قلبك يا أختى ٠٠
ثم توقفت عن ذلك وجلست خلف فوزية واضعة رأسها بين
راحتيها تصوب نظرات نارية بين الحين والحين نحو فتحي ،
الذى كان يجلس مستندا بظهره على جدار العشة وساقاه
ممدودتان على الأرض كأنهما عيدان قصب دب فيها السوس !
وفجأة ، دب صوت رتيبة فى صوت كالبكاء :
- ياعينى ع الولايا ٠٠ ياخييه الولايا ٠٠ يا وكسة
الولايا ٠٠

ثم انفجرت هى الأخرى فى البكاء ٠٠
وإذ كان المفروض أن يكون بكاء رتيبة مجاملة لفوزية فقد
كان من المفروض أيضا أن يكون أقل حدة وأقل حرارة ولكن
الذى حدث فعلا كان العكس ، فقد راحت تبكى فى حدة أثارت
عطفنا جميعا ، حتى فوزية مسحت دموعها واستدارت نحوها
تربت عليها وتحضنها ٠٠ وكانت رتيبة كلما توسلت إليها فوزية
أن تكف عن البكاء نظرت إليها بعينيهما الوارمتين ، وقالت فى
صوت منغم :

- عبطى يا حبيبتي ٠٠
ثم راحت تغنى أغنية غريبة ٠٠ قالوا ايه الى يداوى الحبية ،
قالوا العياط يا رتيبة !!

ونهرها فتحي بشدة ، وقال وهو يزفر من الغيظ ٠٠
- انت ايه الى مقعدك لحد الوقت هنا ، انت طابور خامس

ولم ترد رتيبة ، واستمرت فى البكاء والنواح ٠٠
وعندئذ نهض فتحي ثائرا غاضبا وسب الدين والدنيا وغادر
العشة الى الخارج ، وإذ اختفى فتحي من العشة نهضت رتيبة
هى الأخرى وقد زالها غضبها فجأة ، وتوقفت دموعها على الفور
وبقيت مع فوزية وحدنا ، حتى العساكر الذين كانوا يحرسون
العشة من الخارج تركوا أماكنهم بعد خروج فتحي الى حيث
لا أدرى ٠٠

وراحت فوزية تحكى لى فى هدوء تفاصيل ما حدث منذ أن
غادرت مقر الكتيبة فى « أبو سلطان » منذ أيام مع حسين وعلى .

جبران ضابط مباحث الاسماعيلية. وكان الذى حدث أغرب من الخيال ، أن حسين لم يعد أبدا بعد ذلك ، عندما مدت يدي أصافح حسين وهو داخل السيارة السوداء على باب المحافظة تحركت السيارة بهما فورا ليس الى « أبو سلطان » كما كان المفروض ولكن الى القاهرة . . . لقد أبعدوه الى العاصمة ومنعوه من العودة ووضعوه هناك تحت رقابة البوليس . .

ولم يعلم أحد فى الكتيبة حقيقة ما حدث الا فى صباح اليوم التالى ، ففى الظلام وتباشير الفجر تلوح من خلف الشاطئ الآخر للبحيرة أحاطت قوات هائلة من البوليس مقر الكتيبة وهب رجال حسين يدافعون عن أنفسهم بالحصى بادية الأمر ، ثم باطلاق النار بعد ذلك ، ولكن المعركة لم تستمر طويلا ، ودخل رجال المباحث وعلى رؤسهم على جبران ، وفتشوا كل مكان ، واستولوا على كل شيء ، وصادروا كل الأسلحة وكل كميات الذخيرة ، وساقوا الجميع الى نقطة بوليس الحدود فى الصحراء ، وتولى العساكر الهجانة أمر إقناع أفراد الكتيبة بالعدول عن الحرب ، والعودة من حيث أتوا !!

وقالت فوزية وهى تفتح عينها بصعوبة

— كلنا شكيننا فيك ، افكرناك جاسوس للمباحث . .

وقلت مستنكرا والغضب يهزنى هذا . .

— أنا ؟!

— فى الاول افكرناك كده ، وبعدين عرفنا انك مظلوم . .

— مين الى اتهمنى الاول ؟

— مش دا المهم يا حلمى . . المهم الى حصل . .

— وايه الى حصل ؟

— كان بياخدونا واحد واحد بره النقطة ، ويحاولوا بالكلام

يقنعوه اذا ما نفعلش الكلام ، يبدأ الضرب . .

قلت مندهشما ؟!

— ضرب !! ؟!

وردت فوزية ببساطة ..

- ياريت ضرب بس ، دا حرق بالسجاير ، ودفن في الرمال ،

ومشى على الشوك ، ولزق على القفا ، وتجريد م الملابس ..
وعضت على شفتها بقسوة ، وقالت وهى تحرق فى السقف :
- تصور كانوا بيقلعوهم ملط ..

- وبعدين ؟!

- اكترهم اقتنع ، الى اقتنع سابوه ورحلوا كل واحد على
بلده ..

- وفيه حد هناك لسه ؟

- أيوه ، فيه تلاته ، منهم الدكتور العجوز ..

- والراجل العجوز ده استحمل دا كله ..

- وقالت وهى تبتسم فى استهزاء ..

- دا الوحيد الى استحمل ، تصور كان بيقول كلمة واحدة.
أثناء التعذيب .. ياناس دا ابني مات ، ابني مات ، ابني مات ..
- وانت ؟!!

ولاذت فوزية بالصمت وجمدت كأنها قطعة حجر لا رمش
يرتعش ، ولا عصب يختليج ، ثم مدت أصابعها وقالت فى
ثبات :

- هات سيجارة ..

وسألتها وأنا أناولها السيجارة ..

- بتشربنى سجاير دلوقت ؟

وقالت فوزية وهى تهز رأسها فى اغراء :

- ليه لا .. حرام ؟!

ورحت أرقب فوزية وهى تدخن فى لذة وفى نهم شديد !
لشد ما تغيرت الصغيرة المسكينة فوزية ! فوزية التى تجلس
أمامى الآن فوزية أخرى غير التى عرفتها منذ أسابيع ، فوزية
الأخرى ماتت ، تلك التى كانت تتعلم فى المدارس ، وتحارب.

فى كتيبة حسين ٠٠ وهنا فوزية أخرى ، امرأة أنضجتها نار الاحداث
التي اكنوت بها ، امرأة تنزف دما من الجراح التي أنختتها .
امرأة تدخن السجاير بطريقة لم أر امرأة أخرى تدخن مثلها
الا بعد منتصف الليل تحت أعمدة النور فى شوارع القاهرة !

وعندما قذفت فوزية ببقايا السيجارة بعيدا ، طلبت سيجارة
أخرى ، وسيجارة ثالثة ، وظلت تدخن دون انقطاع حتى منتصف
الليل ، وقلت وأنا أشعل لها السيجارة الأخيرة فى علبتى :

— أنا لازم أفهم ، أنا هاكتب كل ائلى حصل فى الجرنال !!
وضحكت فوزية ضحكة طرّقت صداها فى الجو ، ضحكة
امرأة عاشت حياتها فى البارات وعلى أرصفة الشوارع ٠٠ ضحكة
ممثلة ناشئة فى حفلة تضم عددا من المنتجين !! وقالت فى
استهزاء شديد :

— ابقى اكتب عنى كمان ٠٠ والنبي تاخذ صورتى !!

وغاظتنى ضحكتها وقلت فى تحد وبلهجة صارمة :

— يعنى قصدك ايه ، باكدب عليكى ؟

وقالت بنفس اللهجة الساخرة :

— لا العفو ، هاكذب ليه ، الكتابة ماهى كثير ٠٠ بس الرك
ع القراية ٠٠

وضحكت مرة أخرى نفس الضحكة ٠٠ وعندما لم تجد
سجاير فى العلبة استأذنت منى لتنام !

ولم يكن فى عش النسر مكان لتنام فيه فوزية ، وأنا أعرف
أنها من الاسماعيلية وأن بيتها فى الطرف الآخر من المدينة ،
ولكن عندما عرضت عليها خدماتى لتوضيلها الى منزلها ، قالت
وهى ترعش حاجبها :

— مالناش بيت هنا . أهلى هاجروا خافوا م الحرب ٠٠

ثم قالت فى بساطة :

— أنا هنام هنا ٠٠

ولم يكن فى عش النسر سوى حجرة المكتب التي أنام فيها ،

وحجرة النوم التى ينام فيها فتحى ورتيبة ، وعندما شرحت لها المسألة ، قالت ببساطة :

- أناام معاك فى المكتب ٠٠

ولم تزد فوزية حرفا ، نهضت من مكانها ، واتجهت خلفى الى حجرة المكتب ثم دخلت باطمئنان كأنها تعرف كل شبر فى الداخل ، وأغلقت عليها الباب ، وعدت وحدى الى العشة ٠٠

وجلست أفكر فيما سوف أكتبه للجريدة غدا ٠ لابد أن أكتب مقالا من نار عما حدث ٠٠ سيكون العنوان جريمة فى القنال ٠

لا ٠٠ هذا العنوان لايكفى ٠٠ مؤامرة كبرى أحسن ، ويلفت النظر ويثير نائرة القراء ، ويرفع توزيع الجريدة عشرة آلاف نسخة ، ربما عشرين ألف نسخة ، سيقول مدير التوزيع لرئيس التحرير ، لقد رفع مقال حلمى التوزيع عشرين ألف نسخة

وسينصح بأن أستمّر فى الكتابة ٠٠ وقد يستدعينى سيد بك حسنين رئيس التحرير ويكلفنى بكتابة سلسلة مقالات بعنوان « المؤامرة » سيصبح اسمى على كل لسان ، سيصبح مرتبى ١٠٠ جنيه فى الشهر ، سيكون عندى سيارة ٠ لقد اشترى أحمد سرى سيارة وسكن على شاطئ النيل بعد أن كتب سلسلة مقالات عن الرشوة والفساد ، ومحمد رمضان اشترى عربة فى شارع الهرم بعد حملته الناجحة ضد الاقطاع ، لتكن حملتى هذه المرة ضد التعذيب الذى حدث للفدائيين فى القنال ، ليكن عنوانها « المؤامرة الكبرى » انها فرصة طيبة والصحفى الجيد هو الذى ينتهز الفرصة ٠٠

وطلبت من جندى كان يتسكع فى الفناء مصباحا لاكتب على ضوئه ٠٠ وانحنيت على الورق طول الليل أكتب الحلقة الاولى من سلسلة « المؤامرة الكبرى » وعندما انتهيت سلمت الرسالة للعسكرى ليرسلها بالبريد الى القاهرة وقمت مترنحا الى الحجرة ، وعندما أغلقت الباب خلفى كانت فوزية تنام على الارض

فى قميص النوم وكتفاها عاريتان ، والقميص شالغ الى أعلى .
وقد بان فخذها ، وتحاشيت النظر اليها وأدرت لها ظهرى
وأنا أخلع قميصى استعدادا للنوم . وعندما ألقيت نفسى على
الفراش لم أستطع أن أمنع خاطرا سافلا طاف بنفسى ، فهأنذا
مع فوزية فى حجرة مغلقة ، وهى نصف عارية طريحة الارض
كانها دعوة مفتوحة .

وتقلبت فى فراشى وقد تعمدت ذلك لأختلس نظرة الى
فوزية ، وعندما وقع بصرى على فخذها كاد قلبى يتوقف عن
الدق . . . فقد رأيت ويالهل ما رأيت ، أفخاذ فوزية الممتلئة
وقد تحول لونها الى لون روب دى شامبر صارخ الالوان . . .
خطوط حمراء وزرقاء وسمراء هى لون جلدها الاصيل ، وكلها
فى خطوط متساوية ومنتظمة كأنها مرسومة بريشة فنان . . .

والجلد نفسه منتفخ . ومتقيح ومقشور ، وقد تक्रमش كفستانها
الكحلى الرخيص . ولم تكن الأفخاذ وحدها هى التى أصابها
هذا التحويل الرهيب . أكتافها العارية أيضا كانت على نفس
الشكل ، ويبدو أن جسمها كله قد أصابه نفس المصير . ونهضت
من فراشى متسللا ، ورحت أخطو على أطراف أصابعى ، وانحنيت
على فوزية وكشفت قميصها وقد استبدت بى رغبة مجنونة فى
أن أرى كل شئ . ولكنها شعرت بيدى وهى تكشف فستانها
. . . فنهضت مذعورة ، وانكمشت فى ركن الحجرة كأنها قطعة
تتحفز ، وراحت تغطى نفسها وتحكم الغطاء . . . وقالت وهى
تنظر نحوى شزرا :

— عاوز ايه ؟

وأشرت بأصبعى الى أكتافها العارية وقلت والدهشة
تسحقنى :

— ايه ده ؟

وكانما تبينت قصدى . . . فهدأت ، وقالت وهى تنفرد فى
جلستها ؟

— مقيش حاجة .. دا ناموس ..

— ناموس ؟!

— آه .. قوم نام .. أنا عاوزه انام ..

— تنامى ازاي .. لازم تحكيلى ..

— والنبي أنا دماغى مش فاضية للحكايات ، بكره أبقي
أحكلك ..

ثم دمعت عينها رغما عنها ، ورفعت يدها فمسحت دموعها
بكفها ، وعندئذ رأيت كفها بوضوح ، ولم أكن عندما رأيتهما
أول مرة فى العشة قد اكتشفت بها شيئا غير عادى ، فقد كان
الظلام يخيم على كل شيء .. كان كفها محروقا ، واللحم يختلط
بعضه ببعض مشوها كأنه كف هيكل عظمى فى مشرحة القصر
العينى !!

ورفضت فوزية أن تحكى شيئا رغم كل المحاولات ، وعندئذ
نهضت من مكانى وألقيت بنفسى على الفراش ..

ولم أستطع النوم رغم كل المحاولات التى بذلتها . ولم
تشفع لى الوسادة التى وضعتها فوق دماغى ولا ذراعى التى
أخفيت بها عيني ، ولا الفوطة التى لففت بها دماغى .. كان فى
رأسى سرطان ينبج وناقوس يدق ، ما الذى ارتكبته هذه

المسكينة حتى تنال كل هذا العذاب ، لقد رغبت فى حروب
الانجليز فما الذى حدث ؟ وهل يمكن أن يتعذب الانسان من
أجل شيء مثل هذا ؟ ومن الذى عذبها ؟ مواطنون مثلها !
الانجليز يحتلون أرضهم ، وينتهكون أعراضهم ! والذى أشرف
على التعذيب أجهزة تتبع حكومتنا ولا تتبع حكومة الانجليز !!
والحكومة هى التى ألغت المعاهدة ، وهى التى أمرت بإطلاق النار
عليهم ، فلما هب الناس يطلقون النار على الانجليز هب رجال
المباحث يقطعون أوصالهم هكذا ؟ ولحساب أى جهة يشتغل رجال
المباحث ؟ لحكومة القاهرة ؟ أم الانجليز ؟ أم ماذا ؟ وسلسلة
المؤامرة الكبرى التى كتبتها ؟ هل تجدى الكتابة فى موقف مثل

هذا ؟ هل تستطيع أن تواجه السجون والكي بالنار وتكسیر
العظام ، واللزق على القفا ، وخلع الملابس والاطافیر بالقلم ؟ فى
موقف مثل هذا لا يمكن مواجهة الامر الا بالسلاح !!
وسلسلة « المؤامرة الكبرى » ! .. ما أحقر ما فعلت ، وما أحقر
ما قدمت للمعركة حتى الآن ، وماذا قدمت أنا ؟ أنفاس الحشيش
على شاطئ البحيرة ، والليالى الحمراء مع مدام ريتا ومقالات
المؤامرة الكبرى ؟! وهدفى الحبيث من ورائها ، أشتري سيارة
.. وأسكن على النيل ؟!

وهذا الضوء اللعين يزعجنى . هذا الضوء يكشفنى ، أنه
يعيرنى حتى من العظام ، وإذا كان جلد فوزية مشوها فنفسى أنا
مشوهة ، نفسى مزدانة بنفس الخطوط الحمراء والصفراء والسمراء ،
وضميرى الذى مات فى داخلى وتعفن .. أكاد أشم رائحته الآن .
رائحة خبيثة ملعونة تملأ نفسى ولا تفوح فى أرجاء المكان .
ونفضت من مكائى منزعجا وأطفأت النور ، وهبت فوزية على
الفور صارخة كأنها فأر أصابته ضربة قبقاب :
- ولع النور ..

أضأت المصباح من جديد .. وبدأ وجه فوزية فى النور
الشاحب وقد ارتسم عليه الدعر بصورة ليس لها نظير ، وقالت
وهى ترتجف :

- النور يفضل والى ، أنا ما حبش النوم فى الضلمة ..
ولم أرد ، وألقيت نفسى على الفراش من جديد ..
استيقظت عند الظهر ، ولم تكن فوزية مكانها على الأرض .
والجو كان بديعا وقد أشرقت الشمس ، والسحب الثقيلة اندفعت
مع الرياح فى اتجاه البحر ، والبحيرة بدت ساكنة خلافا ، كالعهد
بها دائما .. وعندما دخلت العشة وجدت فتحى بدير نائما وعيناه
مفتوحتان ، وفوزية جلست فى ركن العشة مع رتيبة تخيطان
بعض الثياب وعندما رآنى فتحتى نهض وأثبا على قدميه ، وقال
« هو يمسك بيدي » :

- عرفت ..
- عرفت ايه ؟
- حمودة مسكوه ..
- مين الى مسكه ؟
- الانجليز ..
- أمتى ؟ ..
- النهارده الصبح ، كان فى بيت حمزة بك ، وهو خارج
مسكوه ..

وقال فتحى ومسحة حزن زائفة على وجهه الشديد
الغضون :

- مسكين ..
- طيب ونسال عليه ازاى ..
- تسال عليه مين ؟ احنا مالنا ، الله يرحمه !
- الله يرحمه ازاى ! هوه مات ..
وقال فتحى وهو يجلس على الارض ويمد ساقيه فى ارتخاء
لديذ :

- هوه الى بيقع فى ايد الانجليز بيطلع تانى ، الف رحمة عليه ،
كان لسه شباب !!
كأن لم يكن فى حمودة شىء يجلب له الرحمة ، ويدعول لاسف
عليه الا شبابه ، كان لسه شباب ، والانجليز أخذوه ، الى أين ،
احنا مالنا ، حكمة فتحى بدير قائد كتيبة وحوش الجبال !
وتهاويت على الارض ، وأسندت ظهرى للعشة ، ومددت ساقى
الى جوار فتحى بدير !

الفصل التاسع عشر

وتوالت الضربات بعد ذلك • وفى كل يوم سيل من الاحداث يهز المنطقة حتى أعماقها • ويحرك أشد النفوس بلادة الى التفكير • وخلال تلك الايام لم يكن عندى ما أفعله • حتى رسائلى الى الجريدة لم أعد أكتبها • فما جدوى ضياع الوقت فى تسويد صفحات لن تجد طريقها الى النشر ! سلسلة مقالات « المؤامرة الكبرى » لم تنشر ، حتى حادث اختطاف حسين ونفيه الى القاهرة لم تشر اليه الصحف •• كانت صورة حموده فى الصفحات الاولى ، وكلها تتحدث عن البطل والفدائي والمحارب الذى دوخ الانجليز ، والذى كان يطلق عليه الانجليز اسم النحاس •• ! وبعض الصحف أيضا أكدت انه سليل أسرة مات أغلب أفرادها فى ثورة عراقى ! الى هذا الحد تضع الحقيقة ويكذب الناس ؟ هه كويسة !! لقد كنت أكذب أنا ، أنا انذى صنعت أكذوبة حموده ، أنا الذى جعلت حموده بطلا فى المدينة • ومن عجب ، أن الناس فى المنطقة كلها يعرفون حقيقة حموده • ولكن الاثر الذى تركه فى نفوسهم حادث القبض عليه كان رهيبا ولا حد له •• ان الكذبة قد انطلت حتى على الذين كانوا يجالسون حموده طول الليل وطول النهار !

حتى فتحى بدير !!

نعم حتى فتحى بدير أصر على أن حموده قد استشهد

– دا كان مدوخ الانجليز ياعم ، دا واد غول فى الحرب ، وحياة

دى النعمة كان بياكل الانجليز صاحية •

ليس هذا فقط بل أصر على أن يقيم له ماتما ، وأقام سرادقا

أمام العرش ، ووقف جنوده يستقبلون الناس ويتقبلون التعازي
وجاء بمقرى مشهور من القاهرة ، ووقف وسط السراىق يوزع
السجاير على المعزين ، ويختال بين صفوفهم فى ردائه العسكرى
المزيف ويحييهم بيده هاتفا بصوته المسلوخ بين الحين والحين .

— شكر الله سعيكم .

وفى آخر الليل جلس الى جوارى داخل العرش ، وراح يدخن
فى ضمت ، ثم قال وهو يتأهب للنوم :

— أنا عندى فكرة كويسة قوى ..

— ايه ... !

— عاوز أعمل تمثال لحمودة فى ميدان المحطة ..
ثم توقف عن الحديث وراح يسعل بشدة ، وعندما تخلص من
سعاله قال وهو ينظر فى عينى :

— بس مش عارف يمسك ايه فى ايده سيف ، والا مسدس .

وقلت له وأنا أهرش فى ذنى النابتة :

— ابقى خليه يمسك جوزة ..

ولكنه لم يستجب لهذا المزاح ، وسرعان ما غادر المكان ودخل
حجرته لينام !!

ولا أدرى السبب الذى جعل فتحى بدير يتصور ان حمودة
مات ! صحيح أن بعض الناس تناقلوا اشاعة موته ، وبعضهم
ذهب الى أنه رأى بعينى رأسه حموده وهو مصلوب على جذع
شجرة وفرقة كاملة من جنود الانجليز تصوب مدافعها نحوه ،
ثم اطلقت النار عليه فمات .. وبعضهم كان يضيف نهاية
مسرحة لقصة موت حمودة ، وكيف أنه هتف والرصاص منطلق
فى قلبه .. يسقط الانجليز !! ..

وانتشرت هذه الحكايات فى الغرز المنتشرة على شاطئ
البحيرة ، وفى حلقة السمك . ولكنها لم تكن أكثر من مجرد
حكايات يؤلفها بعض السذج الذين انبهروا بقصة حمودة كما
روتها لهم الصحف ..

ورغم ان أحدا من الناس فى المدينة لم يكن يستطيع أن يحدد
المصير الذى انتهى اليه حمودة ، الا أن الحقيقة الوحيدة المتعلقة

بهذا المصير هي أن حمودة قد أصبح بطلا عند الناس • وسواء قتله الانجليز أو لم يقتلوه • ففي المهادى الفقيرة الرخيصة المنتشرة حول المعسكرات وفي قرى القناة ، كان المغنى الشعبى يؤلف ويروى مواويل عن عظمة حموده وبأسه وطلبه الذى فى قسوة أسود الغاب ، ولكن مع هذه الشائعات والحكايات ومع الأكاذيب عن نهاية حمودة فى غرز البحيرة ، ومع الاغانى التى تروى عن حمودة فى مقاهى القرى البعيدة فى أعماق الصحراء ، كانت اللسنة تترثر بأن رجلا واحدا فقط هو الذى يعرف مصير حمودة ، وأنه هو الذى سلم حمودة للانجليز !!

ولما كان اصبح الاتهام يشير الى حمزة بك عبد المقصود ، فقد بادز الى نفى الشبهة عن نفسه ، فكتب مقالا نشرته جميع الصحف عن البطل حمودة ، ثم هاجم الانجليز بشدة ، واختتم المقال بعبارة نارية « ولما كان دم حمودة لا يمكن ان يذهب عبثا ، فان الانتقام الوحيد لروح حمودة هو تطهير البلاد من هؤلاء الخنازير ! »

وعندما التقيت بحمزة بك بعد ذلك فى قصره المنيف على حافة الصحراء قال بأسف شديد :

— الله يرحمه ، كان واد ابن موت من يومه ••

وعندما سألته فجأة :

— هوه مات ؟

اضطرب بشدة ، ثم قال وهو يحاول جاهدا أن يبدو طبيعيا :

— أبدا اشاعات ، زى ما بنسمع ••

ثم حكى لى ما حدث يوم القبض على حمودة ، وكيف استيقظ فى الصباح الباكر ، وجمع الاسلحة فى الصالة الكبيرة وجلس ينتظر حمودة حتى وصل « يادوب شال السلاح ، وخذ منى ميعاد تانى عشان ياخذ فلوس ، وخرج من هنا ، وهمه نزلوا عليه من هنا •• وعندما وصل حمزة بك الى هذا الحد عض على شفته بشدة وقال وقد تقطب جبينه وازداد وجهه احمرارا : «

— مسكين ، خطفوه ••

ولكن كيف عرف الانجليز أن حمودة سيكون فى بيت حمزة

بك هذه اللحظة وكيف تصادف حادث القبض عليه لحظة خروجه من البيت ومعه السلاح ؟ اسئلة وجيهة طرحتها على حمزة بك ، فأجاب وهو شديد الحزن :

- الانجليز في كل حته ، والواحد ما بقاش يضمن أخوه !!
وساد الصمت بيننا لحظات ثم قال وهو ينهض من مكانه - وحشتنا يا ابو الرجالة ..

وغاب في الداخل فترة ، ثم عاد ومعه زجاجة ويسكى ومجموعة من علب السجاير الفاخرة وجردل صغير في لون الحمر ، وضعها كلها على المائدة الصغيرة التي تتوسطنا ، ثم راح ينقل الى الداخل أطباقا كثيرة لم أستطع حضرها ، وعندما ضاقت بها المائدة راح يرصها فوق الارض ، ثم جلس يلتقط أنفاسه بصعوبة وقد بدا عليه الاجهاد ، ثم قال وهو يتمطى في كسل لذيذ :

- الدنيا كلها شقا ..

وعندما بدأنا نشرب سألته في حذر شديد عن ريتا . ولكنه انتفض فجأة غاضبا كأنما أهين حتى النخاع ! وقال وهو يضرب المائدة بقبضة يده بقوة أطارت الاطباق وقفرت بزجاجة الويسكى بعيدا عن السجادة ..

- انتو بتوع ضحافة ازاى ، انتو مابتكتبوش عن الحونة ليه ؟ هيه دى مش خيانة ؟ واحدة مصرية ، جنسية مصرية ؟ تتجوز واحد انجليزى ؟ وبعدين تقوالى صحافة ! طظ ، طظ . وراح يردد كلمة طظ ، حتى عندما نهض وأحضر الزجاجة ، ووضع المرطبات مكانها ، ثم شرب كأسا على عجل . ومص شفثيه من اللذة ، واضطجع فى مقعده مسترخيا ، ثم قال فى هدوء :

- لامؤاخذة يا حلمى الواحد أصله مش على بعضه ، معلش . وزفر بشدة ثم راح يعب الكئوس فى سرعة عجيبة ، ولم تمض نصف ساعة حتى كانت الزجاجة قد اختفت كلها فى جوفه ، وبدأ أنه فقد توازنه تماما ، وعندما حاول النهوض مرة أخرى ليحضر زجاجة جديدة ، اصطدمت ساقه بالمائدة فقلبتها ، وانحنى على الارض يجمع الاطباق والكئوس ، وعندما فشل

مى ذلك عاد الى مقعده مجهدا منزوف الانفاس ينظر نحوى بعينين
ذابلتين محمرتين مجهدتين .. وقد انعكست على زجاجهما حقيقة
نفسه المهزومة المترجفة وقال حمزة بك وهو يضع ساقه على
طرف المائدة المقلوبة :

- خلاص الدنيا انتهت يا حلمى ، أنا عندى خمسة وأربعين
سنة دلوقت ، فاضل خمستاشر كمان ونتوكل على الله . الدنيا
خسرت ، الدنيا باظت يابنى ، انت لسه صغير ، الدنيا كانت
زمان ..

وزفر زفرة حارة ، وراح يردد فى صوت خافت كلمته
الاخيرة ، الدنيا كانت زمان ..

كان صوته يرتعش برنة أسف بالغ . كان شديد الاسى فعلا
عميق الحزن ، والخوف يسيطر عليه تماما ، الخوف من كل شىء
مما يحيط به الآن ، ومما يخبئه القدر فى المستقبل ..
وفجأة ندت عنه صرخة هادئة ولكن عميقة ، وقال وهو
يفرك أصابعه بعصبية شديدة :

- كل شىء راح يا حلمى .. الشغل واقف والحمد لله ، كل
شىء واقف ، كل شىء خراب ..

ثم راح يحمد الله بطريقة ساخرة ، ويقبل يده ظهرا وبطنا ،
وينظر تارة نحوى ، وتارة أخرى الى السقف ، كأنه يتجسس
بدعائه الى الله ! ثم قال وقد ضم ساقيه وراح يخبط كفًا
بكف :

- حتى ريتا اتجوزت انجليزى !! انت ماتعرفش أنا عملت
ايه للبنت دى .. دى كانت زى بنتى ، عارف زى بنتى يعنى
ايه ؟ وأخيرة دا كله الناس بتقول أنا الى سلمت حمودة ، طيب
زى بعضه أنا صرفت على حمودة دم قلبى ، الكتايب الى هنا
عائشة على قفايا ، يقولوا الى يقولوه ، ياريت واحد مجنون
يضربنى برصاصة واستريح ، والله العظيم استريح ، انت فاهم
ايه ، يعنى غاندى مش ضربه بالرصاص ومات ، هكون أنا
أحسن من غاندى ..

ثم ارتفع صوته وتحشرج ، وانتفخت عروق رقبتة بشكل
قطيع وقال فى صوت كالصراخ :

- والله العظيم أستريح ، أستريح ، أنا خلاص شبعت
م الدنيا ، كسبت ملايين الجنيهات ، صرفت ملايين الجنيهات شفت
الدنيا كلها ، أنا كنت راجل بمعنى الكلمة ، كنت غول ، رئيس
الوزارة كان يتمنى يقعد معايا خمس دقائق . دلوقت ماتعرفش
تكلم الحافى . كل واحد ماسك مدفع ويبحكم ، الحرب ياسيدى .
ثم ضحك ضحكة هازئة وقال وقد عاوده هدوءه :

- حتى ريتا اتجوزت انجليزى . طيب أقولك خبر يعمل
هزة ، ريتا هربت مليون جنيه بره ، الى هربها القائد الانجليزى ،
صفت أعمالها كلها . . . هتسافر معاه على بره . . . تقدر تكتب
دى ؟ . . .

وعندما أومات له برأسى راح يحدق فى عينى ، ثم قال يهدوء
شديد :

- بس انت عاوز الجدة هيه معذورة . . . الزينة الى احنا عاملينها
دى خلت الناس تهرب ، هتعمل ايه ، لو فيه هدوء فى مصر كان
كل الناس قعدت ، وفلوسها اشتغلت والناس كسبت وبقت
عال ، يافرحتى بالوطنية . . .

وقهقه فى سخرية قبل أن يقول :

- الناس تاكل وطنية ، ياكلوا كفاح ، ياكلوا كتياب ، طيب
لو الانجليز مشيت من هنا ، بينى وبينك يعنى ، العمال الى
عندهم هيعملوا ايه ، يروحوا فين ؟ عندنا ميزانية تشغلهم ،
بذمتك عندنا . . .

ثم خبطنى على فخذى بشدة وقال وهو يضغط على عظامى :
- السياسة مش جعجة . . . السياسة فن تضرب وتلاقى ،
والفلاحين بيقولوا شغل بولوتيكيا . . . بولوتيكيا يا أستاذ . . .
ثم رفع الزجاجاة الفارغة الى فمه ، وقال وهو يضحك ضحكة
غريبة :

- اشرب يا أستاذ اشرب . . .

واذ اكتشف انها فارغة ، نهض من جديد يترنح ، وعاد ومعه
زجاجاة جديدة وراح يشرب وحده وبلا انقطاع ، ثم سألنى فى

هدوء وهو يمتص الكأس الأخيرة :

- الواد حسيني فين دلوقت ..

- فى مصر ..

ولم يرد ، اكتفى بأن مط شفتيه ، ثم ارتعى الى الحلف واغمض عينيه وراح يرعش ساقيه فى عصبية شديدة ، وفجأة فتح عينيه ودعكهما جيذا وبشدة . ثم قال وهو يتفرسنى باهتمام :

- الواد فتجى بدير ايه رأيك فيه ؟

ولم ينتظر حتى يسمع اجابتي ، قال على الفور :

- أنا حاخليه يعمل عمل كبير قوى ، أنا هاديله فرصة ذهبية ..

ثم ربت على فخذي بجنان ، وقال فى شبه توسل :

- والنبي تخليه يوصل لحد عندى أنا عاوزه ضرورى ،

ضرورى ، فاهم ضرورى يعنى ايه ..

وعندئذ استأذنت من حمزة بك فى الذهاب ، فقال وقد عاد اليه مرحة :

- رايح على فين يا أبو الرجالة ، ريتا ومع الرجل الانجليزى ،

واللا فيه حاجة جديدة ؟ ..

وعندما هزرت رأسى بالنفى ، مد يده .. فصافحنى فى موده

.. وقبل أن أعادر مكانى للخارج ، رن جرس التليفون فجأة

ورفع حمزه بك سماعة التليفون وقال فى مرج شديد :

- أهلا زكى بك .. فين ياراجل .. ما تيجى شوية .. عندى

الأستاذ حلمى .. انت عارفه طبعاً .. آه طيب أنا منتظر ك :

وعندما عاد الى قال وهو يشد على يدى مودعا :

- دا زكى بك مراد ، راجل جد قوى وسياسى كبير كمان ،

مخ مضبوط ، وحقانى ، ولا بيعبر حكومة ولا غيره الى فى دماغه

ينفذه وبس ..

وغادرت قصر حمزة بك فى الليل الى عش النسر ، وحرصت

على أن أمر على فندق بالاس ، ورحت أتلفت الى النوافذ المغلقة

والستائر المسدلة خلفها ، لعل ريتا الآن خلف احداها بين

دراعى قائد الانجليز اكسهايم ، وعندما بدا شبح جندى انجليزى عند الباب أسرع الحطى فى طريقى الى شاطئ البحيرة . وكان كل شيء لحظة أن وصلت الى العش ساكنا هادئا ولا أحد فى الفناء ، فتحتى مع رتيبة فى حجرتهما ، وفوزية فى حجرة المكتب تنام على الأرض ، والجنود وقد انتهت حالة الطوارئ التى أعلنها فتحتى عندما خرج حمودة من المستشفى ، ينامون فى الفناء وقد ارتفع شخيرهم ، والبحيرة على امتداد البصر لا يبين منها شيء ، والسماء هى الأخرى اختفت خلف السحاب الداكن الذى راح يتحرك ببطء نحو الشاطئ الآخر للبحيرة ، وانتابنى شعور عميق بالقلق وأنا جالس وحيدى أحرق فى الظلام ، وأرهف السمع لزحف الحشرات الصغيرة على عشب الفناء ، يبدو أن كل شيء راح كما قال حمزة بك ، حسين فى القاهرة ولا أدري مصيره ، وحموده خطفه الانجليز وريتنا مع اكسهايم فى فندق بالاس ، وحمزة يسكر فى قصره المنيف على حافة الصحراء وزكى بك مراد يجلس فى مواجهة يستمع الى فلسفته فى شغف ، وهو يدخن أفخر أنواع السجاير ، ويصب أفخر أنواع الحمور ، وفتحتى بدير يغط فى نوم غميق مع رتيبة ، وفوزية على الأرض فى حجرة المكتب نصف عارية ، نصف مسلوخة ، ومقالات المؤامرة الكبرى تنام مطمئنة فى سلة المهملات ، وغدا ستشرق شمس اليوم الرابع والعشرين من يناير ، والبرد يشتد بصورة لم تحدث من قبل ، والمستقبل يبدو مثل السماء ملبدا بالغيوم الثقيلة ..

وفجأة . انفتح باب المكتب ، وخرجت فوزية تتأهب وتهرش فى ظهرها ، وقد تهدل قميص نومها عن كتفها وصدرها ، وأقبلت نحو العشة تتحسس طريقها فى الظلام ، وعندما رأتنى شهقت من الفزع ، وقالت بصوت مرتجف :

- مين ..

- حلمى ..

وعندئذ دخلت العشة ، وارتمت على الأرض ، وقلت لها وأنا

أمد يدي نحوها أتخسس يدها في الظلام :
- الدنيا برد ، ألبنى حاجة ثقيلة ..
وردت دون أن تحرك ساكناً :
- أنا مش بردانة .. بالعكس ، أنا سخنة ..
وقالت وهي تتلعبط على كومة من القش :
- انت بقيت شاعر والا ايه ..
وعندما سألتها عن السبب الذي جعلها تتخيل أنني شاعر
قالت وهي تقترب مني :
- أمال قاعد لوحذك ليه ؟
- زهقان ..
وقالت بتهكم :
- الله يكون في عونك ، وزهقان من ايه بقي ؟
- من نفسي ..
وعندئذ نهضت فوزية فجأة ، والتصقت بي ، وقالت وهي
تقرصني في يدي :
- زهقان والا زعلان ..
- وهازعل من ايه ؟
- عشان ريتا ..
ريتا ؟ هل تعرف فوزية حكايتي مع ريتا ؟ هل حكى لها
فتحي بدير أم رتيبة ؟
وقلت وأنا أتصنع الهدوء :
- أنا مازعلش من واحدة سافلة ..
وسألتني ساخرة :
- وريتا سافلة ؟!
- جدا ..
- من امتي ؟ من يوم ماتجوزت الراحل الانجليزى ؟
لم أكن فى حالة نفسية تسمح لى بمناقشة فوزية حول هذا

الموضوع الى اكثر من هذا الحد ، فقلت أسألها محاولا تغيير دفة الحديث الى وجهة أخرى :

- ٠٠ انت ازيك دلوقت ؟ ٠٠

- عال ٠ معاك سيجارة ٠٠

وناولتها سيجارة ، وأشعلتها لها ، وأشعلت لنفسى سيجارة

أخرى ورحنا ندخن معا فى صمت ٠٠

وقفت فى ذهنى صورة فوزية اذ التقيت بها أول مرة ، وعندما كنا نجلس معا على شاطئ البحيرة فى « أبو جاموس » ننتظر عودة الرفاص ، هذه هى فوزية نفسها التى اشتيتها يوما ، نجلس اى جوارى فى الليل نصف عارية تدخن بشراهة ولا يتحرك فى نفسى نحوها الا شعور مبهم ، خليط من الرثاء والشفقة ، لشد ما تغيرت أنا خلال تلك الفترة القصيرة العريضة التى عشتها فى القنال ، لقد شبت فى داخلى ، أصبحت الآن كهلا فى النائثة والعشرين ، شىء ما فى داخلى اهتز وتحطم واشتعل شيبا ، شىء مالا أدريه ، ولا أستطيع أن أحدد موضعه ! ولنسعى البرد بشدة فانتفضت ، وقالت فوزية وقد لسعها البرد هى الأخرى :

- فوم ننام جوه ٠٠

ونهبضت معها الى الداخل ، وأضأت المصباح ، وتمددت بملابسى بعيدا فى ركن الحجرة ، ونكن صوت فوزية ارتفع من خلفى ينادينى :

- تعالى جنبى هنا ٠٠

ونهبضت من مكانى وزحفت على ركبتى وجلست اى جوارها أظننغ اليها فى وجوم ، وشدتنى من يدى وقالت وهى تجذبني نحوها بشدة :

- نام هنا ٠٠

- مش جايلي نوم ٠٠

- نام جنبى ونتكلم ٠٠

وأطعت فوزية دون مقاومة ، تمددت على الأرض بجوارها
وعيناي في عينيها ، وصدرها البارز يضرب في صدري ، وكتفها
العارية المشوهة تكاد تمتد كاصبع طويل وتخرق عيني ..
وقالت وهي تقرصني في أذني :

— انت بتفكر في ريتا لسه ؟

وهزرت رأسي بالنفي ، ولم أتكلم ، وقالت وهي تنظر نحوي
في أسى شديد :

— أنا مشوهة مش كده ؟ ..

وهزرت رأسي بالنفي مرة أخرى .. ولم أتكلم ، وعندئذ هبت
من رقتها وجلست مستندة على الأرض براحة يدها المشوهة
وقالت في ثورة عنيفة :

— آمال مابتغازلنيش ليه زى زمان ، مش انت حلمي اللي كنت
هاتنهيلى على ..

ونظرت اليها في اشفاق وقلت في هدوء :

— أنا اتغيرت يافوزية ، أنا حلمي جديد ..

وقهقهت ليس في سخرية ، وليس في استهزاء ، ولكن في
غضب شديد !! وقالت وهي تتوثب كالنمرة المفترسة :

— انت ماتغيرتش ، أنا اللي اتغيرت ، انت حلمي بتاع زمان ،

انما أنا فوزية تانيه .. فوزية مشوهة .. مش كده !! ..

كان صوتها قد بدا يعلو ، فنهضت محاولا تهدئتها ، وقلت
لها وأنا أربت على خدها في حنان :

— بالعكس ، انت أحلى م الأول ..

وقالت بنفس الثورة :

— كذب .. انت كذاب ، كللكو كذاين .. طيب اذا كنت

صادق ، إديني قدامك أهو ، فوزية بتاع زمان ، مش كده ؟ ..

ووثبت واقفة على قدميها نائرة كالبركان وفي أقل من لحظة ..

في أقل من لحظة ، خلعت قميص نومها وألقت به بعيداً ..

واستدردت بسرعة ووجهي نحو الحائط ، مسكينة فوزية ، لقد
جنت فجأة ٠٠ ولكن ثورتها لم تقف عند حد ، كان جرحها
عميقا ينزف بلا انقطاع ! فقالت تصرخ من خلفي :
- مش عاوز تشوف التشويه ، مش كده ، أطفيلك النور ٠٠
ثم انقضت على المصباح وأخمدت أنفاسه ، وساد الظلام
والسكون فجأة ، ولكنها لم تتوقف عن الحركة ، كان صوت
أقدامها وهي تزحف على الارض ينبىء أنها تقطع الفراغ البسيط
فى الحجرة جيئة وذهابا كأنها وحش فى قفص ، ثم سكن كل
شئ ، وشعرت بيدها تتحسس عنقي من الخلف ، وقالت وهي
تجذبني من قفاى :

- ماتيجي جنبى ، ماتخافش ، مش هاتشوف حاجة ، انت
مش كنت عاوز فوزية أهه ، ايه رأيك ؟
وقلت وأنا أقبض على يديها بشدة :
- بالعكس ، أنا كنت عاوزك ، وعاوزك على طول ، انت
مسكينة يا فوزية ، أعصابك تعبانة ، الله يكون فى عونك .
ورنت ضحكها المستهزئة وقالت :

- الله يكون فى عونى ؟! عندك حق ، مانا باشحت ، حقا
تقوللى ربنا يحزن عليكى ٠٠ معاك قرش فكه تدهولى ٠٠
وقلت وأنا أضحك ضحكة خفيفة ، ويداي تقبضان على
يديها :

- تعرفى لو كنتى بتكتبى يافوزية ، كنتى بقيتى أكبر كاتبة
ساخرة فى بلدنا ٠٠

وردت وهي تقترب منى ، وأنفاسها تلفح وجهي

- ساخرة !! كويسة قوى !!

ثم تخلصت من قبضتى ، وضغطت بأصابعها على عنقي .
والصقت شفتيها بشفتي ، كأنها تقوم بتمثيل لقطة قبله فى
الاستديو . وعندئذ لاحظت الشئ الذى لم ألاحظه أبدا ، كانت
رائحة الحمرة تفوح من فمها ، كانت فوزية ثملة ، وكان واضحا

أنها عبت كميات ضخمة من الحمير الرخيص أفقدتها وعيها ،
ودفعت بها بعيدا عنى بقسوة ، وقلت غاضبا :

— انت سكرانة يافوزية ..

وردت بلا مبالاة :

— سكرانة ، أبدا ، أنا مش سكرانة ، أنا .. هيمانة ..

ونفضت من مكاني وأشعلت عود ثقاب واتجهت نحو المصباح ،
ولكنها زحفت على الأرض وتشبثت بقدمي فى اصرار ، وقالت
وهي تصرخ :

— لا .. ماتولعش النور ، خلينا فى الضلمة عشان ماتقرفش .
وقلت وأنا أخلص قدمي من يديها :

— عيب يافوزية ، أنا مش عاوز أشوف حاجة ، ولا بقرفش
من حاجة .. انت بنت كويسة وعظيمة وبطلة .. وعيب بقى .
وضحكت وتركت قدمي تفلت من بين أصابعها ، وقالت وهي
لاتزال تضحك :

— أنا بنت كويسه ، بالعكس يامحترم ..

وفجأة أجهشت فى البكاء ، وزحفت حتى وصلت الى حيث
قميصها على الأرض ، وكرمشته بين أصابعها ، وعضت عليه ..
أنا مش بنت .. ثم انت هتكون أقل من مين ؟ ما الهجانه
عملوها ، انت أحسن م الهجانه ، أنت أظرف ، مش كده ..
عندما غمر النور الحجرة ، كانت فوزية على الأرض تكاد تكون
غارية تماما ، وعندما رفعت عينيها نحوى كانت تبكي ، الدموع
تببل عينيها وتنحدر على خديها ، فى قسوة ، وانخرطت فى
البكاء ..

وتركتها تبكي واندفعت خارجا من الحجرة الى الفناء ، وكان
الفجر قد حل بصورة مفاجئة ، والجوا أصبح أكثر برودة والعساكر
فى أماكنهم يحلمون أحلاما سعيدة ، وباب فتحى مغلق عليه ،
وبكاء فوزية لم ينقطع ، وتمنيت لو القيت بنفسى على العشب
المبلل بالندى ونمت ، ووقفت حائرا لأدري ماذا أفعل ، وأنقذنى
من حيرتى صوت عربة فارهة توقفت فجأة أمام العش ، ونزل

منها حمزة بك عبد المقصود ، وراح يصرخ بصوت عال يدعو
فتحى بدير الى الخروج ..

واستقبلنى حمزة والدهشة تغمره ، فلم يكن يتوقع وجودى
فى مثل هذا الوقت ، ولا فى مثل هذا المكان ؟ .. وقال لى وهو
يلهث كأنه جاء الى العش جريا على الأقدام ..

— الانجليز قدموا انذار نهائى ، راح ينسفوا المحافظة بكرة ،
نسف يا أستاذ ، فتحى فى ؟ ..
— ازاي هينسفوها ..

— طالبين م البوليس يسلم سلاحه أو ينسفوا المحافظة ،
الحكومة بتاعتنا عاوزة تحارب ، تحارب بايه ، دى دبابات
شيرمان يا أستاذ ، فتحى فى ..

ولم يرد حمزة بك على أسئلتى الكثيرة ، اندفع الى الباب
المغلق ، وراح يدق عليه بشدة ، وصوته يصرخ فى انفعاله
شديد. يدعو فتحى بدير ..

الفصل العشرون

كان فتحى بدير الذى لم يقاتل فى حياته أبدا ، يقف على رأس رجاله بملابسه العسكرية ، ومدفعه الرشاش فى يده ، والسيجارة لا تغادر شفتيه ، وعيناه الضيقتان الغشاشتان تنظران فى قلق بالغ الى الطريق ..

وعندما لمح فتحى بدير على البعد ، العربة الصغيرة السوداء التى كان ينتظرها منذ الصباح ، هتف وصوته يرتعش ، - استعد !! ..

وعندما اقتربت العربة من جيش فتحى بدير ، كان الجميع فى وضع استعداد . وتحركت الاصابع بسرعة ، وانطلق الرصاص يخترق العربة فتتحرف الى اليمين ثم الى الشمال ثم تنقلب فى الرمال !!

ورغم النار والدخان والصرخات التي انبعثت من هيكـل
السيارة ومن داخلها فان الرصاص لم يكف لحظة ، ولم يتقدم
رجال فتحى بدير خطوة الى الامام الا عندما تأكدوا تماما أن ركاب
العربة قد ماتوا جميعا ، وان أصابعهم لم تعد تقوى على تحريك
الزناد ! ولم يكن فى العربة السوداء الصغيرة التى يرفرف على
مقدمتها علم بريطانى صغير سوى ثلاثة رجال ، السائق
وجاويش بريطانى يحمل مدفعا رشاشا ، وضابط برتبة كابتن ،
وامرأة شقراء كالقمر ، شعرها أحمر فى لون الشاى ، وبعد
لحظات كان رجال فتحى يلوذون بالفرار عبر الصحراء الى عش
النسر ، وقد حملوا معهم كل ما استطاعوا خطفه من الغنائم ،
مدفع الجاويش ، ومسدس الكابتن ، وغطاء رأس السائق ، فقد
رأى فتحى أنه أكثر أناقة من الغطاء الذى يستعمله ، وأنه
يصلح لمعارك الصحراء والحقول ، بلونه الأصفر المائل الى
الاخضرار ! ..

وكانت ريتا التى لقيت مصرعها قبل غروب الشمس على
الطريق المهجور الممتد بين المدينة ومعسكر الانجليز ، قد استيقظت
مبكرة وأشرفت على اعداد حقائبها لتفادر الفندق الى المعسكر ،
وبعد أيام تفادر المعسكر والاسماعيلية كلها الى قبرص ، فهكذا
رأى زوجها القائد اكسهايم « لان أمورا خطيرة سوف تحدث خلال
الايام القادمة » !!

وكان حمزة بك عبد المقصود يعلم نيا سفرها ، ولعله الرجل
الوحيد من غير الانجليز الذى كان يعلم هذا الخبر ، ولهذا السبب
أسرع فجر الامس الى عش النسر واجتمع بفتحى بدير قائد كتيبة
وحوش الجبال ، ولانه لم يكن يعرف بالضبط الوقت الذى حددته
ريتا لرحلتها الى المعسكر فقد أوصى فتحى بالانتظار على الطريق
مند الصباح الباكر حتى تغيب الشمس ، وكانت الصفقة مغرية

بالنسبة لفتحي ، فهي هي الفرصة قد ستحت له ، ليخوض معركة
.. النصر فيها مضمون مائة في المائة ، سيقا تل فتحي بدير على رأس
عشرين رجلا سيارة أو ستين سوداء بها ثلاثة رجال وامرأة مسلحون
يمدفع رشاش ومسدس سريع الطلقات ، وكان الثمن شيكا
وقعه حمزة بك بألف جنيه على بنك باركليز في المدينة ..

ورغم الشيك الذي دسه فتحي بدير في جيبه ، ورغم الفرصة
التي سنحت له ليخوض معركة واحدة في حياته .. فقد كان
هناك سبب آخر دفع فتحي بدير الى خوض المعركة ، سبب له
صلة بريتا نفسها ، ريتا الأنتى ، وليست ريتا الحائنة زوجة
القائد انبريطانى فى المدينة !

لقد كان فتحي بدير يحب ريتا ، وكان يتمنى أن تكون له
ولو ليلة واحدة ، ولكنه فشل دائما فى لفت نظر ريتا اليه ،
وظل الحب بينهما من طرف واحد ، ولعل ذلك هو السبب الوحيد
الذى جعل فتحي يكره حمزة بك ويحتقره . لم يكن يكره حمزة
بك الرأسمالى الاقطاعى محترف السياسة ، بل لعله كان فى
أعماقه يحبه ويحترمه ، ويعجب بجدعنته وفهلوته التى يسرت
كل السبل أمامه ، وفتحت له طريق الثراء والمجد والنفوذ
وهو الذى بدأ حياته فقيرا مغمورا مثل فتحي بدير ! ولكنه كان
يكره حمزة بك الرجل ، كان يكره حمزة بك الذكر ، حمزة بك
الذى كان يحصل على أجمل النساء .. ويمتلك أرق النساء !

ولعل ذلك هو السر الحقيقى لكراهية فتحي بدير لحمودة ، كان
حمودة جاهلا ، وكان فظا ، وكان جلفا ، ولكنه كان محظوظا مع
النساء !! حتى مدام ريتا كانت تحب حمودة !! وفى المرات
القليلة التى التقى فيها فتحي بدير وحمودة مع ريتا ، كان حديث
ريتا كله مع حمودة ، كانت نظراتها مصوبة نحو حمودة ، كانت
أسئلتها موجهة لحمودة ، كانت أجوبتها ردا على أسئلة حمودة ،

وكانت أحيانا تتكلم مع فتحي وتنظر نحوه ، ولكن هذا كان يحدث
مصادفة ولدة قصيرة !!

ولعل هذا هو السبب نفسه الذي جعل فتحي يخطف رتيبة
من حمودة ، لم يكن فتحي يحب رتيبة ، ولكنه كان يكره حمودة ،
وكان فتحي بدير يريد أن يحقق انتصارا واحدا في هذا الميدان ،
ولم تكن رتيبة شهية ، ولم تكن جميلة ، ولم تكن فاضلة ، ولم
تكن صعبة ، ولكنها امرأة على أية حال ..

وكان فتحي بدير يعلم حين خطف رتيبة ، أنه ليس كفؤا لها ،
انه رجل كامل الرجولة ، ولكنه ليس فحلا ، ليس في قوة حمودة
ولا في صحة حمزة بك ، عشرات الامراض فتكت بأمعائه ومعدته
ومسالكه البولية ، فصار حطاما ، يلهث لأقل مجهود ، وينقطع
قلبه اذا زعق !

وكان فتحي بدير يدرك عقدة النقص فيه ، وكان يكذب دائما ،
كان يكذب على الرجال ، ولكن كيف يكذب فتحي بدير مع النساء ،
خصوصا اذا خاض معهن تجربة ! كان فتحي يردد قصة كاذبة
قرأها مرة في كتاب ، أو شاهدها على الشاشة ، هو نفسه
لا يدري ، كذبة خلاصتها انه فقد رجولته في معركة الصحراء
الغربية عندما كان يقاتل في صفوف الانجليز ضد جيش روميل
.. وكيف ان لغما انفجر فيه فضيعه !

وكان الرجال الذين لا تربطهم بفتحي صلة صداقة قديمة
يصدقون الكذبة ، وكان يفرح دائما كلما صدقه أحد ، بل كان
يحس نحو هذا النوع من الناس بحب جارف عميق ، ولكن
أصدقاء فتحي القدامى لم تنطل عليهم الكذبة أبدا ، ففتحي بدير
لم يغادر الاسماعيلية زمن الحرب ، ولم يقاتل أحدا في حياته ..
ولم ينفجر فيه لغم ما .. ولهذا السبب أيضا كان فتحي بدير

نزاعا دائما نحو التجديد ، نحو التغيير ، كان يغير أصدقاءه كما
يغير حمزة بك بنظروناته • كان يعيش فى كذبة ضخمة كبيرة ،
وكان سعيدا بها غاية السعادة ، لولا هذه المرأة السليطة المسان
رتيبة !

وها هو الآن يحس فى نفسه هدوءا صافيا ، فقد انتقم ،
حمودة مات ، قتله الانجليز ، وريتا ماتت ، قتلها هو ، صوب
نحوها مدفعه حتى بعد أن ماتت ، مزق برصاصاته بطنها ،
وشوه وجهها ، وشعرها الاحمر اشتعلت فيه النار وأكلته ،
أصبحت ريتا الجميلة مجرد فحمة سوداء !!

وحمزة عبد المقصود !! هاهو شيك بامضائه بألف جنيهه ،
بداية مشروع ناجح كان يحلم به فتحى بدير منذ زمن بعيد •
سيهجر هذا العش ، سيخلع هذه الملابس ، سيودع هذه الحياة
التافهة الى الأبد ، سيدخل الميناء مقاولا للأنفاز ، سيفوز حمزة
عبد المقصود فى عقر داره •• لقد بدأ حمزة بمبلغ أقل من هذا
بكثير ، وهو فهلوى ويجيد عدة لغات ، وناعم كنعان ، وله عشرة
وجوه ، مؤهلات تفتح طريق المجد والثروة والنفوذ !•• ومن
يدرى بعد عشرة أعوام ؟ سيصبح فتحى عضو مجلس النواب ،
سيحترف السياسة ، سيكون له قصر على شاطئ البحيرة ،
ستكون له أجمل النساء وأرق النساء •• وسيدق التليفون فى
غرفة نومه بعد منتصف الليل ، سيكون المتحدث حمزة بك
عبد المقصود ، سيرتفع صوته العجوز :

— هالو اكسلانس ، أنا كنت عاوز أقابل سعادتك ••

ويجب فتحى وهو يتشاءب :

— مش قادر يا حمزة •• تقدر تقابلنى بكره ••

لا بعد بكرة ، بعد أسبوع ، بعد شهر ٠٠ بعد عام ٠٠

وغربت الشمس ، وأشعتها الباهتة التي تعاني الموت لاتزال
خيوطها الواهنة تتشبث بالأفق ، وتعكس ضوءها الاحمر الدامي
على مياه البحيرة ، وكان فتحي بدير الذي جاء الى العش واهنا
منزوف الانفاس يجلس بكامل ملابسه العسكرية ومدفعه بين
يديه على عشب الفناء ، شاخصا في حزن شديد نحو الأفق ، حزنا
لا يدري له سببا ، انه لم يقتل أحدا من قبل ، انه لم يضرب أحدا ،
ليس من باب العطف أو الرحمة ٠٠ ولكن من شدة الحزن ، لقد
كان فنحي جباناً ، لم يكن له قلب حمودة الشجاع ، ولكنه هذه
اللحظة قتل ، واطلق النار على ريتانمزق بطنها وصدرها ، ولكم

تمنى في أعماقه قبل أن يضغط على الزناد أن يقبلها ، أن يميل
عليها ويحتضنها ، كانت جميلة حتى وهي ميتة ، كانت رائعة
رغم الموت ، وشرها الجميل كان ينسدل على كتفها في لون دمها
الذي انبثق من قلب الجراح ، لكم كان يتمنى أن يفعل ذلك لولا
الجيش الذي كان يحاصره ، ولولا خوفه من أن يصل الانجليز
فجأة ٠٠ ولو أن الانجليز عرفوا حقيقة الامر لما تركوه ، الانجليز
كم عاشرهم ، وكم عرف طبائعهم المضحكة ، تقتل ألف جندي
فلا يتحرك الانجليز ، ولكن أن تقتل زوجة القائد ، فهذه مسألة

كرامة ، سيدخل الانجليز القاهرة في سبيل القبض على فتحي ،
وتعليقه من قدميه على شجرة جميز عتيقة على جانب الطريق .
وقلبه الآن يدق بعنف ، والخوف يحتوى كيانه الضئيل لسبب
لا يدريه ، والمساء حل على الكون بصورة كثيفة ومخيفة ، لم يكن
للظلام هذا اللون من قبل ، لم تكن له هذه الرهبة في الايام الحالية
٠٠ لو قبض عليه الانجليز الآن فسيعترف بالحقيقة ، سيقول كل
شيء ، حمزة بك هو الذي حرضه ، هو الذي دفعه الى قتلها ، هو
الذي دفع ثمن المعركة ألف جنيه بشيك على بنك باركليز ، لو

ان حمودة حتى الآن لاستطاع أن يتصرف ، كان حمودة يستطيع أن يصنع المعجزات عند الخطر ، ولكنه عاجز تماما عن أن يفعل شيئا سوى الانتظار... ولكن الانتظار هو عدوه الحقيقي ، الانتظار هو مصدر الخطر ، لو استطاع أن يهرب تحت جناح الظلام الليلة والى الأبد !! فكرة لأبأس بها ! ولكن كيف يهرب والشيك فى جيبه بألف جنيه لابد من سحبه على بنك باركليز فى المدينة ! سيسحبه غدا ، سيأخذ المبلغ ويبدأ حياة جديدة باسم جديد ، ولكن من يعلم ؟ لعل حمزة بك وشى به عند الانجليز ، وسيجد الانجليز غدا فى انتظاره عند البنك ، سيسلمه لهم كما سم حمودة ، وسيصبح فتحي بدير شهيدا ، سيصبح أسطورة تنقلها أفواه الحشاشين فى الغرز المنتشرة على شاطئ البحر !

وتوقف عقل فتحي عن السرحان عندما انطلقت فى الظلام صرخة من أحد رجاله :
- انجليز .. انجليز ..

وعلى الفور انطلقت عدة رصاصات لا يدرى فتحي من أى اتجاه ، وتجاوبت أصداؤها فى الناحية الأخرى من البحيرة .. وأدرك فتحي أن الانجليز قد وصلوا .. لابد أنهم عرفوا كل شيء ، سيدمرون العش الآن ، سيعلقونه من قدميه على جذع شجرة ، وبلا تردد ترك فتحي مدفعه على الأرض واطمان الى أن الشيك يرقد مكانه فى جيبه ، وانطلق يعدو فى الظلام على شاطئ البحيرة ، والطلقات تتبعه وتسبقه .. والصراخات التى تتعالى خلفه تخرق أذنيه .. وكان أثناء فراره يصطدم بالأشجار وأعمدة التلفراف ، ويسقط على وجهه وعلى ظهره ، ويتسلخ جلده ، وتتكسر عظامه ، ولكن شيئا من ذلك لم يكن يعنيه .. كان كلما اصطدم أو انقلب يضرب يده فى جيبه يتحسس الشيك ، وعندما أصبح فتحي بعيدا تمهل قليلا يريد أن يلتقط أنفاسه ، ولكنه سرعان ما عدل

عن هذه الرغبة ، عندما ترمى الى اذنيه وقع أقدام تجرى بسرعة خلفه ، وراح يجرى حتى انقطع قلبه تماما . وعندئذ تمهل رغم أنه ثم فوجيء بصوت من الخلف يدعو ، واكتشف فتحي انهم رجال جيشه ، تركوا أسلحتهم فى العش وكل ما يعوق حركتهم فى الفرار وانطلقوا خلف قائدهم ، ولم يكن كل رجال فتحي فى طابور السباق . كان بعضهم فقط ، والبعض الآخر فاجأه رصاص الانجليز فمات ، وبعضهم وقع فى الأسر . .

وانطلق فتحي مع رجاله على شاطئ البحيرة الى قرية أبو جاموس ، وكانت أنوارها الخافتة تشع فوق الهضبة وبيوتها الطين التي تنحدر من القمة الى السفح حتى الشاطئ تبدو فى الضوء الباهت وكأنما بعثرتها على التل يد عملاقة فى اهمال شديد . واستقبلتهم القرية استقبال الابطال ، وانفتحت البيوت فى الليل ، واشتعلت النار فى الافران تعد الطعام ، والشاي يغلى داخل أكواز الصفيح السوداء ، والتي كانت يوما ما علما لأطعمة محفوظة يبيعها النافى لجنود الجيش ، وراحت العيون تحمق فى وجه فتحي ، بطل الابطال الذى مزق أحشاء زوجة قائد الانجليز ، والأيدى المرتعشة المعروقة تمتد اليه تصافحه وتشد على يده ، والوجوه تقترب منه تعانقه ، والصدور تنبض بقوة وهى تحتضنه ، ولأول مرة شعر فتحي بأهمية بالغة ، وشعر باطمئنان شديد ، وهو يرشف أكواب الشاي على مهل ، ويدخن السجائر فى لذة فائقة ، ولأول مرة تذكر فتحي أنه فى اللحظة التى أطلق فيها سافيه مع الريح هاربا من عش النسر ، كان داخل العش امرأتان فوزية ورتيبة ، ومال فتحي على رجاله يهمس فى آذانهم يسأل عن مصير المرأتين ، ولكن أحدا لم يكن يعلم شيئا ، ولم يكن يعنيه أن يعرف شيئا عن مصيرهما ، لقد تركوا المرأتين خلفهم يواجهان مصيرهما المحتوم ، وانفجرت شفتا فتحي فى أسف مبالغ فيه :

— الله يرحمهم ، كلنا رايعين ، ماحدث راح يفضل . .

ورفع الناس الطيبون ، أهالى قرية أبو جاموس .. أيديهم ائى
أعلى وقرأوا الفاتحة على روح الشهداء ، وكذلك فعل فتحى بدر
وهو يتحسس بيده التى تشبه عود قصب مكسور ، الشيك
الذى يرقد آمنا فى طيات ملابسه ..

وجلس فتحى يستمع فى اهتمام بالغ الى ماحدث بعد المعركة
.. الذى اكتشف الامر سيارة جيب بريطانية عبرت الطريق
بعد الحادث بنصف ساعة ولم تلبث أن انطلقت الى المعسكرات
ثم عادت وخلفها عربة مصفحة ، ولقيف من جنود المظلات ضربوا
بطاقا حول المنطقة ، ولكن الخبر كان قدوصل الى المدينة ، وهرعت
جماعات كثيرة من الناس الى مكان الحادث ، بعضهم دفعته الرعبه
فى الفرجة ليس الا ، وبعضهم أثارته قصة ريتا ونهايتها ! ولكن
الانجليز حالوا بين الناس وبين الوصول الى السيارة المحترقة ،
ولكن عندما جاء حمزة بك سمحوا له باختراق النطاق الذى
ضربوه ، واقترب حمزة بك الى حيث كان يقف القائد اكسهام
زوج ريتا .. ولم يكن حمزة وحده ، كان معه شاب صغير راح
يكتب أرقاما وحروفا على ورقة ، وعندئذ صاح فتحى يسأل الناس
الذى يقصون عليه أنباء الحادث :

– الواد حلمى الصحافى ..

وعندما عجز الناس عن الاجابة ، قال وهو يطحن أسنانه:
– هوه مافيش كلام ، أهو الواد ده كان لازم يموت راخر ،
دا كان عشيق ريتا ..

ثم جلس يستمع الى الرجال الذين شاهدوا الحادث فى وجوم .
كيف اجتمع خلق كثيرين يحاولون اختراق النظام ليلقوا نظرة
أخيرة على ريتا وهى ذابلة الوجه فانية مثل كل شىء فى الوجود .
وضاعت جميع المحاولات التى بذلها الانجليز لتفريق الناس
بالحسنى ، وأخيرا أطلقوا النار فى الهواء ، وماجت صفوف الناس
بعضهم ببعض وقد استبد بهم ذعر شديد ، دفع بهم ، ليس الى

الفرار كما توقع الانجليز ، ولكن الى اختراق الحصار ، الى الهجوم
 على عساكر الانجليز ! واستطاع بعضهم انتزاع المدافع من يد
 الجنود ، ونراجع الانجليز الى الخلف ، وأطلقوا النار على الجموع
 وسقط العشرات قتلى ، وتعالى الصراخ ، وجن بعض الجنود وألقوا
 بأنفسهم فى مياه الترعة ، واستخدم الناس كل ما استطاعوا
 استخدامه فى القتال . . الاحجار ، والرمال ، والاظافر ، والاسنان
 واضطر الانجليز الى الانسحاب بقتلاهم ، وعشرات الجرحى يلعقون
 التراب ، وأصبحت الجموع التى جاءت من أنحاء شتى فى المدينة ،
 وبلا غاية تربطهم ، أصبحوا كتلة واحدة ، أصبحوا جيشا واحدا
 بلا قائد ، وتعاون الجميع وحملوا الجرحى على أكتافهم وجروا بهم
 نحو المدينة ، وسحبوا القتلى الى عربات الكارو وسيارات النقل
 التى تصادف وجودها ، وراحوا يصرخون طول الطريق بطالبون
 بالسلاح ، والنساء تصرخ فى فزع شديد تطلب الثأر . وأقبلت
 جموعهم على المحافظة . . هديرها يهز الجدران كالرعد ، وانضم
 الى المئات ألوف كانوا يجلسون على المقاهى ، وألوف كانوا فى
 البيوت ، وألوف كانت الحواري والأزقة تخفيهم عن العيون وتضيق
 بهم ، ولم تلبث المدينة أن تحولت الى بحر ، والناس كال موج ،
 يرتطمون بعضهم ببعض ، ويتدافعون بالمناكب وبالأيدي ، ويسدون
 الطرق فى الليل ، يحطمون المصابيح لكى تصبح المدينة سوداء ،
 ترتدى الجدران والشوارع ثوب الحداد على الشهداء . وسرت
 سمست بين الجموع الثائرة الغاضبة ، التى ثارت فجأة ، والتى
 غضبت فجأة ، بعضهم لا يدري سببا لثورته ، ولا سببا لغضبه
 ولكنه ناثروا غاضب ، لان الجموع كلها ناثرة ، وكلها غاضبة ، سرى
 الهمس بين الجموع . . أين حمزة بك ؟ أين نائب المدينة ؟ وقال
 بعض الذين شاهدوا المعركة من بدايتها لقد ذهب مع الانجليز ،
 انسحب معهم ، ليكون الى جانب جثة ريتا الى آخر لحظة .
 واندفعت الجماهير الى حافة الصحراء ، الى قصر حمزة بك ، كان
 القصر غارقا فى الظلام ، ولا أحد هناك ، واندفعت الناس خلال

النوافذ والابواب ، فحطموا كل شيء ، وداسوا على كل شيء ، ثم أشعلوا فيه النار ، وعندما ارتدت الجموع الى المحافظة كانت دبابات الانجليز قد نزلت الى المدينة ، دبابات ضخمة ، ومدافع ميدان ، لقد جاء الوقت لتنفيذ الانذار ، فاما أن يسلم عساكر البوليس أسلحتهم أو تقوم الحرب ، ولكن أية حرب هذه بين قوات المظلات بدبابات سنتريون ومدافع الميدان ، وألف جندي من بلوكات النظام وقفوا داخل الفناء بعضى مكسورة ، وبنادق تنطلق حيناً ، ولا تنطلق أغلب الاحيان .

اندفعت الجماهير الغاضبة نحو الشارع الرئيسى تريد مواجهة الانجليز فى معركة فاصلة ، ضلت الجماهير التى تغلى بالغضب ، فلم تستطع تقدير الموقف على أساس سليم ، وكيف تستطيع هذه الجماهير ، وهى بلا قائد ، الغضب هو قائدها الوحيد ، وهو دليلها الوحيد . . . واستدارت المدافع نحو الجماهير وانطلقت فجأة ، وفجأة أيضاً تبعثر الموج الى كل اتجاه ، انطلقت تجرى فى فلول نحو الأزقة والحوارى ، واقتحموا البيوت ، وقفزوا على الاشجار كل يطلب النجاة ! ولم يكف الانجليز . . . اصطادوهم من الخلف كالحمام . . . اقتحموا البيوت خلفهم ، تعقبوهم الى الأزقة الى الحارات أغرقوا الارض بالدماء ، فرشوها بالجلث ، ثم عادوا الى المحافظة ينتظرون اللحظة التى حددها للهجوم ؟

وقال فتحى بدير بعد أن انتهى الرجال من سرد الحوادث :

— وفاضل أد ايه ع الهجوم ؟

— ساعة

وقال فتحى بأسف شديد :

— يا خسارة ، مامعناش سلاح ، كنا رحنا نجدناهم . . .

وهتف واحد من الرجال الذين كانوا فى الحلقة المضروبة حوله

فتحى بدير :

- السلاح موجود عندنا .

ورد فتحى وهو يتصنع الفرحة الشديدة :

- الحمد لله هاتوا السلاح .

ووقف فتحى خارج القرية يوزع السلاح على رجاله . . . وعلى الآخرين الذين توسلوا الى فتحى أن يضمهم لجيشه الصغير ، ليخوضوا المعركة جنباً الى جنب ، ووقف الفلاحون حولهم يدعون لهم بالنصر ، وقال فتحى بدير وقد انتهى من توزيع السلاح :

- احنا رايعين نموت ، الى عاوز ييجى معانا يتفضل ، واللى مش عايز يرجع من هنا .

وصمت لحظة لم يرتفع فيها صوت . . . كان يتمنى لو اعترضوا جميعاً ، أو أحدهم على الأقل . . . أن رحلته هذه تختلف كثيراً عن رحلاته السابقة . . . فد تكون رحلته الأخيرة ، ففي المدينة حرب حقيقية لم يتعودها ولم يتعودها رجاله ! ولكن المصيبة انه ليس وحده الآن ، وليس مع رجاله فقط ، أن معه آخرين ، وعليه أن يقاتل الآن ، عليه أن يدخل المعركة التى تحاشى دخولها طول العمر !

ومضى طابور فتحى بدير مخترقاً الصحراء ليدخل المدينة من الخلف ، وراح الرجال الذين تطوعوا مع فتحى والذين ساروا فى بداية الطريق يحثون الحطى ليدخلوا المدينة قبل أن تبدأ المعركة . . . وفتحى يمشى على يمين الطريق يفكر فى هذا الذى حدث له ! . . ما الذى أوقعه فى هذه الورطة ؟ لقد هرب من عش النسر ناجياً

بجلده ، ولكن ما أغرب هذا الهروب ، كان يهرب الى حتفه ، كان هارباً من الموت الى أحضان الموت ، والشيك لا يزال مكانه . . . سيصبح هذا الشيك قصاصة ورق بعد موته ، ما أغرب الأقدار !

من عجب الحياة انها تمنحك ماتريد ، ولكن ليس فى الوقت المناسب
لوانه حصل على الشيك منذ عام مثلا ، منذ عامين ، منذ عشرة
أعوام ، لكان له اليوم شأن آخر ، ولكن هاهى الاقدار تضع الشيك
بين يديه وهو يزحف نحو القبر ! الشيك هو منديل الوداع ،
تلوح به الحياة وهو مسافر بلا عودة •

ولكن فتحنى بدير الفهلوى لن يعدم وسيلة للنجاة ، لقد قضى
حياته كلها يتحين الفرصة للحصول على هذا المبلغ ولن يدع
الفرصة تفلت من بين يديه •• وستكون المعركة التى ستندشب عما
قليل قاسية ومريرة ، ولن تدع فرصة التفكير لأحد ، ليرى من
الذى ثبت ، ومن الذى ولى الادبار !

وتوقف الطابور عند أبواب المدينة وانفجر ينفتخ خيوطه الاولى
على الكون •• وبسرعة عجيبة وزع فتحنى رجاله الى جماعات ،
وألقى بأوامره ، وأمر مشوشة متناقضة ، فلم يكن لديه الوقت
ولا الاعصاب ليدرك ماتتفوه به شفتاه ! واختار أحسن رجاله ،
أحسنهم خضوعا وانقيادا ، ومضى معه الى داخل المدينة •

كانت المدينة هادئة ساكنة يخيم عليها شبح الموت ، والطرقات
خالية تماما ، حتى الكلاب الضخمة المتشردة يسدو انها ولت
الفرار نحو الصحراء الآمنة ، وفوانيس النور مكسورة وملنوية ،
وشظايا زجاجها متناثر على الارض المظلمة ، يحدث رنيناً كلما
اصطدمت به الاقدام ، وتوقف فتحنى عند حارة ، وأمر الرجل
الوحيد الذى معه أن يسلك طريقه وحده الى المحافظة على أن يلعب
معا هناك ، وانحرف فتحنى نحو الحارة واختفى فى الظلام !

كنت أقف مع ثلاثة رجال فى مكان منعزل يشمارع الثلاثين
نتحدث فى همس ، ونترقب نصب المدافع التى ستنتطلق بعد قليل

عندما سقط شيء ثقيل على الأرض أحدث دويًا مزعجًا بدد السكون الذي كان يحتوى كل شيء ، واندفعنا جميعًا نحو مصدر الصوت ، وقد أبصرنا زغم الظلام شبحًا يحاول أن يتواري عن الأنظار خلف حائط متهدم ، وعندما اقتربنا منه ، اكتشفنا أنه فتحى بدير ، ولم يكن الشيء الثقيل الذي أحدث الصوت سوى مدفع الرشاش سقط من يده المرتعشة عندما وقع بصره فجأة علينا وعندما اكتشف فتحى أنني مع الأشباح الأربعة التى تحركت نحوه ، قال بصوت مرتعش :

— صباح الخير يا حلمي .. انت عرفت الى حصل ..
وعندما عرف أنني أعرف كل شيء ، قال بنفس الصوت المرتعش :

— رجالتى هتهجم ع الانجليز النهارده احنا من ورا والعساكر من قدام ، ربنا يسهل .

وعندما سألته عن مصير رتيبة وفوزية هز رأسه أسفا ، وقال وهو يهز مدفع الرشاش :

— المعركة كانت قاسية قوى ، انسحبت فى الآخر ، ماقدرتش
أعرف ايه الى حصل ..
ثم استأذن منا ، وغاب فى الظلام !

أزفت الساعة التى حددها الانجليز للهجوم على المحافظة ، وضاعت كل المحاولات التى بذلوها مع اللواء زكى مراد ليقبل الشروط التى وضعوها للتسليم ، طلب الانجليز أن يسلم العساكر أسلحتهم ، ثم يقدموا أنفسهم كأسرى للانجليز ، ويخرج زكى مراد على رأس ضباطه وأيديهم مرفوعة فوق رؤوسهم .. خالعين ملابسهم العسكرية لتنقلهم سيارات الجيش الانجليزى الى خارج

منطقة القناة ، ولم يكن لدى زكى مراد أدنى اعتراض على تسليم سلاح العساكر ، لم يكن لديه أدنى مانع على أسر جنود بلوكات النظام ، ولكن أن يخرج من المحافظة ، رافعا يديه الى أعلى فهذا هو المستحيل ؟ أيعقل أن يحدث هذا ؟ زكى مراد الذى قضى حياته لا يتصور أرقى ولا أنبل من سترته العسكرية المحبوكة ، ونجومه اللامعة على كتفه ، زكى مراد بعد هذا العمر الطويل يخلع البدلة العسكرية تحت تهديد السلاح ، ويخرج رافعا يديه الى أعلى ، انه لم يقدس شيئا فى حياته الا الرتبة الاعلى ، ولكن سخرية الايام أن الرجل الذى يطلب منه هذا الطلب بريجادير ، رتبته أقل ٠٠ وحسب المنطق ينبغى على اكسهام أن يقف أمام زكى مراد ، ويدق الارض بكعب حذائه ، ويرفع يديه بالتحية ، أن زكى مراد يموت ولا يخنع ملابسه العسكرية ، ولا يستسلم لضابط برتبة بريجادير ٠٠

وهكذا بدأت المعركة فى أول لحظات الصباح ٠ ورغم البرد الشديد والجوع والقذائف التى صبها الانجليز على مبنى المحافظة ، فقد استبسل العساكر فى الدفاع عن أنفسهم ، وضاعت كل محاولات الانجليز لاقتحام المحافظة عنوة ، كانت كل موجة تحاول الاقتحام تتكسر على صخور بلوكات النظام ، والناس الذين هزتهم القذائف وأيقظتهم من النوم ، وانطلقوا الى الشارع بالفتوس والعصى والسلاح يشدون أزر عساكر البوليس على قدر المستطاع وجنود فتحى بدير الذين فقدوا قائدهم ألحقوا بأنفسهم الى المعركة واستطاع بعضهم تسليق أسوار المحافظة من الخلف والانضمام الى عساكر البوليس ، وخلق آخرون فزعوا فانطلقوا على وجوههم فى الصحراء يطلبون النجاة بكل الوسائل وبأى الوسائل !

وكان الانجليز حتى الظهر لم يستخدموا فى المعركة الا مدافع الهاون والرشاشات ، والقنابل اليدوية ، والبنادق السريعة الطلقات ، وكان قائدهم قد قدر الموقف على أساس أن جنود

انبلوكات سيرفعون أيديهم مستسلمين في اللحظة الاولى للقتال ولكن عندما بدا له انه شيء كالمستحيل أن يقتحم المحافظة بالاسلحة التي اختارها للقتال ، عدل عن رأيه ، واتجهت مدافع الميدان الضخمة نحو المحافظة ، وتحركت الدبابات بسرعة تدك جدران المبنى الآيل للسقوط ، والذي بناه الحديوى اسماعيل منذ قرن من الزمان لينزل فيه الضيوف العظام الذين جاءوا لحضور احتفالات افتتاح القناة ! ولم تكد تمضى ساعة حتى كانت المحافظة مجرد أنقاض ، أكوام من التراب والأحجار اختلطت بالعظام المسحوقة ، والدم المراق ، وخرج اللواء زكى مراد ، من بين الحطام فى اربعة بعد الظهر تماما ، ويداه فوق رأسه ، وقد بذل مجهودا كبيرا ، لتبدو سترته العسكرية على خير وجه ، نفض التراب والغبار عنها وشدها الى أسفل ، وأصلح من شأن نياشينه وتيجانه ، وحرص على أن يمسحها بمنديله وقد بلله بلعابه ، لتبدو براقه لامعة كالعهد بها على الدوام ، ونقلته سيارة بريطانية الى المعسكرات ، بينما راح طابور الأسرى من العساكر يزحفون على الطريق الأسفلت وقد خلع الانجليز ملابسهم وأحذيتهم وربطوهم بالحبال وجروهم كالعبيد الى معسكر الاسماعيلية عبر رحلة من الشقاء والآلام طولها خمسة كيلو مترات ..

وفى نفس اللحظة:لتى وصل فيها طابور العساكر الى المعسكر ، كان فتحي بدير يدعك عينيه ليتبين مكانه فى ظلام الكهف الذى فر اليه فى الصحراء فى نفس اللحظة التى بدأ فيها القتال . وعندما اطمأن الى أن كل شيء على مايرام ، دس يده فى ملابسه وانتزع الشيك وراح يتحسسها فى لذة . ثم اندفع خارجا من الكهف الى المدينة التى سادها الظلام ..

النهاية

ما أعمق التغيير الذى حدث للمدينة خلال الليل ، والاسماعيلية التى كانت تغلى ليلة أمس ، طلع عليها النهار وهى هامدة ، أنقاض البيوت تسد المنافذ . وجثث القتلى تزحم الطرقات ، والأحياء الذين انطلقوا هائمين على وجوههم فى الشوارع ، لا يسرون كما يسير الأحياء عادة ، ولكنهم يزحفون ، الوجوه شاحبة والعيون زائفة ، كأنهم نزلاء مستشفى للمجاذيب فروا منها خلال المعركة ، يبدو أن أحدا فى المدينة لم يكن يصدق أن الانجليز يضربون المدينة بالمدافع الثقيلة ويقتحمون العشش بالدبابات ، ويحاربون عساكر البوليس بطائرات نفثة .

ولكن الشئ الذى لم يكن يصدقه أحد حدث بالفعل ، ها هم الانجليز فى كل شبر ، فى كل ركن ، والمحافظة خالية ، ليس فيها عساكر ، وليس فيها محافظ ، ليس فيها شئ الا أحجار طحنتها الدبابات وعظام سحقتها القنابل !

ومن أكوام التراب والرماد ، ووسط دخان المعركة ، كانت تندفع سيارات الاسعاف الى المستشفى المركزى تحمل القتلى

والجرحى • القتلى أمرهم هين ، ولكن المصيبة الكبرى التى واجهت المستشفى •• هم الجرحى ، ان مستشفى الاسماعيليه كآى مستشفى فى الاقاليم لم تكن سوى مجرد ديكور !! أقصى جهدها أن تواجه بجريح واحد ، ولكن مئات الجرحى ؟ هذا هو الشيء الذى لم يكن فى الحسبان ! لم يكن فى الحسبان رغم المعركة المستمرة منذ شهور ! والرصاص الشارد فى جو المدينة منذ أسابيع !

ليس الناس فى المدينة فقط هم الذين كانوا لا يتوقعون ، بل الحكومة التى بدأت المعركة مع الانجليز كانت لاتصدق أيضا ، ان المعركة مجرد هزار ، والانجليز ليسوا قساة القلوب الى الدرجة التى يمكن أن يحاربوا بها الناس بمدافع ثقيلة ودبابات ضخمة ، غاية الامر قتيل أو قتيلا ، وجريح أو عشرة ، ثم يرتدى الفريقان رداء السهرة ، ويجلسون على مائدة مستديرة أو مائدة ذات أضلاع فى فندق كبير ، يرتشفون أقذاح الويسكى ويبحثون الامر بعيدا عن صخب الجماهير •• حتى الدكتور العجوز مدير المستشفى لم يكن يصدق ، طلب مرة من الوزارة أدوية لمواجهة الموقف فى المدينة ، ولكنه لم يتلق جوابا ، ونسى الامر هو الآخر فلم يكرر الطلب ولم يلح فيه ! وها هى المصيبة أمامه تتسع كجرح خبيث لا يريد أن يطيب •

وفى الردهة الطويلة وبين عشرات الجثث التى فارقتها الحياة وعشرات أخرى لاتزال تنبض فى ضعف شديد وقف الدكتور العجوز يلطم على خديه ، وماذا يستطيع أن يفعله الا اللطم على الحدود ، ثم البكاء ، نعم ، بكى الدكتور العجوز كالنساء ثم أغمى عليه ، لقد أصبح الآخر فى حاجة الى اسعاف ، والاطباء الآخرون يصارعون الموت بلا جدوى ، وبعضهم انطلق يجرى فى الطرقات بحثا عن دواء ••

كانت سيارات النقل الضخمة لاتزال تتوافد على باب المستشفى

تحمل الجرحى والقتلى عندما توقفت أمام الباب الخلفى عربة كارو عتيقة تحمل سبعة من الجرحى .. وترجل منها أفندى ضئيل وقف يصرخ أمام الباب طالبا المساعدة ، ولم يلبث أن التف حوله خلق كثيرون تعاونوا فى نقل الجرحى الى الداخل ، بينما وقف الأفندى العجوز يشرف بنفسه على عمليات النقل ، وصوته المسرع يوزع التعليمات والارشادات على الجميع ، ولم يكن الأفندى الضئيل صاحب الصوت المسرع سوى الطبيب البيطرى العجوز الذى استعانت به ريتا ذات مساء بعيد لعلاج حمودة ، وكان الرجل قد قضى أياما طويلة فى أسر الهجانة فى الصحراء ، ثم أطلقوا سراحه يوم المعركة ، فقد مات الهجانة جميعا ، قتلهم الانجليز ، اذ صادفهم فى طريقهم الى الاسماعيلية فتخلصوا منهم حتى يأمّنوا ظهورهم ، لم يكن الهجانة فى نظر الانجليز سوى قوة مسلحة يجب القضاء عليها قبل بدء المعركة فى المدينة .

وفوجئ الرجل عند دخوله المدينة ليلا بالمدافع تنطلق والدبابات تقتحم البيوت ، فاختفى فى بيت منعزل حتى هدأت المعركة ، ثم انطلق خارجا يبحث بين الانقاض وأكوام التراب عن جرحى يطلبون المعونة .

وعندما انهارت قوته تماما ، حمل جرحاه على عربة كارو الى المستشفى . ولكن حالة المستشفى صدمت الطبيب البيطرى العجوز فوقف يصرخ بأعلى صوته ولكن صراخه تبدد فى الزحام والصخب الشديد ، ولكن الطبيب لم يهدأ حتى لمح فتاة صغيرة تزحف نحوه فى جهد شديد ، صفراء كالليمونة ، مجهدة كأعرا بى ضل الطريق ، ولم تكن الفتاة الصغيرة سوى فوزية ، وهتف الدكتور فى وهن شديد :

— فوزية ! ..

وابتسمت فوزية ولم تتكلم ، وقال الطبيب وهو يرتب على كتفها فى حنان شديد كأنه لا يصدق عينيه :

— مالك يافوزية ؟

— ولا حاجة . . بس باشتغل فى المستشفى طوال الليل والنهار . .

— مافيش أدوية كفاية ؟

— لا مافيش . .

— والعمل ؟ . .

— أنا فكرت فى طريقة كويسة ، خليك هنا لحد مارجع .
وتسللت فوزية وسط الزحام الى الخارج ، وانتقت من الجموع
الكثيرة التى تزحم المستشفى عشرة رجال وتقدمتهم الى
الشارع .

ان المدينة زاخرة بالادوية فى المخازن المغلقة ، ليس هناك من
وسيلة الا اقتحام هذه المخازن والحصول على الادوية مهما كان
النم ، عملية سطو ، نعم ، ولكن ماذا يهم ، ان كل لحظة تمر
يموت فيها عشرات الناس ، واصحاب الصيدليات أغلقوها بالضربة
والمفتاح وهجروا المدينة فى الفجر . وانهاالت الفتوس الضخمة
تحطم المخازن ، والأيدي الحشنة تستولى على كل شىء ، والرجال
المجهدون يحملونها فوق ظهورهم الى المستشفى . . ورغم الزحام
الشديد ، والفوضى التى لا حد لها ، لم تمتد يد الى شىء ، كل مافى
المخازن من أدوية وصلت الى المستشفى ، خزانة النقود لم يفتحها
أحد ، لم تمسها يد ، الناس تغيروا كأنهم يواجهون يوم
القيامة .

ومن الذى لم يتغير ، فوزية تغيرت هى الاخرى ، ولدت من
جديد ليلة الامس . كان يدا عملاقة قد امتدت الى أعماق نفسها
وجذبت من قاع القاع أحسن وأعظم صفاتها ، والصفات التى
كانت قد رسبت فى القاع بعد أيام حافلة قضتها فى مركز

بوليس الهجانة بالصحراء • وعلى ضوء النار التى اشتعلت فى
المدينة اكتشفت فوزية انها لم تخسر كثيرا ، بعض الناس هنا
فقدوا ارواحهم وفوزية خسرت ••• خسرت ماذا ؟ ••• شيئا
ثميننا لاشك ، ولكن بالوسيلة التى ضاع بها ، يصبح هذا الشيء
أثمن ، العساكر الهجانهم الذين يستوبوا عليه •• وبدن الهجانه
مجرد ظل ، مجرد خيال ، الفاعل الاصلى هم الانجليز ، الذين
دكوا المدينة وأشعلوا فيها النار ، وعندما تعيش فى بلد يحكمها
سيد غريب وافد من وراء البحار ، تصبح بلا قيمة وبلا كرامة ،
وبلا ثمن على الاطلاق •

الهجانه الغلابه ماتوا! أضافى المعركة • عندما تنشب المعركة
لايفرق الانجليز بين الاعداء والاصدقاء ، كل من يختلف عنهم فى
اللون عدو ! فوزية والهجانه لم يفهموا هذا من البداية ، لقد
ماتوا جميعا فى منقاهم الاختيارى بالصحراء ، فى نفس المكان
الذى ارتكبوا فيه جريمتهم ضد فوزية من أجل الانجليز، والأيدى
الحسنه الغليظه لاتزال تهوى بالفئوس وتحطم أبواب المخازن ،

والأدوية تتسلل من بين الانقاض فوق ظهور الناس الى المستشفى
•• لابد أن الجرحى فى حاجه اليها • وتجرى فوزية بأقصى ما تستطيع
الى هناك ، الأطباء الذين تفرق شملهم عادوا ، والجرحى خفت حدة
صرخاتهم ، ومدير المستشفى أفاق من الإغماء ، والطبيب البيطرى
العجوز ينحنى على جريح فى الصاله ، وتقدمت فوزية من الطبيب

وانحنى الى جواره ، غريبه ، هذا الجريح شكله مألوف ، لقد
رأته فوزية من قبل أين ؟ لاتدرى أين ! أكان فردا فى الكتبية ؟
كان من رجال حمودة أو فتحى بدير ؟ وامتدت يدها الى جيب
الجريح وانتزعت منه بطاقة ، لقد عرفت الآن ، على جبران ضابط
مباحث الاسماعيليه! لذى استدرج حسين الى المحافظه، ثم استدرجه
الى القاهره ! لو أن حسين كان هنا الآن ! من يدري ؟ ربما تغير
الموقف قليلا ، ربما لم يكن على جبران بين الجرحى ، وانتبهت

فوزية على يد الطبيب تلكزها بشدة ، انه يطلب ماء ساخنا على وجه السرعة ، ونهضت فوزية من مكانها ، والبطاقة فى يدها ، ووسط الحشود التى تملؤها ردهات المستشفى راحت تشق طريقها فى صعوبة ولكن أنفاسها بدأت تضيق ، صدرها ينقبض ، وساقاها لم تعو- اتقويان على السير ، ويداه ترتعشان ، وأصابعها تنفرد فى ضعف بالغ ، ونظراتها ليست ثابتة ، والجموع من حولها تلتحم ثم تفترق ثم تعود الى الانتحام ، والجدران تهتز ، والارض تهتز ، وكل شيء يهتز ويميل ويدور ، وتميل فوزية على الجدران تريد أن تستند .. ولكنها لا تستطيع .. وانزلقت بطاقة على جبران من بين أصابعها على الارض ، ثم أنزلقت هى نفسها على بلاط الردهة !

لم تكن القاهرة تستيقظ حتى لفظت البيوت جموع الناس كما هى العادة كل صباح ، ولكن هذا الصباح كان يختلف كثيرا ، الجموع لا تتجه الى المدارس ، ولا الى المكاتب ، ولا الى المصانع ، الناس تتجمع فى الميادين ، وفى فناء الجامعة ، والجموع كلها راحت على غير اتفاق تصرخ تطالب بالسلاح وبالثأر ، وبالرغم من الهدير الذى راح يهز جنبات المدينة ، والملايين التى خرجت الى الشوارع تعجب ضوء الشمس ، كان حسين يقبع فى مكانه هادئا فى انتظار عسكري البوليس الذى يمر عليه كل صباح ليتأكد من انه لم يغادر البيت الى مكان آخر ، ولكن الساعات راحت تمر دون أن يحضر عسكري البوليس . وعندما انتصف النهار أحس حسين أن فى الامر شيئا ، فارتدى ملابسه على عجل ، وخرج يجرى الى الشارع . ووقف فى ميدان الجيزة يرقب بفرح شديد ، جموع الناس تزحف كالجراد وتصرخ فى صوت كالرعد ! هاهى الجموع المتهافئة المتهالكة دبّت فيها الحياة فجأة ، ولا أحد على وجه الارض يستطيع أن يوقف زحف هذه الجموع ، أو يهدى من ثورتها .

لا أحد ، لا أحد ! وما هي النار تسرى من الجموع اليه ، فتشده اليهم ، وتحمله على الاعناق ، انه يهتف بقوة ، لا أحد بين هؤلاء الناس اكتوى بنار المعركة مثله ، لا أحد خاض التجربة مثله ، لا أحد خدع مثله . ولكن لا يهم ، ان الفرصة لم تفت ، الفرصة لا تزال سائحة ، ويبدو أن الامور تتطور الى أحسن ، فها هي الجموع الثائرة تمضى الى غايتها دون مقاومة ، ليس في الشوارع كله أثر لعسكري بوليس واحد ، لا العساكر خلف الجموع تهتف بمي الاخرى وتتظاهر ، الحكومة عادت لرشدتها ، ولأول مرة عساكر الحكومة مع الشعب في معركة لأول مرة ! واندفع الطابور الذي لا ينتهي من كوبري قصر النيل الى ميدان قصر النيل الى شوارع المدينة ! وما هو النهار ينتصف ، وحسين يصرخ فوق الاكتاف ، والجموع تصرخ تهز جدران البيوت ، وتمائيل الأسلاف ، والوقت يمر ببطء ، والطابور الطويل انقطع ذيله ، ثم انقطعت رأسه ، تسلسل الناس الى الشوارع الخلفية ، ولكن حسين لا يزال على الاكتاف ، والناس الذين ظلوا في الطابور لا يزالون يصرخون ، ولكن رائحة خبيثة تنتشر في الجو ، وشيء ما يلون السماء بلون قاتم انه الدخان ، والرائحة تنبعث من ألسنة النار ، ان المدينة تحترق ، انها مؤامرة ولكن من الذي يسمع ؟ ان الذين أشعلوا النار عن عمد تسلسلوا في الحفاء واندفع السدج والطيبون يلهون بالخرائق كما يلهو الاطفال ، المدينة جنت فجأة ، والنار تسرى في سرعة الرياح ، وعساكر البوليس لا أثر لهم ، حتى الذين كانوا في ذيل المظاهرة اختفوا فجأة . ولكن ماذا يفعل حسين ، ان السكون جريمة ، ومحاولة إنهاء الحريق بحفنة تراب جنون ، والناس تصرخ في الشوارع ، الجثث التي تحولت الى لون الفحم تتناثر أجزاءها على الأرصفة وفي عرض الطريق ، يا أيها الناس ، يا أيها الناس ، لا أحد يستمع ، لا أحد يهتم ، السكل يجري ، بعضهم يجري نحو النار ، وبعضهم يجري من النار ، ويا أيها الناس ، انها مؤامرة ، انها مؤامرة . . ولكن لا أحد يعيره أذنا ،

لا أحد يلتفت اليه ، هاهو الفندق الكبير يتصدع ، يتهاوى ،
كانه تل صغير من الرمال عبثت به يد غليظة ، الناس تجسرى
وسط ألسنة اللهب عرايا لا يستر أجسامهم شيء ، الفزع في كل
مكان ، على كل وجه ، خلف كل حركة ، الفزع هو زعيم الاعلبيه
فى المدينة ، ويا أيها الناس .. لا أحد يستمع ، لا أحد يلتفت ،
المؤامرة تتم ، النار فى لون وجه القائد اكسهم ، النار ليست
سمراء ، ليست مصرية ، النار ليست من هنا ، النار مستوردة
.. النار مثل جنود الاحتلال من بلاد بعيدة عبر البحار .

هذا وجه يعرفه بين النار ، هذا وجه مألوف لديه ، انه يصرخ ،
النار تحاصره ، النار تأكله ، فليندفع بكل قواه ، عظيم ، ان النار
لم تأكله ، امتدت الى بعض جلده فشوهته قليلا ، ولكن وجهه
رغم التشويه لا يزال مألوفاً لديه ، يالله انه حمزة بك عبدالمقصود
نائب الاسماعيليه كان هنا فى القاهرة عندما كانت النار تأكل
المدينة التى يمثلها ، وتاكل الناس الذين انتخبوه ، وحمزة بك
غائب عن الوعي ، حمزة بك لا يرد ، ولا يرى .. لقد مضت عربة
الاسعاف بحمزة بك ، وحسين لا يزال مكانه ، الدخان حجب عنه
كل شيء ، صوت تداعى الجدران يشبه صوت فرقعة القنابل ، كانه
الآن فى ميناء أبو سلطان ، والبحر هائج ، والرصاص يتجاوب
صداه فى الفضاء البعيد ، أرضفة الميناء تتكسر وهى تتهاوى فى
الاعماق ، والجنود الموريشان يطلقون النار ، وزوارق الطوربيد
تقتحم المعركة ، والقارب ينقلب والرفاص الوحش يقتحم الميناء ،
هاهى ذراع القبطان تمتد اليه تنشله من بين الامواج ، ياله من
قبطان طيب ، شجاع لا يكف لحظة عن عب الحمر ، ولا يتوقف
لسانه عن سب الدين ، ولكن القبطان مات ، والرفاص الوحش
غرق فى الميناء ، وفوزية ، وعلى جبران ، وحمودة ، وحلمى ،
وفتحى بدير .

وهاهى أصوات الطلقات من جديد ، ولكنه لم يعد يرى الدخان

لابد أنه كثيف على نحو رهيب ، ولكنه لا يرى حتى ولا الدخان ،
والبرودة تسرى فى جسمه ، انه جريح ، انه فاقد الوعي ، وهاهم
عساكر البوليس يظهرون ، ومعالم الشارع لا يبين منها شئ ،
ليس بسبب الدخان ، ولكن بسبب الليل ، الليل حل على المدينة
وظلقات النار تعوى كالكلاب الجائعة ، وعساكر البوليس يحملون
حسين على الاكتاف الى عربية ، والعربة تنطلق الى بعيد ، الى
المستشفى ؟ لا الى السجن . ان حسين مجرم ، وهو الذى أحرق
القاهرة !

والعاصمة تعلق جراحها فى صممت . . وظلام الزنزانة يشبه
ظلام ليلة الحريق . . وصور صاحب الجلانة تزين الصفحات
الاولى من صحف الصباح . وهاهى الوجوه الجديدة التى احتلت مقاعد
الحكم ، ثمانية عشر وجهها غليظا ، الطرايبش معوجة على رؤسهم ،
والنياشين ثابتة على صدورهم ثبوت المؤامرة ! وهذا الوجه ! حمزة
بك عبدالمقصود ، انه وزير الخارجية ، الانجليز اذن تولوا الحكم ،
وجورج الخامس سيفاوض جورج الخامس ولكن فى عصر جديد !
وسنفاوض الانجليز وبنادقنا فى أيدينا ، ومطلب الشعب هو الجلاء
التمام أو الموت الزؤام ! كلمات من نار لمعالى وزير الخارجية ، انتهت
اللعبة اذن ، وجاء حمزة بك لينفذ أسلوبه ، ومناوشات مع الانجليز ثم
التفاوض ، وفى كل خطوة يكسب شيئا من الانجليز ، وبقيّة حديث
حمزة بك عن الشهداء ، سيصرف عشرة جنيهات . . مائة ألف ،
ما أخص الاستشهاد ، ولكن الى أين ، الى أين ؟ وجاءه صوت الجاويش
الذى فتح الباب دون أن يدرى . .

— الى المحكمة . .

لقد قام ميزان العدل اذن ليقتص من المجرمين ، والمجرم
الوحيد هو حسين ، سحزون رأسه أيضا ثمنا لجريمته . . كان
المعتوه يظن أن المعركة حقيقية . . أخذ المسألة مأخذ الجد ، انه ليس
متلاثما مع الوضع ، انه مجنون ، والبقاء دائما للأصلح ، والأصلح

هو الأنسب ، حسين ليس صالحا للحياة ، لانه غير مناسب للجو ، من قال أن المعركة لم تكن مفيدة ، لقد مات بعض المجانين ، وكل المجانين ضمتهم جدران السجن ، وحمزة بك فى الوزارة ، وجلالة الملك كان هو القدائى الاول ، هذه هى الحقيقة تنشر لأول مرة فى حلقات على الناس ، كيف رفع سماعة التليفون ، والدموع فى عينيه ، والتهدج فى صوته ، كيف صرح فى جزع شديد ، ليت لى ولد ليحارب فى القنال ، ولكن الاقدار شاءت أن تحرمنى هذا الشرف ، اليكم اذن نقودى ، اليكم خزائنى ، حاربوا الانجليز وسادفغ الثمن ! يالها من أسرار عجيبة ، والناس تقرأ القصة كل صباح ، تصدق أو لاتصدق ، ماذا يهم ؟! المهم انهم يذهبون الى المصانع والمكاتب كل صباح ، ويعودون الى البيوت كل مساء ، وينامون من المغرب ، والعساكر تحرس كل شىء ، وتتحفظ على كل شىء ، ما أعظم الحياة فى هدوء الآن . لا صيحات ولا اضطرابات والحكم عاد الى أيدي أصحابه ، انهزم الغوغاء ، وانتصر العدل !

ولكن أين فتحى بدير ، الشيك لايزال بين طيات ملابسه ، انه فى الاسماعيلية يرقب تطورات الحال فى حذر . . نفسه أكثر هدوءا ، فقد ماتت رتيبة ، صرعتها رصاصا طائشة وهى تحاول الهروب من المدينة فى الليل ، لقد شاهد جثتها بنفسه ، منتفخة زرقاء فى المشرحة . . وحمزة بك فى الوزارة ، ولكن ليست هناك أية اشارة على أنه ينوى الغدر به . لقد خرج يسعى فى المدينة دون أن تمتد اليه يد ، لو كان حمزة بك ينوى الغدر به لقبض عليه البوليس . ولكن البوليس قبض على كل الناس الا فتحى ، ليس هناك ما يخشاه فتحى بدير . ان حمزة بك رجل أعمال ناجح ، ولقد قتل له ريتا فدفع له الثمن ، صفقة دفع فيها حمزة بك ألف جنيه ، وماذا يهم ألف جنيه ، ان حمزة بك يملك مئات الالوف ، حمزة بك غنى والاغنياء دائما أمناء ، ان

الله يعطيهم لهذا السبب ، انهم ليسوا غشاشين مثل فتحي ، ولا وحوش مثل حمودة ، وهو نفسه بعد أن يقبض الالف جنيه سيختفى عن طريق حمزة بك ، سيتوارى عن ناظره ، سيبدأ حياته فى بلد بعيد ، سيحاول أن يجد نفسه من جديد ، لقد ضاع خلال السنين الطويلة التى عاشها على هذه الارض ، ولكن آن الأوان ليعثر على نفسه . . سينسى ماضيه ، سيجمعه ويحرقه ، ويستقر . كم تستفزه نافذة مسدله الستائر يشع نورها الخافت ! كم تستفزه ضحكة صافية تنطلق من صدر لم يعان المتاعب ! كم تستفزه لمسة حب بريئة من قلب لم يعان الاحزان ، حياته هو كانت متاعب وأحزانا الا انه لم يهدأ لحظة ، يخيل اليه انه ولد واقفا ، وأن أحدا لم يحتضنه كبقية الاطفال ، انه لم يكن طفلا ، لقد ولد بشعر يشتعل شيبا ، ولم يكف لحظة عن الصراخ منذ جاء الى هذه الحياة !

ولكن بنك باركليز لم يفتح أبوابه بعد ، البنك لم يستأنف أعماله ، كل شىء عاد الى ماكان عليه الا البنك ، وفتحي بدى قلق أشد القلق على مصير البنك ، لو يستطيع فتحى أن يسأل عن مصير البنك ، ولكن من يسأل ؟ الانجليز ؟ ! انه لايجرؤ ولا يستطيع ، أهل المدينة ؟ ، ولكن من يدري . قد يثير سؤاله الرية . وعندئذ من يدري ماذا يحدث له ؟ !

ليس أمامه اذن الا الانتظار ، وانتظر فتحى أسبوعا ، وفتح البنك أبوابه ، هاهو توقيع فتحى بدير واضحا من ظهر الشيك ويد الموظف تمتد من خلال النافذة الضيقة ويدقق فى الشيك ويحديق فى وجه فتحى ، ويتنسم ويهز رأسه ، ويرجوه أن ينتظر لحظة . .

بعد لحظة ينتهى كل شىء ، سيحصل فتحى على الالف جنيه ، سيبدأ حياته بعد لحظة ، ولكن ماأروع الفارق بين حياته التى سيبدوها وحياته التى سيودعها ! ها هو الشيك ينتقل

مع انساعى الى الداخل ٠٠ بعد لحظة سيتحول الشيك الى اوراق خضراء ، وقلب فتحى يدق بعنف ، انه لم يحمل فى جيبه أبدا هذا القدر من الاوراق الخضراء ، انه يخشى أن يتصرف بحمق ، عليه أن يزن خطواته وابتساماته ٠٠ ان بعض الناس تفقد عقولها فى مبلغ مثل هذا ، وعليه أن يحتفظ بعقله ليواجه حياته الجديدة ، انه بدون عقل لا يستطيع أن يفعل شيئا ولا بالوف الجنيات !!

هاهى الاوراق الخضراء مع الموظف ، يد الموظف تعد على مهل ، مائة ، مائتين ، خمسمائة ، سبعمائة ٠٠ ألف ! وفتحى بدير يقبض عليها بكلتا يديه ، ولكن يد أخرى تشل يديه من الخلف وتجذبه بشدة الى خارج البنك ، وعلى الباب عربة تنتظر وفى العربة عساكر بوليس وضباط ٠٠ فعلا اذن حمزة بك ، فعلا ، ولكن لماذا فعلها حمزة بك ، لماذا ! انه سيفضحه ٠٠ سيقول كل شيء ، هو الذى حرصه على قتلها ، هو الذى دفع الشمن ٠٠

الآن انتهى كل شيء ، مضى أسبوعان على المحنة ، والهدوء يسيطر على كل شيء . البلد تبدو كالسجن بعد لحظة التمام . وفتحى بدير فى المحافظة لا أحد يدرى مصيره ، وحمودة مات ، قتله الانجليز ، وريتا مزقها رصاص فتحى بدير ، وحمزة بك فى الوزارة ، والانجليز لا يزالون هنا ، والجو شديد البرودة ، ومحطة الاسماعيلية تضيق بالمسافرين ، بعد دقائق سيسافر أول قطار يغادر الاسماعيلية الى القاهرة منذ نشوب المعركة ، لا مكان لقدم على رصيف المحطة ، وأنا واقف أرتعد من البرد فى انتظار القطار ، والناس تتصرف كأن شيئا لم يحدث ، كأنهم لم يدخلوا معركة ، ولم يطلقوا رصاصة ، ولم يدفنوا فى التراب شهيدا قط !! الى جوارى كانت تقف حصاد المعركة .

فوزية ساهمة تتدثر في معطف قديم ، ونظراتي لا تتحول عن وجهها ، كم هي صغيرة ورقيقة وشاحبة ، وقطعنا المسافة الى القاهرة وقوفا على أقدامنا ، لقد تأخر القطار اللعين في الطريق فوصل بعد التاسعة ٠٠ والمدينة نائمة وهادئة وكان

علينا أن نقضى ليلتنا على الرصيف ، ومن خلال القضبان الحديدية التي تلتقي حول المحطة ، القيت نظرة على الميدان ، كان مهجورا ولا أثر فيه لأحد . أحيانا ترتفع دقات غليظة ، وزعيق حاد ، ويبدو على الأثر في ظلام الليل جندي متدثر في بالطو ثقيل ، والسونكى يلمع فى طرف البندقية ، ثم لا يلبث أن يعود الهدوء ويختفى الجندي في ظلام ٠٠ أى شئ جرى للمدينة حتى أصابها هذا التحول الخطير ؟ انها تبدو كمدينة مهزومة رغم أن الانجليز لم يهزموها ولم يدخلوها ٠٠ لقد هزمها حمزة بك ، ودخلها

بالنيابة عنهم ٠٠ ودمست يدي فى جيبي وأخرجت رزمة أوراق ، ومزقتها فى عصبية دون أن ألقى عليها نظرة واحدة . لقد كانت تحمل أخبارا من الاسماعيلية لجريدتى ، أن الجريدة تطلب أخبارا ، لايهمها من المعركة الا الاخبار ! ولكن ماذا تفيد الاخبار ؟ هذه المدينة المسجونة ، أى شئ تجنيه من وراء نشر الاخبار ؟ انها ليست فى حاجة الى أخبار بقدر حاجتها الى رجل ، رجل واحد عملاق له قلب أسد ، وايمان نبى . المدينة المسجونة فى حاجة الى نبى ، يعيد نشر الطمأنينة فى القلوب الواجفة ، والايمان الى القلوب الضعيفة ٠٠

وقالت فوزية وهى تزغدنى :

— حنمى ، الدنيا سودة كده ليه ؟

ونظرت الى فوزية ولم أجبها بشئ ، فقالت وهى ترفع رأسها الى الفضاء ٠٠

- القمر لسه ماطلعلش ، الدنيا كحل يا حلمى ، أنا قلبى
مقبوض مش عارفه ليه !!

وضغطت على يدها فى حنان .. وجذبتها نحوى فى ود ،
وابتسمت فوزية فى براءة الطفل ، وألقت برأسها على صدرى
وأغمضت عينيها فى استسلام لذيد .. ثم فتحت عينيها من
جديد وراحت تنظر فى السماء الواسعة تترقب ظهور القمر ..

« انتهت »

الكتاب الذهبي

يصدر عن مؤسسة روز اليوسف
الاشتراكات

مصر : ١٢٠ قرشا عن سنة - ٦٠ قرشا عن نصف سنة
الخارج : ١٨٠ قرشا عن سنة - ٩٠ قرشا عن نصف سنة
رئيسا التحرير المسئولان : فتحى غانم - وجمال كامل

المدير العام : عبد الغنى عبد الفتاح

الاعلانات يتفق عليها مع الادارة

٨٩ (أ) شارع قصر العيني - تليفونات : ٢٠٨٨٥-٢٠٨٨٦
- ٢٠٨٨٧ - ٢٠٨٨٨ ٠٠

جميع الحوالات ترسل باسم « روز اليوسف »
بريد مجلس الأمة



طبعتم بمطابع
مؤسسة روز اليوسف